مكتبة الدراسات اللغوية

(١)

اللسان والإنسان

مدخل الى معرفة اللغة

بقلم

الدكتور حسن ظاظا

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١


اللسان والإنسان
مدخل الى معرفة اللغة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ما الذي يحدث عندما تنبثق فكرة من الأفكار في خاطر الإنسان فيريد نقلها إلى أخيه الإنسان، دقيقة، شديدة الشبه بما يجول في ذهنه؟ إنه ـ والفكرة ما تزال هائمة في آفاق النفس ـ لا يجد لها أبعاداً محسوسة، لا يعرف لها كنهاً مادياً يحمل تقاسيمها وتفاصيلها، فهي في المطلق الفكري وجود غير متجسد، شيء مائع رجراج تستحيل الإحاطة به. وهنا يحدث ارتباط معجز بين العقل والأعصاب وبين الأعضاء الجسمانية للإنسان، فيبدأ عملية ترجمة: من المطلق الصامت إلى المحدد الصائت. يخرج الهواء من صدره، فتتحرك أجهزة موسيقية، بعضها في حنجرته، وبعضها الآخر في حلقه وفمه وأنفه، وإذا بالفكرة تلبس رموزاً مسموعةً بالأذن، وتصبح ـ بهذا الشكل ـ كلاماً. هذه العملية المعقدة الدقيقة تميز الإنسان عن الحيوان، وأفكاره المتبلورة في أصوات هي التي تكفل تقدمه الحضاري كله. فالأسلاف الأُوَل يقدحون أفكارهم، ثم يعبرون عنها باللفظ المنطوق، فتصبح تراثاً لأبنائهم، وزاداً عقلياً وروحياً ووجدانياً للأجيال التي تليهم، به يغتذون، فيستمدون القوة، وتنمو مداركهم، بحيث تبدأ مسيرتهم، لا من نقطة الصفر، بل من حيث أوصلهم الآباء والأسلاف. وهكذا تتأكد سنة التطور، ويصبح تقدم الإنسانية أمراً طبيعياً، كما أن الجمود الذي تتصف به الحيوانات العجماء ـ هو أيضاً ـ طبيعي فيها، لأنها لا تترجم فكراً إلى ألفاظ منطوقة، وبعبارة أبسط: لا لغة لها.

هذه العملية التي يخرج فيها الفكر مسبوكاً في قالب مادي هو الصوت،

والتي تبـدو بسيطة لأول وهلة، لهـا قوانـين تحكمها، لهـا نامـوس يوجههـا، ولها ظروف تطرأ عليها فتتقلب بها بين القوة والضعف. بل إن كل ما يطرأ على الفكر البشـري، أو السلوك الأخـلاقي، أو المجتمـع الإنسـاني، في حـالتي الحـرب والسـلام، والبؤس والـرخـاء، والفـوضى والنـظام، يبـدو واضحـاً في الكـلام، وتتجاوب معه اللغة، حتى إننا أحياناً لا نعرف عن أمة من الأمم المندثرة إلاَّ بقايا من لغـة، ومع ذلـك فتلك البقايـا تكفي لتصويـر وضع تلك الأمـة الحضاري، وقيمة ما خلفته لنا من غنائم الفكر، وفتوحات العقل.

مـاذا يحدث أيضـاً عندمـا أكـون مستمعـاً لا متكلماً، أنصت إلى مخـاطبي فأوافقه أو أخالفه، أصدِّقه أو أكذِّبه، أؤمـن بإخلاصـه وشرفـه أو أوقن من نفاقـه وتضليله، تتجاوب معه عواطفي أو تنفر منـه وتزدريـه؟ إنه في كـل تلك الأحوال يتكلم، يستعمل نفس الألفاظ والجمل التي أستعملهـا تقريباً؛ ومـع ذلك يختلف حكمي عـلى ما يقـول بين لحـظة وأخرى؛ بـل قد أسمـع ولا أفهم، وقـد أفهم ولا أقتنـع، وقـد أقتنـع ثم أكابـر . كل هـذه مرتبـطة بنشاط اللسـان ، ونشاط اللسان له مسالك ومزالق، وباب معرفة ذلك كله هو معرفة اللغة.

وكل ذلك مفروض فيه أن المتكلم عنده فكرة يريد أن يخـرجها إلى المـلأ، في ثوب من الألفاظ. لكنْ هناك متكلمون ليست عندهم فكرة، أصـابهم مرض الثرثرة، أي الجلبـة اللفظيـة التي لا تنطوي عـلى معنى؛ فما أصـل هـذا المـرض؟ وما علاجه؟ وكيف يتحول إلى وباء؟ وما نتائج هذه الثرثرة الوبـائية إذا اجتـاحت الصحـافة والثقـافـة والسيـاسـة في أمـة من الأمم؟ وهنـاك نقيض ذلـك أيضـاً، وهو الإنسان الذي تتألق في ذهنـه أفكار عـظيمة، وخـواطر لا مثيـل لها، ولكنـه يعجـز عن وضعهـا في الألـفـاظ التي تليق بهـا، أو يفلح بعـد الجهـد الجهيـد في إظهـارها عـلى نحو مـا، وكأنها لبست ثيابـاً ضيقة جـداً، تتمـزق عنهـا من كـل مكان. هذا الفقر اللغوي ــ هو كذلك ــ مرض، إذا انقلب وباءً شوَّه الحضـارة وعطلها، فكيف يمكن علاجه؟

كـلام البشر إذن ليس من البساطـة بما يبـدو عليه لأول وهلة. فهـو نشاط

فكري وحضاري فعال في غيره، ومنفعل به، وهو حيّ متطور متغير، يعتريه النمو والاضمحلال، ويتألق فيه الشباب كما تصيبه الشيخوخة، بل إنه كثيراً ما يواجه الموت. وكم من لغات ماتت، ولغات في النزع الأخير! وكم من لهجاتٍ تطاول اللغة الأم التي ولدت منها، وتحاول فرض نفسها بالقوة، وإسقاط أمها الفصحى عن عرشها لتحل مكانها! وإذا كان هذا من سنة التطور فإنه إذا ترك سبهللاً، دون أن يخضع لتوجيهٍ واعٍ، وتدبير حكيم، انطوى على كوارث فكرية وثقافية وقومية لا يعلم مداها إلاّ علاّم الغيوب.

ومن الواضح أن العلوم اللغوية المعيارية، التي تتضمن قوانين الفصاحة والسلامة في لغة ما، كالنحو والصرف مثلاً، لا تجيب عن أكثر هذه المسائل التي لا مجال لتجاهلها[1]. لذلك عُنِيَ القدامى من المفكرين العرب وغيرهم بتقليب هذه الأمور على وجوهها المختلفَة، وامتحان كل الآراء والظنون التي تبدو حولها؛ وكان من ذلك في تراثنا العربي والإسلامي مؤلفات كثيرة كالخصائص لابن جني، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي وغيرها، إلى جانب ما كثر الجدل من حوله مما يتصل باللغة في كتب التوحيد وعلوم الكلام، والفلسفة، والمنطق، وأدب البحث والمناظرة، وأصول الفقه.

ولكن فترة طويلة من الجمود خيمت على الفكر العربي، في القرون التي أخذ فيها التُرك بمقاليد الأمة الإسلامية ومقدَّراتها، فتوقفت هذه البحوث، إلى أن جاء الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر، فنفض عن تلك المسائل الهامة في تاريخ الحضارة البشرية غبار النسيان، وأصبحت للبحوث اللغوية مدارس ومذاهب حافلة زاخرة، تمد الفكر اللغوي بخلاصة نشاطها الذي يتعاون تعاوناً

---

(١) يقول ابن جني في الجزء الأول من «الخصائص»، ص ٣٢: «... وليكون هذا الكتاب ذاهباً في جهات النظر، إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم، لأن هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه. وإنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادىء، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي...».

وثيقاً مع العلوم اللغوية المعيارية من نحو وصرف وغيرهما، في سبيل تأمين أداة الفكر الأولى، وهي اللغة، ضد الهزات العنيفة، أو السكتات المخيفة، التي ربما تتعرض لها لو تركت دون رعاية وفحص وصيانة.

واللغة جديرة بكل هذا العناء، وبأكثر منه. فهي معجزة الفكر الكبرى، وهي عندنا ــ نحن العرب ــ معجزة الله الكبرى في كتابه المجيد. لقد كان القدامى منا ومن غيرنا يقفون أمام اللغة متحيرين: كيف عرفها الإنسان؟ ومتى؟ وهذه اللغات التي تتحرك بها ألسنة البشر، كيف تنوعت؟ وما القواعد الفكرية والصوتية، والعوامل التاريخية أو الاجتماعية التي أعطت لكل لغة منها مميزاتها؟ وماذا بقي من صلات القرابة بين هذه اللغات بعضها ببعض؟ وكيف يمكن تحديد هذه القرابة؟ وما هي فصائل لغات البشر؟ وما أحسابها وأنسابها؟ وما تزال من بعدُ أكثر من مسألة تنجم على طريق المعرفة اللغوية، التي هي عدة العدد، وعمدة العمد، في معرفة الإنسان. ومعرفة الإنسان لم تكن في يومٍ ما أوجب منها الآن. فجهل البشر بعضهم ببعض كان منذ القدم أساس النعرات العنصرية، والسر الكامن وراء ألوان القتال والصراع. وكان ذلك أمراً يمكن تصوره في أبعاد محدودة من الشرور والكوارث، أيام كان صدام هذا البشر يتم فرداً لفرد، ووجهاً لوجه، بأسلحة محدودة القوة ضئيلة القدرة على الفتك. ولكن الأمر الآن قد تغير، فطفرت العلوم الطبيعية طفرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، بحيث توصلت إلى طاقات رهيبة في الدمار الشامل الماحق، ولم يعد هناك من واقٍ إلّا معرفة الإنسان لأخيه الإنسان روحاً وفكراً ووجداناً، بحيث تؤدي هذه المعرفة إلى المرجو منها من التآخي والمسالمة. والمعرفة اللغوية هي التي تكشف بوضوح مجاهل تاريخ الفكر البشري متعاوناً بعضه مع بعض ليوصل الإنسانية كلها إلى وراثة هذه الأرض، وراثة رشيدة حكيمة، أسبابها الخير والسلم والرخاء.

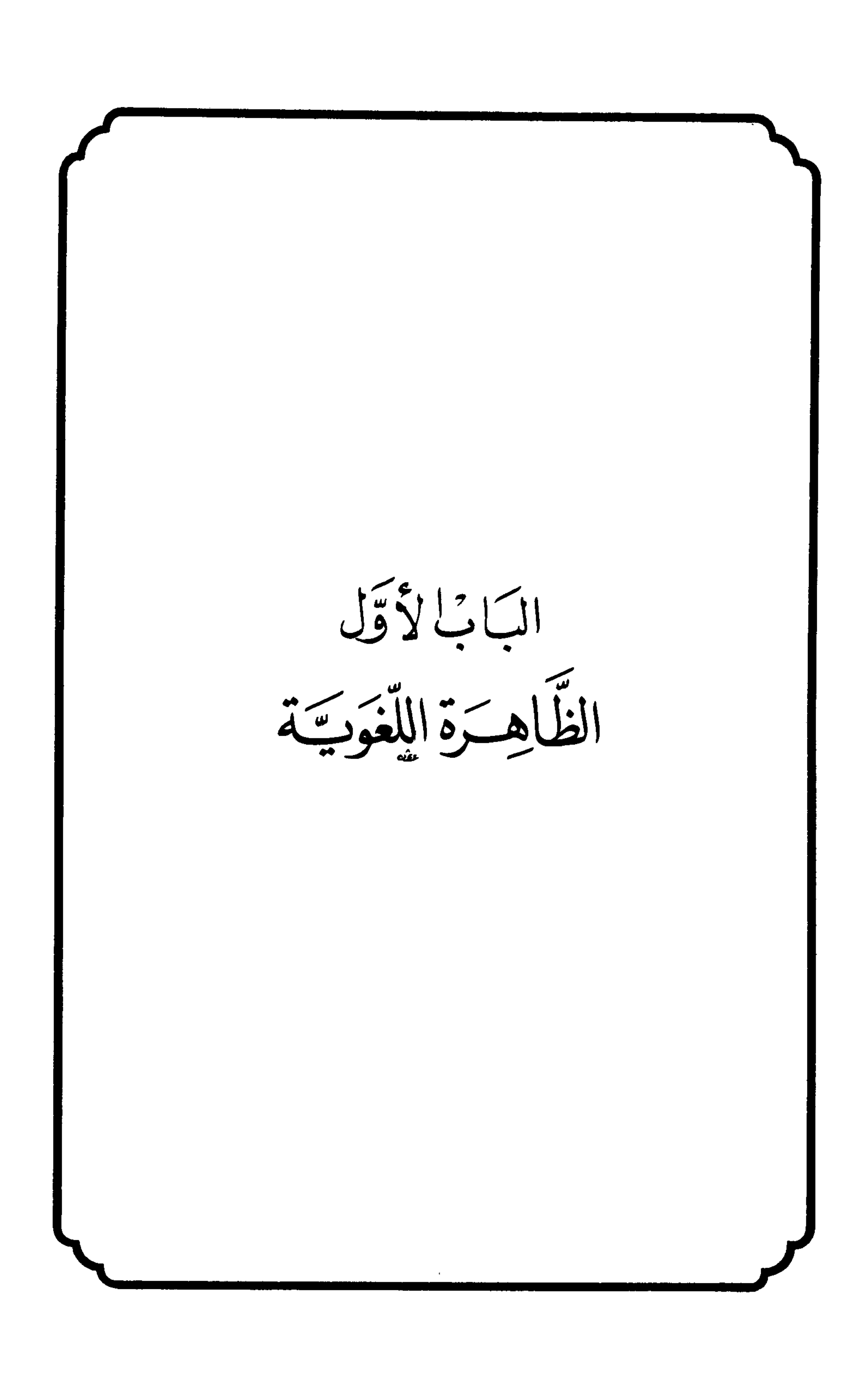
وبعد، فما تزال علامات استفهام كثيرة تشب أمام المتأمل في الألسنة واللغات، سواءً أكان من المتخصصين أم من عامة المتكلمين. وأنا في هذه

الصفحات أحاول ــ جهد طاقتي ــ تلمس إجابات شافية عن الأساسي من تلك الأسئلة، أبحث عنها بصبر وأناة عند أهل الذكر من جهابذة هذا العلم، قديماً وحديثاً، وشرقاً وغرباً، فإن أعياني البحث حاولت بتواضع أن أقول برأيي فيها، وإلَّا تركت الاستفهام قائماً، يدعو المستجيبين، والمجيبين، من محبِّي الدراسات اللغوية.

وسيلاحظ القارىء أنني ــ وأنا أتلمس الإجابة عن المسائل المشكلة المحيرة في شؤون الألسن واللغات ــ أفجّر مشاكل جديدة قد لا تكون في الحسبان. وفي رأيي أن مثل هذا لا مفر منه لمن يريد أن يسلك في مسالك اللغات، وهو ــ وراء كل هذا ــ دعوة للباحثين من أبناء الأمة العربية إلى مزيد من الاهتمام بهذه المشاكل، التي هي بعينها مشاكل الحضارة، وهي من بعدُ أمانة تراث، يجب أن نتصرف فيه بما يحفظه من التبديد، دون أن ينتهي به إلى التجميد. فالأمة حيَّة بحياة لغتها، والحياة تطور دائم، ونمو مستمر، وتقدم لا يعرف الوقوف. وذلك ما نريد بهذه المحاولة أن تحققه من الناحية العملية: أن تسهم في إقامة «وعي لغوي قومي»، فضلاً عن تحقيق ما يهدف إليه كل كتاب يحترم مؤلفه قيمة الكلام، وكرامة القارىء، فلا يحيد به عن القصد الأسمى من القراءة والاطلاع، وهو المعرفة.

المؤلِّف





البَابُ الأوَّل

الظَّاهِرَة اللّغويّة



الفَصْل الأوَّل

عِلمُ اللُّغَــة وعُلوم اللُّغَــة

هناك نوعان من العلوم يمكن التمييز بينهما بسهولة :

الأول منهما علم تنظيمي قانوني، هدفه حصر القواعد التي تنظم دائرة معينة من دوائر النشاط الإنساني، بحيث يكون الوقوف على هذه القواعد واستيعابها والتزامها والاحتكام إليها، واقياً من الوقوع في الخطأ عند ممارسة النشاط في تلك الدائرة بعينها، كما تفيد تلك القواعد في اكتشاف مثل هذا الخطأ عند من يقع فيه من الناس. فهذه الطائفة من العلوم تغلب عليها الصبغة العملية التطبيقية، وهي علوم نفعية أولاً وقبل كل شيء، لأن كلاً منها وسيلة وميزان في دائرة اختصاصه، ولذا تسمى أحياناً: العلوم المعيارية.

أما النوع الثاني فهو علم فلسفي وصفي تفسيري، يقف فيه الإنسان أمام ظاهرة من الظواهر الكونية فيحاول، بطريق التأمّل الفكري، أو المقارنة والقياس، أو الاستقراء والاستقصاء، أو التجربة العملية، أن يتعمق تلك الظاهرة محدّداً أبعادها، معرّفاً بجوهرها، واصفاً لأسبابها ونتائجها، مفسراً لها في إطار الكون الكبير المحيط بها.

والنوع الأول، أي العلوم القانونية، محدود بطبيعته. ومن أمثلته الحساب والجبر والهندسة والفلك، فكلها تمدنا بقواعد دقيقة يتميز بها الصواب من الخطأ في الأعداد والكميات والمساحات والأحجام والأجرام والجهات والأوقات وما إليها، وهي قواعد محصورة، أو ممكنة الحصر عقلاً، لأنها مرتبطة بمحدود. ولكنها عامّة، لأنها تصدق في كل زمان ومكان ومجتمع. وهناك أيضاً علوم قانونية

خاصة تنطبق على فئة معيّنة من البشر، أو على حقبة معيّنة من التاريخ، فمن ذلك علوم النحو والصرف والعروض. فالأول يتضمّن مجموعة القوانين التي تنظّم تركيب الكلام في لغة من اللغات، وتكفل تمييز الخطأ من الصواب في استعمال هذه اللغة. والثاني ـ أي الصرف ـ دستور لأوزان الألفاظ وصيغها، ودلالات هذه الصيغ، وما يعتريها عند تنويع الاشتقاق من عوارض صوتية في لغة معينة، كالإدغام والإبدال والإعلال والحذف والزيادة وما إليها. والثالث ـ أي العروض ـ هو مجموع القواعد الاصطلاحية لموسيقى الشعر عند أمة من الأمم: طيلة حياتها، أو في عصر معين من عصورها. فهذه العلوم علوم قانونية خاصة، لا تصلح لكل زمان ومكان، بل تتصل بلغة معينة لأمة من الأمم ترجع إلى أصل واحد، أو يشملها تراث حضاريّ وفكريّ واحد. وهذه العلوم تسمى علوم اللغة. ولكننا نسمع أيضاً عبارة «علم اللغة» وكذلك «فقه اللغة»، فأين موقع هذين المجالين من البحث اللغوي؟ أو بالأحرى أين مكانهما بين العلوم القانونية التي يوزن بها الخطأ والصواب، والعلوم الوصفية التفسيرية الفلسفية التي تحاول إدراك كنه الظواهر الكونية في ذاتها، وبالنسبة لما يلابسها ويحيط بها؟

نحن نعلم أن اللغة ـ وراء كونها عربية أو إنجليزية أو حبشية أو صينية ـ ظاهرة فكرية عضوية خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية. فهي إذن صفة مميزة للنوع البشري، وما دامت بهذه المثابة فإنها تضع على بساط البحث ما لا يحصى من المسائل والمشاكل: ما هي؟ كيف ظهرت؟ ما علاقتها بالعمليات الفكرية والأحوال النفسانية؟ ما مكانها بالنسبة للأفراد والجماعات؟ كيف تنمو وتتطور؟ كيف تشيخ وتموت؟ ماذا يصيبها من الأمراض والعاهات والآفات؟ لماذا تتنوع الألسنة واللغات، وما علاقة بعضها ببعض؟ إلى ما لا يكاد يحصى من المسائل والمشاكل، التي تعين في نهاية الأمر على معرفة بالإنسان نفسه أوضح وأكمل.

يقف الباحث أمام هذه الظاهرة بكل قوتها وأهميتها، وكل غموضها

وتعقيدها أيضاً، محاولاً الكشف والتحليل والتفسير، وهكذا يجد نفسه بالضرورة في نطاق النوع الثاني من العلوم حسب تقسيمنا السابق، ذلك النوع الذي يتغلغل في ظاهرة ما بالتأمل الفكري، والمشاهدة الاستقرائية، والإحصاء العلمي، والتجربة التحليلية، التي مادتها ودائرة نشاطها وموضوع بحثها **اللغة**، أو بتعبير أعمّ **الكلام**، دون أن يتقيد بنوع معين منه، أي دون أن ينحصر بحثه في لغة بعينها.

هذا اللون من البحث يسمى **علم اللغة**[١].

أما حيث ترتبط الدراسات اللغوية بلغة معينة، أو بمجموعة من اللغات، فتطبق عليها المناهج والنتائج التي كشفها علم اللغة، وتبحث بهذه الوسيلة في خصائص هذه اللغة المعينة، أو المجموعة اللغوية، وتاريخها، وتطورها، وتفاعلها مع الفكر، ومع البشر، ومع غيرها من اللغات، فإن هذا اللون من البحث يسمى **فقه اللغة**[٢]، وهو يلتقي مع علم اللغة في أنه وصف وتفسير لظاهرة لغوية، ومحاولة للكشف عن كنهها. كما أنه يستعين ــ كما قلنا ــ بالمبادىء العامة، والنتائج المستنبطة، والاكتشافات الكثيرة، والتفاسير القيمة المستقيمة، التي يمدّه بها علم اللغة. ولكنه يفترق عنه في أن دائرته أضيق وأعمق؛ أضيق

---

(١) بالفرنسية (Linguistique)، وبالألمانية (Sprachwissenschaft)، وبالإنجليزية (Linguistics) أو (Linguistic Science)، وكذلك (Linguistic Studies) التي يقابلها بالفرنسية (Etudes Linguistiques)، ووضع العالم ج. ماروزو (J. Marouzeau) عنواناً لكتاب له في علم اللغة:

La Linguistique, ou Science du Langage (Paris, 1921).

كما اختار الألماني «بولر» كتاباً له بعنوان: نظرية اللغة:

K. Bühler : Sprachtheorie, Jena, 1934.

كما اختار العالم الألماني «فونكه» عبارة «فلسفة اللغة» في عنوان كتابه:

Q. Funke: Studien zur Geschichte der Sprachphilosophie, 1927.

(٢) بالفرنسية والألمانية (Philologie)، وبالإنجليزية (Philology).

لاقتصارها على وحدة بذاتها من لغات البشر، وأعمق لأنه يوليها عناية خاصة من حيث مميزاتها وتاريخها. وعلم اللغـة بدوره يستفيـد فائـدة كبيرة جـداً وضروريـة لازدهاره، بالرجوع إلى النتائج الملمـوسة التي يصـل إليها فقـه اللغة في بحثـه في اللغات المختلفة، لدرجة أنّ «علم اللغة» لا يمكن تصوره بـدون فقه اللغـة، بل بتعبير أدق، فقه اللغات.

ولنحاول تقريب ذلك بقدر الإمكان عن طريق التمثيل، فنقول: إن وجود نـظام الطبقـات في المجتمـع يؤدي إلى تقسيمات لغـوية فـرعية في داخـل اللغـة القـومية نفسهـا، بحيث يكـون هنـاك أسلوب خـاص في التعبـير للطبقـة الغنيـة النبيلة، وآخر للطبقة الوسطى، وثالث لطبقة السوقة والعوام، وقـد يكون هنـاك اتجاه رابـع في التعبير خاص بطبقات المجرمين والخارجين عن القانون. هذه قاعدة عـامـة مقـررة في جميـع اللغـات، وهي نتيجـة من النتـائـج التي تنتمي إلى علم اللغة، لاحظها اللغويون في الإنجليزية والفرنسيـة والعربيـة والهنديـة والأسبانيـة وغيرها، كـما لاحظوا أن الفـرق اللغـوي بـين الطبقـات يتسـع كلما كانت هـذه الطبقات مقفلة منعزلاً بعضها عن بعض تماماً؛ هكذا كانت في العصور الوسطى الأوروبية، لغة الأمـراء ورجال الـدين بالنسبـة للغة الفـلّاحين، ثم للغـة القتَلَة وقطّاع الطرق. وفي العصور الوسطى الإسلامية لم يكن هناك مجال للمقارنـة بين لغة علماء الأزهر، ولغة المغنيات والراقصات في ملاهي الشرق وخماراته، وكـانت لغة الفلاح والبدوي مضحكة في أُذن ساكن المدينة، كما كانت لغة ساكن المدينـة رخـوة طريّـة في سمـع البدوي والفـلّاح. ثم لوحظ أنـه بإضعـاف الفوارق بـين الطبقات تضعف الفوارق اللغوية أيضاً؛ وفي مقدمة وسائل تضييق هذه الفوارق التعليم العام، والخدمة العسكرية الإجبارية، وانتشار الصحافة ووسائل الإعلام والتثقيف الشعبية؛ ففي فرنسا مثلاً كـانت الخدمـة العسكريـة الإجباريـة تجمـع الجنـود في ثكنة واحـدة، من أبناء الأشـراف وأبناء العـامة، ومن سكـان الريف وأهل المدن، فـامتزجت الألسنـة، وتقاربت طـريقة التعبـير المستعملة في القصور والأكـواخ، وكمل ذلـك بذهـاب الأطفال جميعـاً إلى نـوع واحـد من المـدارس،

وحضور الناس لنوع موحَّد من المسارح، وقراءتهم جميعاً للصحف والمجلات والقصص والكتب المتشابهة في لغتها؛ فهذه أيضاً نتيجة من النتائج التي أقرها علم اللغة العام. فإذا ما أخذنا موضوعاً خاصاً باللغة العربية يمس هذه الناحية، وليكن الأغنية العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، من حيث اللغة، تبين لنا أنه في القرن التاسع عشر كانت هناك قصائد المنشدين الدينيين وأناشيد أرباب الطرق الصوفية، كما كان هناك فنّ التواشيح والأدوار التي يؤديها المغنون والمطربون في القصور والمجتمعات الراقية، ثم «شاعر الربابة» في المقاهي البلدية والموالد والأسواق، وكان في النهاية غناء «العوالم» والراقصات والمخنثين والمومسات في مشارب الخمر ودور الدعارة. وكانت لكل طائفة لغة خاصة في الأغنية لا تشبه الأخرى، لا لفظاً ولا تركيباً. فلما انتهى عهد القصور، كما انتهى البغاء الرسمي، وانتشر التعليم، وجاءت الإذاعة فأسكتت أصوات شاعر الربابة والمرتّل الديني، تقاربت مستويات الأغنية العربية، ولم تعد هناك — أو هكذا يفترض — أغنية خاصة بالمواخير، وأخرى بالقصور، وثالثة بالسامر الريفي، ورابعة بالمسجد أو دار الطرق الصوفية. وترتب على ذلك نوع من «الديمقراطية اللغوية» لم يكن موجوداً في القرن التاسع عشر. هذه الملاحظة المطبقة على اللغة العربية في مصر في هذين القرنين تتصل بمباحث فقه اللغة، وهي تنطلق كما رأينا من مبادىء عامة مقررة في علم اللغة.

وعلى ذلك يمكننا القول بأن فقه اللغة وعلم اللغة ميدانان من البحث متميزان أحدهما عن الآخر وإن تداخلا أحياناً، واستعان كل منهما بالآخر دائماً.

وإلى أواخر القرن الماضي كانت الدراسات اللغوية الفلسفية تندرج كلها تحت اسم «فقه اللغة» وحده، إذ كان طابع الاهتمام بتاريخ اللغات، وإرجاعها إلى عائلات، وتصنيفها، ووصف نحوها وصرفها، والمقارنة بينها، هو الغالب على هذه الدراسات، ولم يكن المنهج التجريبي في دراسة الأصوات اللغوية في المعامل والمختبرات، أو المنهج الاجتماعي المبني على التسجيل العلمي والتحليل الحضاري للغات المجتمعات الفطرية قد ظهرت بعدُ، وهذه

هي التي جعلت ظاهرة «الكلام» في النوع الإنساني جديرة بأن يستقل بها «علم اللغة»، يتعاون ويتكامل مع «فقه اللغة».

ولكن ما الكلام؟.

□ □ □

الفصل الثاني

الكلامُ ونشأتهُ وأصلهُ

الكلام هو وسيلة للتعبير، ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة[1]، بل هناك وسائل للتعبير أخرى كثيرة نذكر منها:

١ ــ **التعبير بالإشارة**: كتحريك الرأس واليدين والكتفين، والدق بالقدم على الأرض، ورفع السبابة في الهواء بحزم؛ كل هذه الإشارات لها دلالات ما نزال نكتفي بها كثيراً عن اللفظ إلى الآن، فنرفع يدنا إلى جانب الجبهة للتحية؛ ونضرب كفاً بكف، وبحسب شكل هذا الضرب يتحدد المعنى: فيبدأ من التعبير عن اليأس، وينتهي إلى تصفيق الحماس والاستحسان، والذي يختلف في ذلك هو سرعة تلامس الكفين ووضع الواحد منهما بالنسبة للآخر؛ والإيماء بالرأس إلى أسفل دليل على الموافقة، وإلى أعلى أو إلى الجانبين دليل على العكس. كذلك ما زلنا نستعمل الإشارات ونحن نتكلم بالألفاظ لمساعدة هذه

---

(١) انظر:

ــ الدكتور عبد الواحد وافي: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ــ القاهرة، الطبعة الثانية، مكتبة دار العروبة ١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٢م، الفصل الأول، ص ٧ وما بعدها.

ــ الدكتور علي عبد الواحد وافي: علم اللغة. القاهرة، الطبعة الرابعة، مكتبة نهضة مصر ١٣٧٧هـ ــ ١٩٠٧م، ص ٧٤ وما بعدها.

ــ الدكتور طه عبد الحميد طه: فقه اللغة. الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٨ / ١٩٦٩م، ص ٣٨ وما بعدها.

— J. Vendryes: le langage; Introduction linguistique à l'histoire; Paris 1921, p. 6. SS.

— Lev Semenovich Vygotsky: thought and Language; edited and translated by Eugena Hanfmann and Gertrude Vakar; U. S. A. 1962, pp. 9 - 51.

— Ossip - Lourié: Langage et la Verbomanie; Paris 1912, pp. 1-18.

— Edward Sapir; Le Langage; Traduction de Guillemin; Payot, Paris 1953, p 11-29.

— G. Révész: Origine et Préhistoire du Langage: Traduction de L. homburger: payot, Paris 1950.

الألفاظ على أداء معانيها. وتختلف الشعوب بعضها عن بعض في الاستعانة بالحركات والإشارات أثناء الكلام؛ فبعض أجناس البشر إذا تكلم أحدهم لا يكاد يحرك إلاّ شفتيه، بينما الآخر إذا فتح فمه انطلقت معه في جسمه لوالب الحركة: فهز رأسه، وأشاح بيديه، وحرَّك كفيه ودق بقدميه. وقد دخل التعبير بالإشارة في الفن؛ فظهر الرقص، وظهر المسرح الصامت (البانتوميم)، كما أن الركوع والسجود والطواف بالأضرحة والتمرغ في التراب ونحوها، تعابير بالإشارة.

٢ ـ **التعبير بملامح الوجه**: وقد يكون هذا التعبير إرادياً؛ مثل مط الشفتين للاحتقار والاشمئزاز، والشموخ بالأنف للتعاظم والتكبر، وإسبال العينين للتعبير عن التواضع أو الحياء والاحتشام؛ كما أنه يكون غير إرادي، كشحوب الوجه عند الفزع، أو جحوظ العينين عند الدهشة، أو احمرار الوجه عند الخجل؛ فالإنسان من حيث التعبير بملامح الوجه قد يستعمله مختاراً، وقد يقع تحت طائلته مضطراً.

٣ ـ **التعبير بالصيحات والصرخات**: وهي أصوات طبيعية، لا يمكن أن تدخل تحت قاعدة من قواعد اللغة نحواً أو صرفاً، ومع ذلك فهي تعابير مبينة دون شك: فمنها الضحك؛ وفيه وحده أنغام وألحان، يستعمل بعضها لإظهار السرور والانبساط الصريحين وبعضها للهزء والاستخفاف، أو التعجب والاستغراب. وكذلك الأمر في البكاء، وصراخ الألم والتوجع، أو اللهفة والتفجع، أو الاستغاثة وطلب العون والنجدة؛ وهناك صراخ التشجيع والتعضيد، الذي نسمعه في المباريات الرياضية كثيراً، وصراخ الدهشة، وصيحات الاستياء والاحتجاج، وصفير الاستقباح. وهذه كلها أقرب الأنواع إلى التعبير الصوتي الحيواني الغريزي العفوي.

٤ ـ **التعبير بالأدوات الصناعية**: كاستعمال الطبول والأبواق والرايات والنيران في المجتمعات البدائية، واستعمال الإشارات الضوئية والأجراس وزمارات التحذير وغيرها في المجتمعات الحديثة.

هذه كلها أنواع من التعبير تؤدي وظيفة لا جدال فيها في نقل الخواطر بين

البشر بعضهم ببعض، ولكنها مع ذلك لا تسمى كلاماً، ولا ترقى إلى أهمية الكلام، الذي هو كما قلنا ترجمة صائتة للفكر الإنساني.

ولكن متى عرفت الإنسانية التعبير بالكلام؟ الواقع أن تحديد الوقت الذي استطاع فيه إنسانان أن يتفاهما باللفظ أمر عسير، ما تزال وسائل البحث العلمي التي بين أيدينا عاجزة عن كشف سره. وما يدور من نقاش حول هذه النقطة في حلقات الدراسة لا يخرج عن دائرة التخمين والافتراض.

ففي القرن الماضي ظن كثير من اللغويين أن مقارنة اللغات بعضها ببعض، والارتفاع بها من الحديث إلى القديم يؤدي في النهاية إلى تحديد «اللغة الأم»، أو «اللغات الأمهات»، على أقل تقدير؛ وبذلك نتوصل في النهاية إلى تحديد نقطة البدء، التي تحرك فيها اللسان البشري لأول مرة فقال وَأَبَان. وقد نسوا في تلك المحاولة أنهم مهما أمعنوا في التوغل في أعماق التاريخ فلن يجدوا إلاّ لغات ناضجة تامة النضج، رشيدة كل الرشد، خالصة ــ في جملتها وتفصيلها ــ من كل أثر لمن ينطق بالكلام لأول مرة على هذه الأرض، ذلك الإنسان الذي لا يميزه عن الحيوان إلاّ ما يشبه النقطة الهندسية التي لا وجود لها في عالم المادة، وهي مع ذلك تقف بين مرحلتين وصلاً وفصلاً في آن واحد. فهذه اللغات القديمة الموغلة في القدم، إن أفادتنا في شيء فإنما تفيدنا في توضيح التطور التاريخي الذي خضع له الكلام، دون أن تقول لنا متى بدأ[1].

وثمة محاولة أخرى لجأ إليها بعضهم التماساً لكشف هذا السر، وهي البحث في لغة البدائيين المعاصرين لنا؛ أي تسجيل لغات المجتمعات التي

---

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة ــ بيروت (دار النهار) ١٩٦٧م، ص ٢٨ ــ ٢٩. والنقطة الهندسية ليست النقطة التي نخطها بالقلم، فهذه لها ــ مهما صغرت ــ مساحة وأبعاد، ولكن النقطة الهندسية تحد الحركة في خطّ أو السكون في مركز دائرة، أو تلاقي خطين من اتّجاهين مختلفين. ونشعر في هذا الكلام بتأثر صاحبه بنظرية داروين في أصل الأنواع وهي نظرية شاعت وذاعت ثم ثبت نقضها بعد ذلك.

ما تزال في طور الوحشية أو الهمجية أو الفطرية حتى الآن؛ ولنبادر فنقول إن هذه المجتمعات قد تكون بدائية في كل شيء إلاَّ في اللغة، فهي قبائل وعشائر تعيش في مواطنها ويتفاهم أفرادها بعضهم مع بعض منذ ما لا يحصى من آلاف السنين، وكثيراً ما تعطينا هذه المجتمعات مادة لغوية كاملة النمو، توازي في الدقة والتعقيد أحدث لغات الحضارة، أو تعطينا في أحيان أخرى كياناً لغوياً مرناً متطوراً، وصل إلى درجة من البساطة واليسر يحسد عليها. وعند إمعان النظر يتبين أن الفرق اللغوي بين الأمم الفطرية المعاصرة والأمم المتمدنة ليس في نمط التعبير بالكلام بقدر ما هو في الأفكار، ليس في النحو والصرف وعلم الأصوات وإنما هو في المعجم، في متن اللغة، في الثروة اللفظية. وإذن فلغات الفطريين المعاصرين ربما أفادت في استيضاح العلاقة بين الفكر واللغة، بين الكلام والحضارة، دون أن تلقي أي ضوء على ما يحتمل أن الكلام كان عليه في النشأة الأولى.

ومن الأفكار التي راودت العلماء منذ القدم أن يتلمسوا معرفة بداية الكلام من **ملاحظة كلام الأطفال**. وليس هؤلاء بأكثر توفيقاً في منهجهم من سابقيهم؛ إذ إلى أي شيء تهدينا تلك الملاحظة؟ إلى الطريقة التي يستطيع بها الطفل الصغير أن يتلقى بالتدريج لغة أبويه ولغة المجتمع الذي يعيش فيه. فالطفل لا يخلق لغته من العدم، وإنما يمتلك لغة الوسط المحيط به شيئاً فشيئاً، وهي لغة لا أثر فيها للبدائية بالمرة. ولا شك في أن دراسة عملية الكسب اللغوي عند الطفل تنبهنا إلى جوانب كثيرة من عوامل تطور اللغة التي يتعلمها الطفل، لا على لسانه هوفحسب،وإنما على ألسنة الكبار وعلى مر العصور؛ فخلط الأطفال بين نطق الراء واللام، أو بين الفعل الماضي والمضارع، أو بين الضمائر المتصلة ووضعها في الكلمات وتقديم بعضها على بعض أو تأخيره، كل هذا يعطينا فكرة عن الصعوبات الطبيعية القائمة في اللغة وكيف تحاول الألسنة تذليلها. ولكننا سنظل دائماً محصورين في هذه الدائرة الضيقة، دائرة اللغة الواحدة التي يتمرن هذا الطفل الواحد على الإفصاح بها، وكل مهمته في ذلك

لا تمت إلى الخلق والإبداع بصلة، وإنما تنحصر في تقليد ما يسمعه من الكبار، فإن اختلف عنهم بعض الاختلاف فَمَردُّ ذلك إلى الكسل، أو الضعف العضوي، أو العجز عن إتقان التقليد، لا إلى ملكة خاصة في الابتكار والتجديد.

والخلاصة هي أن:

١ ـ مقارنة اللغات الحديثة بالقديمة.

٢ ـ دراسة لغات الفطريين المعاصرين.

٣ ـ ملاحظة لغة الأطفال في أول استعمالهم للكلام.

كل هذه إنما تعطي للباحث في علم اللغة نماذج لغوية كاملة النمو كما قلنا، وهي نتيجة لجهود أجيال وأجيال، على مدى قرون طويلة من الزمان[١].

وبعد، فهل تبقى المشكلة على ذلك بلا حل؟

الحق أن الكلام الإنساني يختفي في ظلمات التاريخ، وما قبل التاريخ، كما يختفي فيها أصل الإنسان نفسه، بل أصل المجتمع الإنساني كله. وهكذا صرّح كثيرٌ من العلماء بأنه من المستحيل، والحالة هذه، أن نتبين على أية صورة كان أول كلام الإنسان، وإن كان من الممكن البحث في الظروف التي مهدت لهذا المخلوق البشري أن يتكلم، وهي ظروف نفسانية وعقلية من ناحية، واجتماعية من ناحية أخرى.

ومن الآراء المعقولة في هذا الصدد، القول بأن خلقة الإنسان من الناحية العضوية تختلف عن خلقة الحيوان، إذ زُوِّدَ الإنسان بجهاز صوتي وعضلي وعصبي يمكِّنه من صنع اللغة وتبادلها وتنميتها ونحو ذلك، وهي تختلف عن النظرية القديمة، التي تقول بأن الخالق قد أوحى اللغة إلى الإنسان الأول اختلافاً بيِّناً. فهنا نجد الخالق يودع جسم الإنسان جهازاً لغوياً[٢]، كما أودع جسم الطيور جهازاً للتحليق في الجو وجسم الأسماك جهازاً للتنفس تحت الماء إلى غير ذلك من أسرار الخليقة التي لا يحيط بها إلّا بارئها. وتتمة هذه

---

(١) J. Vendryès: Le Langage – Introduction Linguistique à l'Histoire: Paris: p 7–8.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

النظرية هي أن الإنسان، في بداية وجوده على هذه الأرض، كان يستعمل صوته كما تستعمله بقية الحيوانات، في صيحات للنداء أو التنبيه أو إظهار الفرح أو القلق أو الألم ونحو ذلك. ومن المحتمل أنه عرضت لهذا الإنسان مشكلة عضلية ضخمة. كأن اصطاد حيواناً ضخماً ثم لم يستطع حمله أو نقله وحده، أو أنه أراد أن يتعتع صخرة كبيرة أو كتلة خشبية ضخمة فلم تسعفه قوته الفردية، فدعا بمن حوله من بني جنسه ليساعدوه على ذلك، وكان لا بد من اكتشاف ضابط إيقاعي يتحركون عليه جميعاً، حتى تتجمع قواهم العضلية متزامنة، فتصل إلى ما لم يوفق إليه بمفرده؛ وهكذا بدأ صياح جماعي إيقاعي لضبط حركة العمل العضلي للجميع. وانطلاقاً من هذه النقطة اكتشف الإنسان بفطنته الفطرية أن صوته الطبيعي له من المرونة ما يسهل تشكيله كما يريد، وبالتالي اكتشف الجهاز اللغوي الذي أودعه الخالق فيه واستطاع أن ينغِّم صوته ويعجنه ويشكله حسب إرادته، وبناءً على هذه النظرية يكون الكلام قد بدأ، لا على شكل جمل مكونة من ألفاظ، ولكن على شكل كتل صوتية ذات مدلول جماعي عام، وذات مظهر إيقاعي منغم موزون. وما تزال هذه الأنواع من الصيحات الإيقاعية لتنظيم الجهود العضلية الجماعية، معروفة شائعة بين الحمالين وعمال وملاحي السفن والعسكريين في الجيوش وغيرهم.

بعد ذلك بدأ الإنسان يعطي الأشياء أسماءها، ويفصِّل تفاصيل الكون المحيط به فيميزها بألفاظ مفردة. لكن كم من الزمن ثابر فيه الإنسان على ذلك حتى صنع له جهازاً للتفاهم مع غيره جديراً بأن يسمى لغة؟ لا يمكن تحديد ذلك على الإطلاق.

والذي لا شك فيه هو أن محاولة إرادية للتعبير عن فكرة تجول بخاطر الإنسان قد نشأت مع تخلُّق الفكر الإنساني نفسه[1]، أي عندما ظهر الإنسان

---

(١) منذ حوالي ثلاثين ألف سنة حسب ما قدره علماء السلالات البشرية، وآثار ما قبل التاريخ، انظر:

R. R. Schmidt: l'Aurore de l'esprit humain; Payor — Paris: 1936, p. 260-261.

العاقل على هذه الأرض، ذلك الإنسان الـذي يمتاز عن فصـائل الحيـوان بإدراك الروابط بين الأشيـاء والقدرة عـلى التمييز بـين ما يعـرض له من ظـواهر الكـون وصور الوجود، ومحاولة الإنسان التعبير عن ذلك كانت بدون شك محاولة مركبـة معقـدة، امتزج فيهـا الصياح بـالحركـات بالتعبـير بالملامح، إذ ليس واحـد من وسائل التعبير المختلفة بأولى من غيره بـالتقديم من حيث الـزمن. فلغة الإشـارة ولغة الصياح، ولغة اللفظ المقطَّع المنغَّم، ليس هنـاك ما يثبت قـدم بعضها عـلى بعض، بـالرغم من مـذاهب للعلماء حاولـوا فيهـا إثبـات ذلـك: فقـال بعضهم بالأصل «الانفعالي» للغة، أي أن بدايتها كـانت صيحات تعجبيـة أو إشارية، بل لقد ذهب بعضهـم إلى أن الإنسانية قد ظلت صـامتة لا تتكلم إلَّا بـالإشارة[1]، وأن التعبيرات اللغوية التي بقيت على شكل صور وإشارات في كثير من الكتابات القديمة ليست إلَّا بقايا من عصور التفاهم بالإشارة. فالكتابة الفرعونية المصرية، والكتابة الشوميرية التصويرية في العـراق القديم، والهيـروغليفية الحيثيـة في آسيا الصغـرى، وغيرهـا، تعتمد عـلى رسم الإشارات التي كـان يتفـاهم بهـا النـاس قديماً، وهو أمر يقوم على بطلانه أكثر من دليل، إذ إن الأساطير القديمة والملاحم التي تحتفظ بأصداء واضحة من طفولة الإنسانية على هذه الأرض، تشير كلها إلى أن الصـوت الإنساني المعبـر قام، مـع الإشارة ومـع الحركـة، بالخطوة الأولى في التعبير عن أول وميض من النور المودَع في الإنسان وهو العقل. أما لغة المـلامح ففيها جزء كبير غير إرادي، هو الذي يعبر عن الألم الشديـد أو المرض أو اللهفـة أو الفـزع أو غيرهـا من الانفعالات الحـادة والعوارض القـويـة، والإنسـان فيهـا يشارك الحيوان. فالحيوان أيضـاً يبدو عـلى ملامحـه الإعياء والمـرض والفزع والألم ونحوها وهو تعبير ينعدم فيه عنصر الإرادة، وكـذلك عنصر الاتفـاق الاجتماعي على دلالة معينة، وأخيراً عنصر القصد إلى الإبانة والإفهام. والملامح تعبر ولكنها لا تتكلم، وتعبيرها تلقائي عفوي، أو غريزي اضطراري.

---

(١) انظر الفصل الثالث من كتاب:

S. Révész: origine et préhistoire du langagẽ; Payot, Paris, 1950, p. 52 SS.

هنـاك بعض أساليب من التفـاهم بالإشـارة ثـابت عـلى وجـه القـطع أنها أحـدث من الكلام الملفـوظ، كالإشـارات التي يلجأ إليهـا الناس عنـدما يكـون الكلام محظوراً أو متعـذراً، وكذلـك التفاهم بـالإشارة مـع الصم والبكم؛ لكن ذلك كله مصبوب في قـالب يترجم الكـلام الملفوظ، ومقصـود قصداً أن يحـاكيه بعناية تامة، وأن يكـون صورة بصـرية دقيقـة لما كـان في الأصل يجب أن يكـون مسمـوعاً بـالأذن. وأعلى درجـات الإتقان في إحـلال الإشارات التي تعتمـد على العين محل الأصـوات التي تعتمد عـلى الأذن هي الكتابـة. فهي في الواقـع رموز بصرية مرئية للأصوات، مصـطلح على طـريقة معينـة لتحويلهـا إلى أصوات من جديد، وهذه الطريقة هي القراءة. وعن الكتابة تفـرعت الطريقـة اللمسية منـذ بداية هذا القرن التي ابتكرها «براي»[1] لتمكين العميان من القراءة والكتابة.

□ □ □

(١) لـويس براي، عـالم وأستاذ فـرنسي ولد سنـة ١٨٠٩. وكان هـو نفسه أعمى، فـاخترع الكتـابـة البـارزة المعـروفـة بـاسمـه والتي تتسنى بهـا القـراءة اللمسيـة للعميـان؛ تـوفي سنة ١٨٥٣.

الفَصْل الثَالِث

الكَلَامُ وتعْرِيفُه

كل وسيلة للتخاطب تعتمد على مجموعة من العلامات العامة المصطلح عليها جديرة بأن تسمى كلاماً، سواء أكانت العلامات صوتية أم غير صوتية. على أن المكانة التي يشغلها الكلام الصوتي المنطوق به في حياة الإنسان وحضارته، والتي لا يضارعه فيها أي نوع آخر من أنواع التعبير أو التفاهم، قد انتهت بأن جعلت لفظة «كلام» مقصورة في الاستعمال على التفاهم الصوتي وحده، لا تتعداه إلا على سبيل المجاز. فما هو هذا الكلام؟

هو اللفظ المفيد، كما يقول علماء النحو.

لكنا نلاحظ على هذا التعريف أنه ينظر إلى الكلام من حيث هو حقيقة لغوية واقعة أمام السامع، دون نظر إلى أنّ تلك الحقيقة اللغوية نفسها وليدة ملابسات خارجية، وعناصر جزئية، شديدة التعقد، لا بدّ للباحث في علم اللغة أو فقه اللغة من أن يعطيها حظها من الأهمية في التعريف.

والكلام عند الفلاسفة يختلف في تعريفه عنه عند النحاة، الكلام عندهم هو النطق، هو المنطق؛ ولنقف عند ما يقوله إخوان الصفا في الرسالة العاشرة من القسم الرياضي من رسائلهم شرحاً لذلك:

فصل
في اشتقاق المنطق وانقسام المنطق إلى قسمين

اعلم يا أخي، أيّدك الله وإيانا بروح منه، أن المنطق مشتقّ من نَطَقَ يَنطِق نُطقاً، والنطق فعل من أفعال النفس الإنسانية، وهذا الفعل نوعان: فكريّ

ولفظيّ: فالنطق اللفظي هو أمر جسماني محسوس، والنطق الفكري أمر روحانيّ معقول، وذلك أن النطق اللفظي إنما هو أصوات مسموعة لها هجاء، وهي تظهر من اللسان الذي هو عضو من الجسد، وتمرّ إلى المسامع من الآذان التي هي أعضاء من أجساد أُخر، وأن النظر في هذا المنطق والبحث عنه، والكلام على كيفية تصاريفه وما يدل عليه من المعاني، يسمى علم المنطق اللغوي. وأما المنطق الفكري الذي هو أمر روحاني معقول، فهو تصوّر النفس معاني الأشياء ذاتها، ورؤيتها لرسوم المحسوسات في جوهرها، وتمييزها لها في فكرتها، وبهذا النطق يحدّ الإنسان، فيقال إنه حي ناطق مائت، فنطق الإنسان وحياته من قِبَلِ النفس، وموته من قِبَلِ الجسد، لأن اسم الإنسان إنما هو واقع على النفس والجسد جميعاً.

واعلم أن النظر في هذا النطق، والبحث عنه، ومعرفة كيفية إدراك النفس معاني الموجودات في ذاتها بطريق الحواس، وكيفية انقداح المعاني في فكرها من جهة العقل، الذي يسمى الوحي والإلهام وعبارتها عنها بألفاظ بأي لغة كانت، يسمى علم المنطق الفلسفي.

ولمّا كان المنطق اللفظي أمراً جسمانياً ظاهراً جلياً محسوساً، وضع بين الناس لكيما يعبر به كل إنسان عما في نفسه من المعاني لغيره من السائلين عنه، والمخاطبين له، احتجنا إلى أن نذكر من هذا المنطق طرفاً يشبه المدخل، ليقرب على المتعلمين فهم علم المنطق الفلسفي، ويسهل تأمله على الناظرين؛ فنقول أيضاً: إنه لمّا كان النطق اللفظي هو ألفاظ مؤلّفة من الحروف المعجمة، احتجنا أن نذكر الحروف أولاً، فنقول: إن الحروف ثلاثة أنواع: فكرية، ولفظية، وخطية. فالفكرية هي صورة روحانية في أفكار النفوس مصورة في جواهرها قبل إخراجها معانيها بالألفاظ؛ والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء، فمدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة، كما بيّنا في رسالة الحاس والمحسوس[1]؛

---

(١) رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا ـ طبع بيروت، في أربعة مجلدات سنة ١٩٥٧م، =

والخطية هي نقوش خُطّت بالأقلام في وجوه الألواح وبطون الطوامير، مدركة بالقوة الباصرة بطريق العينين.

واعلم أن الحروف الخطية إنما وضعت سمات ليستدل بها على الحروف الفكرية، والحروف الفكرية هي الأصل:

إنَّ الْكَلامَ لَفِي الْفُؤادِ وَإِنَّمَا   جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤادِ دَلِيلا

وسنبيِّن ماهيتها في فصل آخر.

واعلم أن الحروف اللفظية إنما هي أصوات تحدث في الحلقوم والحنك، وبين اللسان والشفتين عند خروج النفس من الرئة بعد ترويحها الحرارة الغريزية التي هي في القلب، وهي ثمانية وعشرون حرفاً في اللغة العربية، وأما في سائر اللغات فربما تزيد وتنقص، وقد بينّا علّة ذلك في رسالة اختلاف اللغات[1].

واعلم أن الحروف إذا ألفت صارت ألفاظاً، إذا ضمنت المعاني صارت أسماء، والأسماء إذا ترادفت صارت كلاماً، والكلمات إذا اتسقت صارت أقاويل، والأقاويل نوعان: موزون ونثر، فالموزون كالشعر والرجز والقوافي، والنثر نوعان: فمنه فصاحة وبلاغة، ومنه مخاطبات ومحاورات، والخطاب نوعان: فمنه ما يتكلم به جمهور الناس فيما بينهم في طلب حاجاتهم بلا احتجاج ولا خصومة، ومنه ما يتكلمون به في دعاويهم وخصوماتهم باحتجاج وبراهين. والدعاوى والخصومات نوعان: إما في أمور الدنيا، وإما في أمور الديانات والمذاهب والعلوم.

= المجلد الثاني: الجسمانيات الطبيعيات، فصل في إدراك القوة السامعة، ص ٤٠٧ وما بعدها.

(١) رسائل إخوان الصفا، المجلد الثالث: الجسمانيات والطبيعيات والنفسانيات العقليات ــ الرسالة السابعة عشرة في علل اختلاف اللغات، ورسوم الخطوط والعبارات، ص ٨٤ وما بعدها. ويبدو أن إخوان الصفا يستضيئون بنظرية المثل العليا عند أفلاطون التي يعتبرها أصلاً للوجود.

ولمّـا كانت البـراهين عـلى صحة الـدعاوى التي في أمـور الدنيـا لا تكون إلّا بالشهود والعقود والصكوك، صارت البراهـين أيضاً عـلى صحة الـدعاوى في أمور الديـانات والمـذاهب والعلوم لا تكون إلّا بـاستشهاد مـا في الكتب الإلٓهية، والأخبار عن أصحاب الشرائـع، أو إجماع الخصوم، أو شهادة العقـول بالقيـاس الصحيـح الذي هو ميزان الحق.

ولمّـا كان اختـلاف الناس بـالحزر والتخمـين في مقاديـر الأشياء المـوزونة والمكيلة، دعتهم إلى وضـع المـوازين والمكاييـل ليُرفـع الخُلف بهـا عنـد الحـزر، كـذلـك اختـلاف العلماء في الحكم بـالحـزر والتخمـين عـلى الأمـور الغـائبـة في الحواس، دعتهـم إلى وضـع القياسات ليُرفـع الخُلف بها عند النـظر. ولمّا كـان في صحة الوزن والكيل يُحتاج إلى شـرائط من عيار الصنجـات، وصحة المكيـال والميزان، وتقويم الكيل والوزن بها، كذلك حكم القياسات التي يعرف بها الحق من البـاطل، والصـواب من الخطأ، والخـير من الشر يحتـاج إلى شـرائط ليصـحّ بها الحكم[1].

هذا النص من رسائل فلاسفة الإسلام في العصور الوسطى «إخوان الصفاء» لم يُعرّف لنا الكلام بقدر ما حاول أن يبيِّن لنا، بـطريقة مـدهشة في تقـدمها عـلى الزمن الذي كتبت فيه، العلاقة بين اللغة والفكر، وهو موضوع لم يفرغ أحـدث علماء الغرب إلى الآن من الخوض فيه. وفي كل مـرة تعترضهم مشـاكل لا حصر لها. ومهمـا يكن من شيء فإننا نستطيـع أن نستخلص من كـلام إخوان الصفـاء أن الكلام ظاهرة خاصة بالإنسان لأنه عندهم معنى قائم في النفس أولاً، أي أنه إدراك عقلي لحقيقةٍ مـا من حقائق الـوجود، ثم تعبـير باللفظ عن هـذا الإدراك. وهم قـد ذكروا أنـه عندمـا يتحول المعنى إلى أصـوات، تقوم عمليـة تبـادل بـين المتكلم بـاللسان والسـامـع بالأذن، كـما أشاروا أيضـاً إلى أن الصوت المعبـر عن المعنى يندفـع فيه الهواء من الرئتين، ويقطّعه اللسان والحنـك إلى حروف تتـألف

---

(١) رسائل إخوان الصفا ــ المجلد الأول، القسم الرياضي، الرسالة العاشرة، ص ٣٩١.

منها الألفاظ. ثم إنهم فصَّلوا أنواع الكلام: من الضروري للمحادثات العملية البسيطة، إلى الكلام الفنيِّ بفصاحته وبلاغته شعراً ونثراً، إلى الكلام العلمي والفلسفي بمناقشاته وقواعده في ضبط العمليات العقلية المعقَّدة، التي لا بدّ له منها حتى يستقيم النظر وتصحّ الأحكام. فإخوان الصفا إذن قد أعطونا فكرة دقيقة عن الكلام، ولكنهم لم يقدموا لنا تعريفاً جامعاً مانعاً يستطيع المشتغل بعلم اللغة وفقه اللغة أن يستند إليه أو يعتمد عليه.

والتعريف الذي نرتضيه نحن من وجهة النظر الأخيرة هذه هو الذي ساقه العالِم الأمريكي (إدوارد سابير) حينما قال: «الكلام هو وسيلة تفاهم خاصة بالإنسان، وغير غريزية فيه، تمكنه من تبادل الأفكار والوجدانات والرغائب، بوساطة رموز صوتية اصطلاحية، على وجه التغليب والتعميم، تصدرها أعضاء النطق إرادياً، باندفاع الهواء خلالها من الداخل إلى الخارج»[1].

ونريد هنا شرح هذا التعريف حتى يتبين لنا بوضوح ما ينطوي عليه من ملاحظات دقيقة تصف الكلام في عرف علم اللغة.

يقول سابير: إن وسيلة التفاهم المسماة بالكلام غير غريزية، فما مرماه من ذلك؟ يشرحه هو نفسه بأنه لمّا كان الكلام من أكثر الظواهر شيوعاً في حياة الإنسان اليومية ومن أشدها أُلفة لديه، ولمّا كان الإنسان يجد نفسه يتكلم كما يمشي أو يتنفّس، ظنّ أن الكلام طبيعة ممتزجة به وغريزة أصيلة فيه كالمشي أو التنفس تقريباً. ولكن بقليل من التأمل يتبين أنّ تعلّم الإنسان للكلام مختلف أتم الاختلاف عن تعلّمه للمشي: ففي حالة المشي، وعندما تصل قوة الطفل العضلية والعظمية والعصبية إلى مستوى معين، يبذل وحده مجهوداً تلقائياً حتى ينهض على قدميه بالتدريج ثم يمشي ويجري. ومعنى ذلك أن تكوينه الجسماني العضوي يمكنه من ذلك، بل يدفعه إليه دفعاً عندما يئين الأوان طبقاً لقوة طبيعية هو مولود بها.

---

(١) Ed. Sapir : Le Langage — Introduction à l'Étude de la Parole. Traduction de S. M. Guillemin;Payot,Paris 153, p. 16 s.s.

وليس الأمر كذلك في الكلام ؛ إذ ليس الإنسان ميسراً للكلام بطبيعته، وبمجرد تردد نسمات الحياة بين جوانحه، بل بأمر آخر هو أنه يعيش بالضرورة عضواً في مجتمع هو مضطر للتجاوب والتفاهم معه. فلو أننا ألغينا المجتمع، وأبقينا الإنسان وحيداً في أحضان هذه الطبيعة، فإنه سيمشي لا محالة عند بلوغه السن المناسبة لذلك، على فرض أن الحياة بلا مجتمع ممكنة. ولكنه لن يتكلم، أي: لن يتعلم كيف يوصل ما يدور في نفسه إلى العالم الخارجي، طبقاً للنظام التقليدي المصطلح عليه لذلك في كل مجتمع من المجتمعات، والذي يسمى الكلام.

وثمة دليل آخر على أن الكلام ليس طبيعياً يولد به الإنسان كالمشي، وهو أننا لو انتزعنا طفلاً من بيئته، ووضعناه في مجتمع آخر، له لغة أخرى، لنشأ هذا الإنسان يتخاطب بما أخذه من الكلام عن هذا المجتمع الجديد، وفي كل ذلك تبقى مشية الإنسان واحدة لا تختلف باختلاف المجتمعات. إذ إن المشي حركة عضوية طبيعية عامة في الإنسان، لا تتفاوت بين فئة وأخرى من الناس، وإن حدث أن تفاوتت بعض شيء كان مردّ ذلك إلى اعتبارات شخصية فردية، وتفاوتها هذا ليس مقصوداً لذاته كما أنه ليس له هدف. أما الكلام فهو مظهر من نشاط الإنسان يتفاوت دون حد أو قيد كلما انتقلنا من مجتمع إلى مجتمع؛ ذلك أنه تراث تاريخي لكل مجتمع، ونتيجة منطقية لنظام اجتماعي نشأ وترعرع فيه منذ القدم. وهو يتفاوت، كما يتفاوت كل مجهود إبداعي للإنسان بين أمة وأمة، كالعادات والمعتقدات والتقاليد والفنون، وهذا يوضح لنا الاحتياط الذي جاء في التعريف الذي اخترناه للكلام، عندما قال: إنه وسيلة تفاهم غير غريزية، أي ليس الإنسان مفطوراً عليها، ومقدراً لها بمجرد كونه إنساناً، كما هي الحال في المشي مثلاً، بل يتلقاها ويكتسبها اكتساباً من المجتمع الذي يعيش فيه.

وقد خدع بعض الباحثين في اللغات بظاهرة ضللتهم عن ذلك، وهي أنه توجد في جميع اللغات ألفاظ تحمل معناها في هيكلها المسموع نفسه، أي في

جرسها الصوتي، وكأنها تحاكي أصواتاً طبيعية، مما دعا هؤلاء الباحثين إلى القول بأن المحاولات اللغوية الأولى للإنسان كانت بالفطرة، وكانت تقليداً للأصوات وأنواع الضوضاء المنتشرة في الطبيعة، وهذه الألفاظ تنقسم إلى طائفتين:

(أ) **ألفاظ الانفعال**[١]: وهي عبارة عن أصوات قصيرة تعبر عن التوجّع أو الدهشة أو الألم أو ما إليها من الوجدانات العابرة، وهي شائعة في جميع اللغات، مثل: آه، وي، أواه، ها، هيا، واه، أوه... إلى آخره[٢].

(ب) **الألفاظ ذات الجرس المعبِّر**[٣]: وهي تختلف عن الطائفة الأولى في أنها ليست مجرد انعكاس لغوي لصيحات فطرية بسيطة، بل تلحين موسيقي يحاول تقليد الضوضاء الأصلية في الطبيعة، ومن أمثلة ذلك في اللغة العربية: قأقأ الدجاج (أو قوقأ)، همهم القوم، إذا تكلم بعضهم مع بعض فسُمع صوتهم دون أن يتبيَّن ما يقولون، قعقع السلاح، طقطق الخشب أو حوافر الخيل، نش الماء: إذا بدأ في الغليان وأحدث صوتاً مكتوماً. فحّ الثعبان: إذا نفث الزفير من حلقه وهو يهاجم فريسته، ومن ذلك عُواء الذئاب، ومُواء القطط، وخُوار البقر، ونهيق الحمير، وشحيج الخيل، وخرير الماء، وأزيز الجراد، وهزيم الرعد.

أمام هذه الظاهرة حسب بعض المتأملين أن جميع ألفاظ اللغة ترتدّ إلى أصوات طبيعية، ومنذ أقدم العصور والعلماء شرقاً وغرباً يرددون ذلك على أنه نظرية متينة لا يمكن دحضها، وفي مقدمتهم العالِم العربي ابن جني، وابن بابشاذ، وبخاصة هذا الأخير؛ أما في أوروبا فمن بين الأسماء اللامعة في هذا الميدان القديس توماس الاكويني الذي صرّح بأن الأسماء تتجاوب بالضرورة مع طبائع مسمياتها[٤].

---

(١) Interjections.

(٢) إدوارد سابير، ص ١٣ من الترجمة الفرنسية السابقة الذكر.

(٣) Onomatopées.

(٤) Nomina debent naturis rerum congruere.

ولكن بالاختبار يثبت خطأ تلك النظرية من الوجوه التالية: ألفاظ التعجب والانفعال الموجودة في اللغة ليست هي بعينها الصيحات اللاإرادية الطبيعية، وإنما هي صورة صوتية تقريبية لها، وتثبيت لبنائها على وضع لغوي لا يتغير، ولا علاقة لها بما يصدر عن الإنسان في حالات الانفعال من صيحات تلقائية صادقة، فهي هكذا في معاجم اللغة فقط، وتستعمل بصورتها اللغوية هذه في المسرحيات والقصص والروايات كعوامل للتأثير الوجداني المصطنع، ولكننا لا نستعملها أبداً في حياتنا اليومية، فالمتنبي عندما يبدأ قصيدة في التوجع من الفراق بقوله:

أوْهِ بديلٌ مِنْ قَوْلَتِي آها   لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَديلُ ذِكْرَاهَا

إنما يقدّم لنا تصويراً بارداً متحجراً لصيحات هي عند طغيان الشعور بألم الفراق، لا بدّ أن تكون ملتهبة وفوضوية لا تدخل في وزن الشعر؛ وكذلك الحال عندما يقول شوقي في مشهد من مسرحية كليوباترا على لسان أنطونيو:

رُوما حَنَانَكِ وَاغفري لِفَتَاكِ   أوّاهِ مِنْكِ وَآهِ مَا أَقْسَاكِ

فإذا قيل لنا: إن ألفاظ التعجب والانفعال ــ مهما اختلفت بين لغة وأخرى ــ فإنه يبقى لها نوع من القرابة بعضها ببعض، ينمّ عن اتصال وثيق بالغريزة، رددنا على ذلك بأنها ليست إلاّ محاكاة تقريبية باردة للطبيعة، وأنها إذا تقاربت في مختلف اللغات فبحكم ارتباطها بالطبيعة، ولكنها ينذر أن تدخل في بناء ألفاظ أخرى، بحيث نستطيع، بتحليل هذه الألفاظ، أن نعثر عليها ونتعرّف على معانيها، وذلك مما يؤكد أنها لون من ألوان التعبير، وليست أساساً لنشأة اللغات.

ويمكن أن نقول عن الطائفة الثانية من الألفاظ التي أثارت هذه المناقشات، ــ وهي الكلمات ذات الجرس المعبّر ــ إنها توجد هي الأخرى في جميع اللغات لتعطي تصويراً موسيقياً لبعض الدلالات فقط، وهي الدلالات

التي لها أصوات في الطبيعة. ولنتأمل مثلاً بعض دلالات مما ليس له صوت كأسماء الألوان، ولننس قليلاً أن هناك دلالة مصطلحاً عليها لكل من أسماء هذه الألوان؛ هل هناك في الحس أو الوجدان أو المنطق أو الطبيعة ما يمنع أن تدل كلمة «أخضر» على لون الدم، أو كلمة «أحمر» على لون النبات، أو كلمة «أبيض» على لون الليل؟ ليس هناك من مانع، إلاّ الاتفاق والاصطلاح فقط؛ أما عندما تكون الألفاظ محاكاة لضوضاء معيّنة فإن المتكلم ليس حراً في الاصطلاح مع غيره، إذ هناك ما يمنع أن أقول فَرْقَعَ الدجاج، أو أن أتكلم عن حفيف المدافع، أو خرير الطيارات؛ وقد كان ابن سينا حريصاً جداً عندما قال في الإشارات: إن بين اللفظ والمعنى علاقة ما، وربما أثرت أحوال في اللفظ في أحوال المعنى.

وليس من شك أن الإنسان البدائي قد أدخل اعتبار الجرس الصوتي ضمن العوامل التي تساعده على التعبير باللفظ؛ أي أنه بذل أقصى الجهد في أن يحاكي بصوته ما في الطبيعة من أصوات ونغمات، كلما وجد ذلك ممكناً، دون أن يجعل من ذلك قاعدة عامة أو حتى حكماً غالباً. وقد لاحظ سابير[1] أن قبائل الاثباسكا، وهم من الهنود الحمر الذين يعيشون على الفطرة على ضفاف نهر ماكينزي بأمريكا لا يكثرون في لغتهم من الألفاظ ذات الجرس المعبّر، بل يقول إنهم أفقر في تلك الناحية من اللغة الإنجليزية أو الألمانية مثلاً، على الرغم من أنهم أقرب إلى البدائية وأقل تطوراً من الإنجليز أو الألمان.

وربما تبادر إلى الذهن من قول سابير في تعريفه السابق للكلام بأنه رموز صوتية (تصدرها أعضاء النطق) أن هناك أعضاء خلقت بطبيعتها للنطق، إذ لو قلنا بذلك لعدنا إلى شبهة أن النطق فطري في الإنسان. والواقع أنه ليست هناك أعضاء خلقت خصيصاً للنطق، بل هي أعضاء من جسم الإنسان،

(١) نفس المرجع، ص ١٥.

خلقت لوظائف أخرى مختلفة، ثم استغلها الإنسان بفكره استغلالاً صالحاً في صنع أداة التعبير التي هي اللغة، وفي النطق بهذه اللغة. فالرئتان والحنجرة والحنك واللسان والأنف والأسنان لم تخلق للنطق، وإنما خلق بعضها للتنفس وبعضها للأكل وبعضها للصياح، وانتفع بها جميعاً في التلفظ بما يريد المتكلم توصيله إلى السامع من أفكار، ومثلها في ذلك مثل الأصابع التي خلقت للَّمس والإمساك بالأشياء، ثم سخرها العقل بعد ذلك في أغراض أخرى كالكتابة أو العزف على الآلات الموسيقية. ويجب ألا ننسى كذلك أن الكلام لا يتوقف ببساطة على نشاط ما نسميه أعضاء النطق، فالمخ والجهاز العصبي والسمع، كل هذه تتعاون مع أعضاء النطق في صنع الكلام وإصداره واستقباله وفهمه.

كذلك يجب أَلاَّ نسيءَ فهم ما يقوله الباحثون في العلاقات بين علمي النفس ووظائف الأعضاء، وينتهون منه إلى تحديد منطقة خاصة من خلايا المخ يدعونها مركز الكلام. فليس مركز الكلام هنا في الحقيقة إلَّا جزءاً من المركز العام الذي ينتهي إليه السمع، ومع ذلك فهو متعلق تعلقاً ضرورياً بمراكز أخرى كالبصر أو الحس أو الذوق أو التذكر؛ فبهذه وحدها تأخذ الموجات الهائمة ــ فيما يسمونه مركز الكلام ــ قيمتها اللغوية ودلالاتها المفهومة، وهي بدون ذلك لا تعني شيئاً، وبعبارة أخرى فإن مركز الكلام هذا ليس إلَّا شبكة تصل خيوطها بين عدد عظيم من نقط النشاط المختلفة في المخ، وتتضافر فيها العناصر العضوية والعصبية والنفسية على إحداث أثر واحد هو الذي نسميه في النهاية الكلام[1].

وفي التعريف الذي نقلناه عن سابير للكلام احتياط آخر، إذ إنه يشترط أن يكون (بوساطة رموز صوتية)، فماذا يعني ذلك؟ إنه يعني بها تلك الأصوات التي تطرق آذاننا على شكل كلمة، أي إشارة مسموعة ترمز بمجرد التقاط الأذن

(١) سابير، نفس المرجع، ص ١٧ ــ ١٨.

لها إلى نتيجة ما من نتائج التجربة الحسية أو النفسية معروفة لدى القائل والسامع، لا لشيء إلاّ لأنهما اصطلحا على أن يعطياها تلك الدلالة. فكلمة «رداء» مثلاً ليست بكائن لغوي في ذاتها، إذا أخذناها من ناحية النغم الموسيقي المطلق الذي تحسه الأذن عند النطق بها حروفاً وحركات، أو من ناحية الإحساس العضوي الذي يشعر به الإنسان وهو يخرج من فمه هذه الكلمة بحروفها وحركاتها واحداً بعد الآخر، ولا برؤية العين لهذه الكلمة مسجلة بالكتابة، فعملية الاستقبال البصري لا تجدي في إعطائها صفة الحقيقة اللغوية الواقعة، ولا إذا تناول الإنسان القلم وكتبها بنفسه. وإنما تأخذ هذه اللفظة مكانها في البناء، عندما تتوافق هذه الاعتبارات كلها وكثير غيرها على أن ترتبط في الذهن بالصورة الحسية للرداء ارتباطاً لا ينفصم. هنا تصبح كلمة «رداء» رمزاً صوتياً له دلالةً، يعني أنها تصبح عنصراً من عناصر الكلام. ولكي يتم هذا الارتباط الوثيق بين الرمز والدلالة، بين الاسم والمسمى، ولكي يصبح الرمز الصوتي أداة مرنة لتبادل المعرفة، ولتحقيق التفاهم بين أعضاء المجتمع الواحد، يجب أن تتكرر التجربة الحسية أو النفسية المؤدية إلى هذه المعرفة مراراً كثيرة، وعلى عينات مختلفة مما يمكن أن يدخل في نطاق هذه الدلالة، وإلاَّ بقي الرمز الصوتي محدوداً عاجزاً عن الشمول، أي أنه لا يكفي مثلاً أن يقع البصر على رداءٍ واحدٍ، مرةً واحدةً، حتى نجد له اسماً في المعجم. وخلاصة ذلك:

١ ــ أن هذه الكلمة لا يحتمل أن توجد في المجتمعات التي لا تعرف الثياب ويعيش أهلها عراة كما ولدوا، لانعدام التجربة المؤدية للمعرفة، المنتجة للرمز الحامل للدلالة في الكلام.

٢ ــ لو حدث مصادفة أن مرّ أجنبي يلبس رداءً في مجتمع عراة، مرة واحدة، فمن الممكن أيضاً ألاّ تظهر في لغتهم لفظة دالة على ذلك، ولو أنها نشأت لكانت دلالتها محدودة محصورة في رداء ذلك الأجنبي بشكله ولونه لا تتعداه إلى أنواع الثياب الأخرى، ثم إنها لا تلبث أن تموت وتختفي لعدم الحاجة إلى استعمالها. وهذا ما نلاحظه في اللغة العربية الآن، حيث أصبحت

الألفاظ الدالة على البداوة وشكل الصحراء وتقاليدالجاهلية وأجزاء الإبل وأنواعها وأوصافها من الألفاظ الغريبة الصعبة، علينا، نظراً لأن استعمال هذه الألفاظ لم يعد مرتبطاً بنمط حضاري للأمة العربية الآن. كذلك نلاحظ أن العرب الأقدمين عندما اتصلوا بالزراعة والصناعة والملاحة والفنون، لم تكن في لغتهم ألفاظ كافية للتعبير عن هذه الدلالات فاستعاروا ألفاظاً من جيرانهم إمَّا من نفس العنصر، الذي نسميه عنصر الساميين، وإمَّا من غيره كما أخذوا عن الفرس والروم والهنود وغيرهم.

الكلام إذن يكون برموز صوتية يشترط فيها أن تكون صادرة من «أعضاء النطق» بالذات لا من غيرها. فأنا إذا صفقت بيدي لأدعو الساقي في المقهى، فقد أصدرت صوتاً له دلالة، تترجم لغوياً بجملة مفيدة أو بأكثر من جملة، إذ كأنني صحت به قائلاً: يا ساقي القهوة إنني أدعوك للحضور، إذ أريد أن أطلب منك شيئاً. ومع ذلك فصوت التصفيق الصادر من اليد هو إشارة أو تعبير، وليس لغة، لأنه لم يصدر عن أعضاء النطق الطبيعية. وشرطيّ المرور عندما ينفخ في صفارته فإنه يطلب شيئاً محدداً منصوصاً عليه في القانون، ولو ترجمناه إلى كلام، لكان يعادل قوله صائحاً بأعلى صوته: أيها السائق، إنني آمرك باسم القانون بالوقوف ، فإذا عصيت هذا الأمر فإنك تتعرض للعقوبة التي يراها القضاء بحقك في مثل هذه الظروف. والصوت الصادر من الصفارة اشتركت في إصداره بعض أعضاء النطق الطبيعية كالرئتين والشفتين، ولكنه لم يتم إلَّا بالاستعانة بجهاز صناعي ليس جزئاً من أعضاء النطق الطبيعية، فالصفير إذن قد يكون إشارةً لها دلالةٌ ولكنه ليس كلاماً.

ومن جهة أخرى نلاحظ أننا لو أخذنا ألفاظاً لا ترتبط بعضها ببعض برباط فكري له معنى، بحيث يصبح التلفظ بها متتالية غير دالٍ على شيءٍ، فعلى الرغم من كونها أصواتاً وألفاظاً أصدرتها أعضاء النطق الطبيعية إلَّا أنها ليست لغةً أو كلاماً، لأنها لم تدل على شيء؛ ومن أمثلة ذلك تخليط المجانين، وهذيان المحمومين، وفن بعض المضحكين الذين يسردون بسرعة ألفاظاً متلاحقة دون

أن يـربط بينها مفهـوم ما؛ كـل ذلك ليس كـلاماً ولا لغـةً، وكذلـك مـا تلفـظه الببغاء، لقوله في تعريف الكلام أنه وسيلة تفـاهم إنسانيـة، أي خاصـةِ بالنـوع البشري فقط.

كذلك أنين المرضى وبكاء الأطفال وما إلى ذلك ليس كلاماً ولا لغـةً، لأنه لا يعتمد على الإرادة، وهي كما رأينا ركن من أركان هذا التعريف.

وأخيراً نلاحظ أنه قد اشترط فيه أن يكون باندفاع الهـواء من الداخـل إلى الخارج؛ لأن هناك أصـواتاً تصـدرها أعضـاء النطق الـطبيعية بـاندفـاع الهواء في الاتجاه العكسي، أي من الخارج إلى الداخل. فمثـلاً التقبيل هـو صوت يحـدث من اندفاع الهواء إلى الداخـل عبر الشفتـين، أي أنه يحـدث بامتصـاص الهواء، وهو صوت له دلالة، فقـد يعبر عن الحب، وقـد يعبر عن الاحتـرام، وقد يعبـر عن الغرام، ولكنه ليس لغة، لفقدانـه هذا الشـرط. وكذلـك شهيق الدهشـة، وأنواع من أصوات الرفض، أو الاستهزاء ونحـوها، التي تحـدث بامتصـاص الهواء نحو الداخل، وهي تعبيرات لها دلالاتها ما في ذلك شك، ولكنها لا تندرج تحت مفهوم الكلام اللغوي، ولا يمكن تثبيت شكل نطقها بالكتابة.

والآن وقد فرغنـا من ذكر العنـاصر التي يتحدد بهـا الكلام في علم اللغـة الحديث نتصور أن القارىء قد يسأل عن موقف علماء العرب الأقدمـين من ذلك كله.

رأينـا طرفـاً من عنايتهم بفلسفـة اللغـة فيـما نقلنـاه عن إخـوان الصفـاء. أما ابن جني فإنه قد ساق في كتاب «الخصائص» تعريفـاً للغة، وتعـريفاً للقـول. وفصَّل في ذلك تفصيلاً مسهباً ثم لخصه في عبارات منها: «فقد ثبت بمـا شرحنـاه وأوضحناه أن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارةٌ عن الألفاظ القـائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجُمل على اختلاف تركيبها. وثبت أن القول عندها أوسع من الكلام تصرفاً، وأنه قد يقع على الجزء الواحد، وعلى الجملة، وعلى ما هو اعتقاديٌّ ورأي، لا لفظ وجرس.

«وقد علمت بذلك تعسف المتكلمين في هذا الموضع، وضيق القول فيه عليهم حتى لم يكادوا يفصلون بينهما، والعجب ذهابهم عن نص سيبويه فيه، وفصله بين والكلام والقول:

«ولكلِّ قومٍ سُنَّة وإمامُها»[1]

وفي تعريف اللغة يقول: «أما حَدُّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[2].

وفي خلال شرحه يقول: «ومما يؤنسك بأن الكلام إنما هو للجمل التوامّ دون الآحاد أن العرب لما أرادت الواحد من ذلك خَصَّته باسم له لا يقع إلَّا على الواحد وهو قولهم (كَلِمة)، وهي حجازية، و (كِلْمة)، وهي تميمية. ويزيدك في بيان ذلك قول كثير:

لو يَسْمعون كَمَا سمعتُ كلامها   خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودَا

ومعلومٌ أن الكلمة الواحدة لا تشجو، ولا تَحْزُن، ولا تتملك قلب السامع، إنما ذلك فيما طال من الكلام، وأمتع سامعيه، بعذوبة مُسْتَمَعِهِ، ورقة حواشيه[3]. ونكاد نجد أنفسنا هنا أمام أحدث نظريات الغرب في الدلالة اللغوية حيث يقولون إن اللفظة المفردة لا يكاد يكون لها معنى، وإنما تكتسب الألفاظ معانيها وشخصياتها من خلال الكلام المركب، والمواقف التي يقال فيها هذا الكلام. بل يزيد ابن جني على ذلك عندما يناقش سيبويه فيقول في كتاب الخصائص «وقد قال سيبويه (هذا باب أقل ما يكون عليه الكلم) فذكر هنالك حرف

---

(١) أبو فتح عثمان بن جني، كتاب الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار ــ ط القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م الجزء الأول، ص ٣٢، وصدر هذا البيت: «من معشر سَنَّتْ لهم آباؤهم».
وهو من معلقة لبيد بن ربيعة العامري، انظر: ديوانه، ص ٣٢٠.

(٢) الخصائص ١/٣٣.

(٣) الخصائص ١/٢٧.

العطف، وفاءه، وهمزة الاستفهام، ولام الابتـداء، وغير ذلـك مما هـو على حـرف واحـد، وسَمَّى كل واحـد من ذلك كلمـة. فليت شعري كيف يمكنـه أن يجـرد للنطق حرفاً واحداً؟ أَلَا تراه أن لو كان ساكناً لزمه أن يدخل عليه من أولـه همزة الوصل، ليجـد سبيلاً إلى النـطق به، نحـو: اِب، اِص، اِق. وكذلـك إن كان متحركاً فأراد الابتداء بـه والوقـوف عليه قـال في النطق بـالباء من بَكـر بَهْ، وفي الصاد من صلة: صِهْ، وفي القاف من قدرة قُهْ، فقد علمت بـذلك أن لا سبيـل إلى النطق بالحرف الواحد مجرداً من غيره، ساكناً كان أو متحـركاً. فـالكلام إذن في بيت كثـيِّر إنما يعني بـه المفيـد من هـذه الألفـاظ، القـائم بـرأسـه، المتجـاوز لما لا يفيد، ولا يقوم برأسه من جنسه، أَلَا ترى إلى قول الآخر:

ولمـا قَضَيْنـا من مِنىً كـل حـاجـة ... وَمَسَّـح بـالأركـانِ مَنْ هُـو مـاسِـحُ
أخـذنـا بــأطـراف الأحــاديث بيننـا ... وسـالت بِـأعنـاقِ المـطيِّ الأبـاطـحُ

فقوله (بأطراف الأحاديث) يعلم منه أنـه لا يكون إلَّا جمـلاً كثيرة، فضـلاً عن الجملة الواحدة، فإن قلت: فقد قال الشنفرى:

كَـأَنَّ لهـا في الأرضِ نِسيـاً تَقُصُّـهُ ... عَلَى أمّهـا وَإِن تـخـاطِبْـكَ تَـبْلَتِ

أي تقطِّع كلامها، ولا تكثره، كما قال ذو الرمة:

لَهَـا بَشَـرٌ مِثْـلُ الحـريـرِ ومنـطقٌ ... رخيمُ الحَـوَاشي، لا هُـراءٌ ولا نَـزْرُ

فقوله «رخيم الحواشي» أي مختصر الأطراف، وهـذا ضد الهَـذْر والإكثار، وذاهب في التخفيف والاختصـار، قيل فقـد قال أيضـاً (ولا نَزْرُ)، وأيضـاً فلسنا ندفع أن الخَفَر يقل معه الكلام ويحذف فيه أحنـاء المقال، إلَّا أنـه على كـل حال لا يكون ما يجـري منه وإن قـل ونَزُرَ أقـل من الجمل، التي هي قـواعد الحـديث الذي يشوق موقعه، ويروق مُستَمَعُهُ، وقد أكثرت الشعراء في هذا الموضع، حتى صار الدالُّ عليه كالدال على المشاهد غير المشكوك فيه، ألا ترى إلى قوله:

وحــديثُهــا كــالـغَيـث يَـسْـمَـعُــهُ ... راعـي سِنينَ تَـتَـابَـعَـتْ جَـدْبَـا
فَــأَصَـاخَ يَــرْجُـو أن يكــونَ حيـاً ... ويــقــولُ مِـن فَــرَحٍ: هَــيَـارَبَّـا

يعني حنين السحاب وسَجْره، وهذا لا يكـون عن نبرة واحـدة، ولا رَزَمة مختلسة، إنما يكون البدء فيه والرَّجْع، وتثنى الحنين على صفحات السمع، وقول ابن الرومي:

وحـديثُهـا السحـرُ الحـلال لـو آنـه لم يَجْن قتـل الـمُسْلِم الـمُتَحـرِّزِ
إنْ طـالَ لم يُمْلِلْ وإنْ هي أوجـزتْ ودَّ الـمحـدَّثُ أنَّـهـا لـم تُـوجِـزِ
شَـرَكُ القلوبِ، وفتنـة مـا مثلُهـا لـلمـطمئِنّ، وعُـقلة الـمُسْتَـوْفِـزِ

فذكر أنها تطيل تارةً، وتوجزُ أخرى، والإطالة والإيجاز جميعاً إنما هما في كـل كلام مفيد مستقل بنفسه، ولو بلغ بها الإيجاز غايته لم يكن له بد من أن يعطيـك تمامه وفائدته، مع أنه لا بد فيـه من تركيب الجملة فـإن نقصت عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب. ألا ترى إلى قوله:

قُلْنَا لَهَا قِفِي لَنَا قَالَتْ قَافْ[1]

وأن هَذَا القدر من النطق لا يعذب ولا يجفو، ولا يَرِقُّ ولا ينبـو، وأنه إنمـا يكـون استحسان القـول واستقباحـه فيما يحتمـل ذينـك، ويؤديهـما إلى السمـع، وهـو أقل مـا يكون جملة مـركبة، وكـذلك قـول آخر ــ فيـما حكاه سيبـويـه ــ: «ألا تا» «فيقول مجيبه: «بلى فا»[2] فهذا ونحـوه مما يقـلّ لفظه، فـلا يحمل حُسنـاً ولا قُبحاً، ولا طيباً ولا خبثاً، لكن قول الآخر (مالك بن أسماء):

---

(١) قـال محقق الخصائص في هـامش ج ١ ص ٣٠: إن قائـل هذا هـو الـوليـد بن عقبـة بن أبـي معيط. وكان عاملاً لعثمان رضي الله عنه على الكوفة، فـاتهم بشرب الخمـر فأمر الخليفة بشخوصه إلى المدينة، وخرج في ركب فنزل الوليد يسوق بهم، فقال:

قلت لهـا: قفي، فقـالـت: قـاف لا تحسبينـا قـد نـسينـا الإيجـاف
والـنـشـوات مـن معـتـق صـافٍ وعـزف قينـات عـلينـا عـزاف

وانظر شواهد الشافيـة ٢٧١ والأغاني ٥/١٣١، وتـرى في الشطر الشـاهد بعض المخالفة وقوله قالت قاف أي إني واقفة أو وقفت فاستغنى بالحرف عن الجملة.

(٢) علق محقق كتـاب الخصائص: الأستـاذ محمـد علي النجـار فقـال ج ٣ ص ٣٠: انـظر «الكتـاب» ص ٦٢ ج ٢ والنص فيه: «وسمعت من العـرب من يقول ألاَ تـا، بلى فـا. =

آذكــر مِـن جــارتـي ومـجـلسـهــا طــرائفــاً من حــديـثهــا الـحَسَــنِ
ومِـن حــديــث يــزيــدُنــي مِـقَــةً مــا لحــديث المَــوْمُــوقِ من ثَمَنِ

أدلّ شيء على أن هناك إطالة وتمـامـاً ، وإن كـان بغير حشـو ولا خـطَل .
ألَا ترى قوله: «طرائفاً من حديثها الحسن» فذا لا يكون مع الحرف الواحد، ولا الكلمة الواحدة، بل لا يكون مع الجملة الواحدة دون أن يتردد الكلام، وتتكرر فيه الجمل، فيبين ما ضُمِّنَهُ من العذوبة، وما في أعطافه من النعمة واللدونة. وقد قال بشار:

وحــوراءِ الـمــدامِــعِ مِن مــعــدٍّ كــأن حــديـثهــا ثـمــرُ الـجِـنــانِ

ومعلومٌ أنّ حديثاً من حرف واحد، بل كلمة واحدة، بل جملة واحدة، لا يجني ثمر جنة واحدة ، فضلاً عن جِنان كثيرة . وأيضاً فكما أن المرأة قد توصف بالحياء والخفر ، فكذلك أيضاً قد توصف بتغزلها ودماثة حديثها. ألَا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿**عُرُباً أتراباً لأصحاب اليمين**﴾ وأن العَرُوب في التفسير هي المتحبِّبة إلى زوجها، المظهرة له ذلك، بذلك فسره أبو عبيدة. وهذا لا يكون مع الصمت، وحذف أطراف القول، بل إنما يكون مع الفكاهة والمداعبة، وعليه بيت الشماخ:

ولــو أنّـي أشــاءُ كَنَنْتُ جسمي إلى بيضــاءَ بَهْنَكَــةٍ شَمُــوعِ [1]

قيل فيه (الشماعة) هي المزح والمداعبة. وهذا باب طويل جداً، وإنما أفضى بنا إليه ذَرْوٌ من القول أحببنا استيفاءه تأنُّساً به، وليكون هذا الكتاب ذاهباً في جهات النظر، إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم، لأن هذا أمر

= فإنما أرادوا: ألا تفعل، وبلى فأفعل، ولكن قطع» وفي الكامل ٤/١٢٧ عن الأصمعي «كان أخوان متجاوران لا يكلم كل واحد منهما صاحبه سائر سنته حتى يأتي وقت الرعي، فيقول أحدهما لصاحبه ألَا تا، فيقول صاحبه الآخر بلى فا. يريد ألَا تنهض، فيقول الآخر بلى فانهض، وانظر نوادر أبي زيد ١٢٧ وشرح شواهد الشافية ٢٦٦ .

(١) البهنكة، وربما قالوا البهلكة، الغضة الظريفة من النساء، والشموع اللعوب صاحبة المزح والمداعبة.

قد فُرِغَ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه. وإنما هذا الكتاب مبني على إثـارة معادن المعـاني، وتقريـر حال الأوضـاع والمبادىء، وكيف سَـرَتْ أحكـامهـا في الأحنـاء والحواشي[1].

وكـأن المفكر اللغـوي الإسلامي الكبـير يقرر بهـذه العبارة الأخيـرة الفرق الذي أشرنا إليه في صدر هذا الكتاب بين علوم اللغة وعلم اللغة أو فقـه اللغة. فعلوم اللغة هي العلوم الموازين، الحاوية للقواعد والقوانين، التي تبين الخطأ من الصـواب. أما علم اللغـة وفقـه اللغـة فهـما من المبـاحث التفسيـريـة الفلسفيـة الـوصفية، التي تنبني في الأغلب على إثـارة معـادن المعـاني، أي درس العـلاقـة القائمة بين الفكر والتعبير، وتقريـر حال الأوضـاع والمبادىء، أي درس التـطور التـاريخي للغة، وكيف سـرت أحكـامهـا في الأحنـاء والحـواشي، أي الاستقـراء للظاهرة اللغوية خلال النصوص ومقارنـة الظواهـر بعضها ببعض، ولسنـا نحمّل ابن جني أكثر مما يحتمل، فكتابـه ناطق بـذلك، وهو فيه ملتزم لهـذا النهج بقـدر ما أتيـح له من وسائل وأدوات.

وهناك مفكر عربـي آخر هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمـرو بن بحر الجاحظ، الذي تنـاول في كتاب «الحيـوان» بفقرة من فقـراته الفـرق بين صيـاح الحيوانات ولغة الإنسان بما لم يزد عليه المحدثون في الغرب إلاَّ القليل، يقول:

«وزعم صاحب المنطق، أن كل طائر عريض اللسان، فالإفصاح بحروف الكلام منه أوجه، ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان، وكذلك الخنزير، وقد تهيـأ للكلب مثل: عَفْ عَفْ، وَوَوْ وَوْ، وأشبـاه ذلك. وتهيـأ للغراب القـاف، وتهيـأ للببغاء من الحـروف أكثر. فـإذا صرت للسنـانير وجـدتها قـد تهيـأ لهـا من الحـروف العدد الكثـير، ومتى أحببت أن تعرف ذلـك فتسمَّع تجاوبَ السنانـير، وتـوعُّد بعضهـا لبعضٍ في جوف الليـل، ثم احصِ ما تسمعـهُ، وتتبعْه وتـوقف عنـده، فإنـك ترى من عـدد الحروف مـا إن كـان بهـا من الحـاجـات والعقـول

(١) الخصائص، ج ١ ص ٣٢.

والاستطاعات، ثم أَلَّفْتَها، صارت لغة صالحة الموضع، متوسطة الحال. واللغات إنما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلته، وعلى قدر مخارجها وخفتها، وسَلَسِها وثقلها، وتعقدها في أنفسها. كفرق ما بين الزنجي والخوزي، أن الرجل يتنخس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحد، فيتكلم بعامة كلامهم، ويبايع الخوز ويجاورهم زماناً فلا يتعلق منهم بطائل. والجملة أن من أعون الأسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك»[١].

وهذا النص يبين لنا حقائق من علم اللغة جديرة بالإثبات؛ لأن الباحثين الأوروبيين ما يزالون يقلبون احتمالاتها على جميع الوجوه الممكنة بعد الجاحظ بأكثر من ألف عام: فهو يبين أن ما نسميه الكلام عند الإنسان لا يتوقف على مجرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعي في الصياح، أو تقطيعه إلى حروف ذات مخارج متميزة؛ فذكر حيوانات شتى، أصواتها تشبه صوت الإنسان على نحو يقلّ ويكثر، حتى وصل في النهاية إلى الببغاء ثم السنانير، وفي حديثه عن هذه الأخيرة لا يتردد في إعطاء توجيه أساسه التجربة المباشرة والاستقراء والإحصاء عندما يقول: «فتسمع . . . ثم احص ما تسمعه وتتبعه، وتوقف عنده»، وبعد أن يبيِّن أن صياح السنانير هذا يتضمن عدداً لا بأس به من الحروف، لا يتردد في أن ينفي أن يكون هذا الصياح لغة، لأنه يشترط أن يكون وراء النطق الصوتي ما يسميه بالحاجات وهي البواعث الاجتماعية والنفسانية والفكرية للتعبير، وكذلك ما يسميه بالعقول وهي القدرات المفكرة المدبرة التي تستطيع الملاحظة والقياس والاستنباط، وتعمل بدأب على كشف مجاهل الكون، وأخيراً ما يسميه بالاستطاعات وهي الإرادة، التي تجعل المتكلم لا ينطق بباعث الغريزة أو الحالة الشعورية القوية المؤقتة فحسب، ولكن كلما رأى

---

(١) كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، طبع مكتبة محمد حسنين النووي بدمشق ـ سوريا، ومكتبة الكتاب اللبناني، ببيروت ـ لبنان، بإشراف المحامي فوزي عطوي، المجلد الثاني ـ الجزء الخامس ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

هو ذلك مناسباً لـه مرغـوباً منـه فيه. وهـو بهذا يكـاد يعطينـا للغة نفس الحـدود والرسوم التي أعطانا إياها الأمريكي سابـير في وقتنا المعـاصر، فالجـاحظ يرى أن اللغـة ليست مخارج الحـروف فقط، وإنما هي القـوة الإنسانيـة الإراديـة المفكـرة المعبـرة في مجتمع، وهـو تقريبـاً ما يستخلص من تعـريف سـابـير الـذي سبق أن حلّلناه. وينتقل بعد هذا، في نفس النص، إلى ملاحظات دقيقـة في المقارنـة بين الفصائل المختلفة من اللغات، فيرى أن لغات البشر تتفاوت صعوبـة وسهولـة، لا في ذاتها فقط، وإنما بالنسبة للغريب الذي يـريد أن يتعلّمهـا على الخصـوص، فيقـول: إن الألفاظ تصعب عليـه كلما ازداد جهله بمعناهـا الدقيق واستعمـالها، وكذلك يزيد من صعوبة اللغة الأجنبية كثرة عدد ألفـاظها، وهي أخيـراً تتفاوت في الصعوبة بحسب إمكان نطق حروفها بسهـولة نـطقاً صحيحـاً. وضرب مثـلاً لـذلك بـالفرق بـين سرعـة تعلم تجار الـرقيق والنخاسيـين لغة الـزنوج لسهـولة متنـاولها، بينـما يقضون الـوقت الطويـل مع الخـوز فلا يستـطيعون تعلم لغتهم، وينتهـي أخيراً بإقرار مبدأ عام ما يزال هو المبدأ السائد في تعليل الظاهرة اللغوية حتى الآن، وهو أنها ظاهرة اجتماعية، فبحسب حاجـة الإنسان إلى اللغـة يكون اكتسابه لهذه اللغة، وهو لا يحتاج إليها إلّا إذا كان محتاجاً إلى الاتصـال بالمجتمـع الذي يتحدث بها، وهذا ما ينص عليه بقـوله: «والجملة أن من أعـون الأسباب على تعلّم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك».

هنـاك دون شك كثـير من قراء هـذه الصفحـات قـد تبـادر إليهم السؤال الأبدي التقليدي:

كيف نطق الإنسان الأول؟ بل لعل بعضهم قـد لاحظ إلحاح المؤلف عـلى أن اللغة ظاهرة إنسانية صنعها المجتمـع، فأوقعـه ذلك في حيـرة من أمره، إذ إن كثيراً من المؤلفين، القدامى على الخصوص، قد نصوا على أن اللغة إلهام من الله تعـالى اختص بـه الإنسان. فـما هو إذن وجـه الحق في هذه المشكلة: هـل اللغة توقيفية وهبها الخالق للإنسان، أو اصطلاحية صنعها الإنسان لنفسه؟

اتخذت هذه المشكلة أبعـاداً فلسفية ودينيـة ضخمة نـظراً لاستناد كثـير من

المفكرين القدماء إلى آيات من الكتب المقدسة يفهم منها أن اللغة من عند الله؛ ففي توراة موسى؛ «وجَبَلَ الربّ الإلّه من الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها، فكل ما سماه به آدم من نفس حيّة فهو اسمه»[1]، وإن كنا نلاحظ من حرفية الآية السابقة أن الرب الإلّه لم يفرض على آدم أسماء معينة، بل تركه يسمي كل أصناف المخلوقات بأسماء تميزها من وضعه هو . وعلى كل حال فإن التوراة تقرر في الإصحاح الحادي عشر من نفس السفر، الآية الأولى، ما نصه: «وكانت الأرض كلها لغةً واحدةً»، ثم يحاول نفس هذا الإصحاح، ابتداء من الآية الثانية، أن يفسر لنا تعدد لغات البشر بعد ذلك، فيقصّ القصة الآتية: «وكان أنهم لمّا رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض: تعالوا نصنع لبناً وننضجه طبخاً فكان لهم اللبن بدل الحجارة، والحُمَرُ كان لهم بدل الطين. وقالوا: تعالوا نبنِ لنا مدينة وبرجاً رأسه إلى السماء، ونُقِمْ لنا اسماً كيْ لا نَتبدّدَ على وجه الأرض كلها، فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: إنّهم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة، وهذا ما أخذوا يفعلونه؛ والآن لا يكفون عما همّوا به حتى يصنعوه. هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلهاوكفّوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها، ومن هنا شتتهم الرب على كل وجهها».

وقد اتفق كل الباحثين المحدثين، في أوروبا المسيحية، وفي الأوساط اليهودية المستنيرة، على اعتبار هذه القصة أسطورة شعبية لا تحكي واقعاً تاريخياً بقدر ما تلتمس تعليلاً فنياً لاختلاف الألسنة واللغات. فالسير جيمس جورج فريزر يفرد لها فصلاً كاملاً في كتابه الكبير «الفلكلور في العهد القديم»[2]،

---

(١) تكوين ٢/١٩.

(٢) Sir James George Frazer, Folk-lore, in the Old Testament, Macmillan and Co., Limited — London, 1919 — vol. I, Part I, Chapter 5, p.p. 362-384.

فيتتبع بالنقد والتحليل تطور هذه الأسطورة منذ الوثنياتِ القديمة، ويقول: إن العلاقة اللغوية بين أمم بابل وبين بلبلة الألسن ليست إلّا من الخيال الشعبي، إذ إن الثابت علمياً أن كلمة بابل أصلها في اللغة البابلية نفسها «باب ـ إلو» أو «باب ـ إل»، ومعناها باب الله، أو باب الآلهة؛ لأن بابل كانت مدينة مقدسة، وكان سكان العراق القديم يحجون إلى معبدها الكبير؛ ولأن المعبد البابلي كان يتميز دائماً ببرج ضخم مرتفع مبني في صحنه يسمى «زقورة» أو «زجورة»، ظن القدامى من الآراميين واليهود أن هذا البرج شيّده الكفّار تحدياً لله أو ـ كما ينقل عنهم فريزر ـ أنهم اعتقدوا أن بإمكانهم، من هذا البرج، أن يصوبوا السهام والحراب التي تنطلق نحو السماء فتدمر مملكة الله العليا. وقد حكوا في ذلك خرافات نقلها فريزر عن لويس جنزبرج في كتابه «أساطير اليهود»: منها أنهم زعموا أن بعض هذه السهام كان إذا أطلق نحو السماء عاد إلى الأرض مخضباً بالدم. ومنها أن هؤلاء الكفار من سكان بابل كانوا يريدون أن يصل ارتفاع البرج إلى السماء ليضعوا أصنامهم مكان الله. ومنها أن برج بابل عندما تهدم غاص ثلثه في باطن الأرض، واحترق ثلث آخر بالنار، وبقي الثلث الأخير خراباً، ومع ذلك فإن مكانه ـ كما زعموا ـ ما يزال محتفظاً بسر المعجزة، فكل من يمر عليه يفقد ذاكرته تماماً وينسى كل شيء يعرفه. ومما لا شك فيه أن كل هذه الأساطير كان يبررها شيء واحد، هو غرابة هذه الصروح المعمارية البابلية الدينية في نظر أولئك البدو من الآراميين والعبريين، فربطوا ذلك بمحاولة تفسير تنوع اللغات الذي كان يبدو لهم غير متفق مع كون الجنس البشري كله يرجع إلى أب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء. فإذا ما انتقلنا إلى العالم الإسلامي وجدنا المسألة تأخذ أبعاداً فكرية أكثر اتساعاً.

وقف علماء المسلمين أمام قوله تعالى في سورة البقرة (آية ٣١/٣٢): **﴿وعَلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني**

أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾. ونجد الطبري في تاريخه وتفسيره يذكر شتى الأقوال في ذلك فيقول مثلاً: (حدّثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: علّم الله تعالى آدم الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها).

ويمضي الطبري محدّثاً عن ابن عباس من طرق أخرى تؤكد التفسير الأول وتضيف إليه أن الله قد علّمه ما يستحب ذكره وما لا يستحب من الألفاظ. كما يروي عن مجاهد أن الأسماء التي علّمها الله آدم هي «ما خلق الله تعالى كله»، وفي رواية أخرى له: «علّمه اسم كل شيء» وكذلك يحدث عن سعيد بن جبير، ويروي عن قتادة في نفس الآية أنه علّمه اسم كل شيء: «هذا جبل، وهذا بحر، وهذا كذا، وهذا كذا، لكل شيء»، ثم نجد الطبري يستمر في رواية وجهة النظر هذه ليخلص منها إلى ما يخالفها استيفاء لآراء أوائل المفكرين المسلمين في هذا الصدد، فيقول: (حدثنا القاسم بن الحسن، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا حجاج عن جرير بن حازم ومبارك، عن الحسن وأبي بكر، عن الحسن وقتادة، قالا: علّمه اسم كل شيء: هذه الخيل، وهذه البغال، والإبل، والجن، والوحش، وجعل يسمي كل شيء باسمه. وقال آخرون: إنما علّم اسماً خاصاً من الأسماء؛ قالوا: والذي علّمه أسماء الملائكة ـ (ذكر من قال ذلك) ـ: حدثني عبده المروزي قال: حدثنا عمار بن الحسن، قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن قوله تعالى وعلّم آدم الأسماء كلها، قال: أسماء الملائكة. وقال آخرون مثل قول هؤلاء في أن الذي علّم آدم الأسماء خاصاً من الأشياء[1]، غير أنهم قالوا: الذي علّم من ذلك

---

(١) لعل كلمة الأشياء هنا تحريف لكلمة الأسماء التي هي أكثر مناسبة للسياق. أو لعل العبارة «في أنّ الذي عَلَّمَ آدم الأسماءُ خاصّة من الأشياء».

أسماء ذريته. ــ (ذكر من قال ذلك) ــ : حدثني يونس قال: حـدثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله عز وجل وعلّم الأسماء كلها، قال أسماء ذريته)[1].

ويسـوق الحافظ ابن كثـير في تفسيره للقـرآن الكريم مـا ذكـره الـطبـري، وصدر شرحه في هذا الموضوع بقـوله: (هـذا مقام ذكـر الله تعالى فيـه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وأكد ذلـك عندمـا ختم بقوله أيضاً: وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علّمه الله تعالى من أسماء الأشيـاء، قـال الله تعـالى للمـلائكـة: **﴿ألم أقـل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾**[2].

ويـرى الزمخشـري ــ وهو معتـزلي ــ في تفسيره «الكشـاف»[3]، أن المراد بالأسماء الأجناس التي خلقها الله: (وعلّمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعـير وهذا اسمه كذا، وعلّمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافـع الدينية والدنيوية).

---

(١) تاريـخ الأمم والملوك، لأبـي جعفر محمد بن جرير الطبـري ــ طبـع الحسينية بـالقاهـرة سنة ١٣٢٦هـ، ج ١، ص ٤٩ ــ ٥٠، وانظر تفسيره أيضاً في موضع الآية.

(٢) تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبـي الفداء إسماعيل بن كثـير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ ــ طبـع عيسى البابـي الحلبـي وشركاه بالقـاهرة، ج ١ ص ٧٢ ــ ٧٥.

(٣) الكشاف عن غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، وهـو تفسير القـرآن الكريم، للإمام محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة ٥٢٨هـ ــ ومعه كتاب الانتصاف للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، قاضي الإسكندرية، المتوفى سنة ٦٨٣هـ، وقـد بينّ فيـه ما تضمنـه الكشاف من الاعتـزال، وناقشـه في أعاريبه وأحسن الجـدال مع حسن الإيجـاز. طبـع المكتبة التجـارية بـالقاهـرة ــ سنة ١٣٥٤هـ ــ ج ١، ص ٦١ ــ ٦٣.

وقد لاحظ أحمد بن المنير الإسكندري القاضي المالكي المتوفى سنة ٦٨٣ هجرية، في كتابه الذي خصصه لردّ أهل السنّة على آراء المعتزلة الواردة في تفسير «الكشاف»، أن المفسر يقول: المراد بالأسماء كلها أسماء المسميات، وعلّق على ذلك قائلاً: (وهو يفرّ من اعتقاد أن الاسم هو المسمى، لأن ذلك معتقد أهل السنّة، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية بقوله أنبئهم بأسمائهم، ويتغافل عن قوله ثم عرضهم على الملائكة، فإن الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً، ولم يجرِ إلّا ذكر الأسماء، فدلّ على أنها المسميات، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم وأن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير غرض فيه، بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات، وإطلاعه على حقائقها، وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار، وعلى تسميتها أيضاً، فإن طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها).

ويبدو لنا أن العالمين متفقان على أمر مستغرب من المعتزلة بالذات، وهو أن تكون أسماء المسميات بتوقيف من الله تعالى، فالمعروف عن المعتزلة في ميادين علم اللغة وفقه اللغة أنهم يقولون بأن اللغة من وضع البشر وليست وحياً إلَهياً، وهذا ما سنستمر في تقصّيه الآن.

يقول ابن جني: (هذا موضع محوج إلى فضل تأمل؛ غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف. إلّا أن أبا علي رحمه الله ــ يعني أبا علي الفارسي أستاذه ــ قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: **﴿وعَلَّم آدم الأسماء كلّها﴾**، وهذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أَنْ واضَعَ عليها؛ وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو علي رحمه الله أيضاً قال به ــ يعني بالتواضع والاصطلاح ــ في بعض كلامه. وهذا أيضاً رأي أبي الحسن ــ أي الأخفش ــ ؛ على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه

ـ أي من آدم ـ . على أنه قد فسّر هذا بأن قيل: إن الله سبحانه علّم آدم أسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات: العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات؛ فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا وعَلِقَ كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه، واضمحل عنه ما سواها، لبعد عهدهم بها. وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده، والانطواء على القول به)[1].

وواضح من كلام ابن جني أن أسطورة برج بابل لم يكن لها وجود يذكر في الكلام عن أصل تنوّع اللغات، فهو ينص صراحة على أن آدم وبنيه كانوا في البداية يتكلمون بجميع اللغات، ويعرفونها واحدة واحدة، وأنهم عندما تباعد بعضهم عن بعض أدركهم النسيان لهذه المجموعة الكبيرة من اللغات التي كانوا يعرفونها فثبت كل قوم منهم على لغة واحدة، وهو عكس ما جاء في أسطورة برج بابل تماماً. ومع ذلك فبعض المؤرخين المسيحيين الأُوَل في العالم العربي قد اعتمدوا الأسطورة وذكروها، ففي «تاريخ مختصر الدول» للعلامة غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري، نقرأ ما يلي في الكلام عن عابر بن شالح بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح: (ومن أئمتنا باسيليوس وأفريم يزعمان أن من آدم إلى هذا ـ عابر ـ كانت لغة الناس واحدة، وهي السريانية، وبها كلَّم الله آدم، وتنقسم إلى ثلاث لغات أفصحها الآرامية، وهي لغة أهل الرُها وحرّان والشام الخارجة، وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة، وأسمجها الكلدانية النبطية، وهي لغة أهل جبال آثور وسواد العراق.

ويعقوب الرهاوي يقول: إن اللغة لم تزل عبرية إلى أن تبلبلت الألسن ببابل. (فالغ بن عابر). . .

---

(١) الخصائص، لابن جني، ج ١، ص ٤٠ ـ ٤١.

(أرعو بن فالـغ)... وفي سبعين سنة لأرعو قال النـاس بعضهم لبعض: هلموا نضرب لبِناً،ونحرق آجراً، ونبني صرحـاً شامخـاً في علوّ السماء ويكـون لنا ذكراً كي لا نتبدد عـلى وجه الأرض. فلمـا جـدّوا في ذلك بـأرض شنعار، وهي السـامرة (ونمـرود بن كوش قـاتَ راصِفِي الصرح بصيـده، وهـو أول ملك قـام بـأرض بابـل. وهو الـذي رأى شبه إكليـل في السماء، واتخـذ مثله ووضعه عـلى رأسـه، فقيل: إن إكليله نـزل من السماء)، قـال الله تعالى: هـذا ابتداء عملهم ولا يعجـزون عن شيء يهتمون بـه، سـوف أفـرق لغـاتهم لئـلا يعـرف أحـدهم مـا يقول الآخـر. فبدد الله شملهم عـلى وجه الأرض، وأرسـل رياحـاً عـاصفـة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار، وتبلبلت لغـات الآدميين، ولـذلك دعي اسم ذلك الموضـع بابـل)[1].

أما ابن جني فإنه يستمر في ملاحظاته على مفهوم المفسرين من قوله تعـالى ﴿وعَلَّم آدم الأسـماء كلهـا﴾ فيقـول: «فـإن قيـل: فـاللغـة فيهـا أسـماء وأفعـال

---

(١) ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهـرون الملطي (١٢٢٦م ــ ١٢٨٦م): تاريخ مختصر الـدول، بتحقيق الأب اليسوعي أنـطون صالحـاني ــ الطبعـة الثانيـة، بالمـطبعة الكاثوليكية، بيروت ــ لبنان، سنة ١٩٥٨م ، ص ١١، ١٢.

أما المؤرخون المسلمون فقد أورد بعضهم القصة نفسها على نحو آخر، فالمسعـودي مثلاً يقول في تعدد الألسن واختلاطها: «وقد كان في ملك النمرود بن كوش بن حام بن نوح، هيجان الريـح التي نسفت صرح النمرود ببابل من أرض العراق. فبات الناس ولسانهم سرياني وأصبحوا وقد تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لساناً، فسمي الموضـع من ذلك الوقت بابل، فصار من ذلك في ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً وفي ولد حام بن نوح ستة عشر لساناً، وفي ولد يافث بن نوح سبعة وثلاثون لسانـاً، على حسب مـا ذكرنـا في صـدر هذا الكتـاب، وكان من تكلم بـالعربيـة يعرب وجُـرْهم، وعاد وعبيـل وجديس وثمود، وعملاق وطسم، ووبار وعبد ضخم».

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، المتوفى سنـة ٣٤٦هـ، في كتابـه: مروج =

وحـروف، وليس يجوز أن يكـون المعلَّم من ذلك الأسـماء دون غيـرهـا ممـا ليس بأسماء؛ فكيف خصّ الأسماء وحدها؟ قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القُبُلِ الثـلاثة، ولا بـدّ لكل كـلام مفيد من الاسم؛ وقـد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلمّا كـانت الأسماء من القـوة والأولية في النفس والرتبة على ما لا خفاء بـه جاز أن يُكْتفى بها مما هـو تال لهـا، ومحمول في الحاجة عليها...

ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً. وذلـك أنهم ذهبـوا إلى أن أصل اللغـة لا بد فيـه من المواضعـة، قالـوا: وذلك كـأن يجتمـع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانـة عن الأشياء المعلومـات فيضعوا لكـل واحد منهـا سمة ولفـظاً، إذا ذكر عـرف به مـا مسماه، ليمتـاز من غيـره، وليُغْنَى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره، لبلوغ الغرض في إبانة حاله، بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضـاره ولا إدناؤه، كـالفاني، وحـال اجتماع الضـدين على المحل الواحد، كيف يكون ذلـك لو جـاز، وغير هـذا مما هـو جارٍ في الاستحـالة والبعـد مجراه، فكـأنهم جاءوا إلى واحـد من بني آدم، فـأومـأوا إليـه، وقـالـوا: إنسـان، إنسان، إنسـان، فـأي وقت سمـع هذا اللفظ علم أن المـراد بـه هـذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا يـد،

= الـذهب، ومعادن الجـوهـر، طبـع دار الأنـدلس للطبـاعـة والنشر، بيـروت ــ لبنـان، بإشراف يوسف أسعد داغر سنة ١٩٦٥ ــ الجزء الثاني ص ١٠٩، ١١٠.

والثابت أن «بابل» ليست مشتقة من «بلبلة الألسن» ولكن كـان اسمها «بـاب، إل» أي «بـاب الله»، كما أن بلدة «أربـل» أو «أربيـل» في شمـال العـراق، كـان أصـل اسمهـا «أربـع، إل» أي الآلهة الأربعة، وأمـا كون اللغـة الأولى للبشر، سريـانية، أو عـربية، أو عبرية، أو فارسية، أو مصرية فرعونية، أو يونـانية فـريجية، فقـد نبـع ذلك من نعـرة لغوية أو عنصرية أو حضارية، وكان هو الصدى الفلكلوري لهذه النعرة.

عـين، رأس، قدم، أو نحـو ذلك، فمتى سُمِعت اللفـظة من هذا عـرف مَعْنيُّها وهلم جراً فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف.

ثم لك بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الـذي اسمه إنسان فليجعل مكانه «مَـرْد» (بالفـارسية)، والـذي اسمه رأس فليجعـل مكانـه «سَرْ» وعلى هذا بقية الكلام. وكذلك لو بدأت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة: من الـرومية، والـزنجية، وغيـرهما. على هذا ما نشاهـده الآن من اختراعـات الصُّنَّاع لآلات صنـائعهم من الأسماء: كالنجار والصائغ، والحائك، والبناء وكذلك الملاح. قالوا: ولكن لا بـد لأولها من أن يكون متواضعاً بالمشاهدة والإيماء. قالوا: والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحداً من عباده على شيء؛ إذ قـد ثبت أن المواضعـة لا بد معهـا من إيماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه، والمشار نحوه، والقديم سبحانه لا جـارحة له، فيصح الإيماء والإشارة بها منه، فبطل عندهم أن تصحَّ المواضعـة على اللغـة منه تقدست أسماؤه؛ قالوا: ولكن يجوز أن ينقل الله اللغة التي قد وقع التواضع بين عباده عليهـا، بأن يقـول: الذي كنتم تعبـرون عنه بكـذا عبروا عنـه بكذا، والذي كنتم تسمونه كذا ينبغي أن تسموه كذا؛ وجواز هذا منه سبحانـه كجوازه من عباده ومن هذا الذي في الأصوات ما يتعاطاه الناس الآن من مخالفة الأشكال في حروف المعجم كالصورة التي توضـع للمعمِّيات والتـراجم. وعلى ذلـك أيضاً اختلفت أقلام ذوي اللغات، كما اختلفت أنفس الأصوات المـرتبة عـلى مذاهبهم في المواضعات، وهذا قول من الظهور على ما تراه إلَّا أنني سألت يوماً بعض أهله فقلت: تنكـر أن تصح المـواضعة من الله تعـالى؟ وإن لم يكن ذا جـارحـة، بـأن يُحـدث في جسم من الأجسـام، خشبـةٍ أو غيـرهـا، إقبـالاً عـلى شخص من الأشخـاص، وتحريكـاً لها نحـوه، ويُسْمِع في نفس تحـريك الخشبـة نحـو ذلـك الصوت صوتـاً يضعه اسـماً له، ويعيـد حركـة تلك الخشبة نحـو ذلك الشخص دَفَعَات، مع أنه عز اسمـه قادر عـلى أن يُقنع في تعـريفه ذلـك بالمـرة الواحـدة، فتقوم الخشبة في هذا الإيماء، وهذه الإشارة، مقام جارحة ابن آدم في الإشارة بها

في موضعه؛ وكما أن الإنسان أيضاً قد يجوز إذا أراد االمواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه، فيقيمها في ذلك مقام يده لو أراد الإيماء بها نحوه؟ فلم يجب عن هذا بأكثر من الاعتراف بوجوبه، ولم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكيه عنه؛ وهو عندي وعلى ما تراه الآن لازم لمن قال بامتناع مواضعة القديم تعالى لغة مرتجلة غير ناقلة لسان إلى لسان، فاعرف ذلك.

وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالحٌ، ومذهبٌ متقبَّلٌ.

واعلم فيما بعد، أني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغوُّل على فكري. وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة، ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوَة السِّحر. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده، وبُعد مراميه وآماده، صحة ما وفِّقوا لتقديمه منه، ولُطْفَ ما أسعدوا به، وفُرِقَ لهم عنه. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه، وأنها وحي.

ثم أقول في ضد هذا: كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق مِنْ قبلنا ــ وإن بعد مداه عنا ــ من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر وأجرأ جناناً. فأقف بين تين الخَلَّتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفىء مكثوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلِّق الكفَّ بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها، قلنا به، وبالله التوفيق»[1].

(١) الخصائص لابن جني ١ / ٤١ ــ ٤٧. والقديم في كلامه صفة الله سبحانه لأنه لا أول له.

وكلام ابن جني يحتاج منا إلى وقفة نستجلي فيها معـانيه، ونتبـين أهدافـه ومراميه.

بـدأ بتلخيص وجهتي النظر المتعـارضتين، التي تقـول إحداهمـا: إن اللغة وحي وتوقيف، وقد نبهنا أنه أضاف إليها شيئاً جديداً وهو أن إيحاء اللغة إلى آدم كان إيحاءً بجميـع الألسنة واللغات معاً. وعزونا ذلك إلى عـدم تعويـل المسلمين عـلى أسطورة بـرج بابـل الذي تهـدم على سـاكنيه فهـربـوا مـذعـورين وتبلبلت ألسنتهم، أو في زعم آخــر أن الله بلبـل ألسنتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضــاً، فلا يعودوا إلى الاتفاق على تحدي الإله.

أما وجهة النظر الثانية التي تقول بـالاصطلاح، وأن اللغـة نتيجـة لاتفـاق بين أفراد المجتمع على وسيلة التفاهم، فقد تشعبت عنده إلى أكثر من احتمـال، فمن الممكن أن يكون التواضع قد تم بـطريقة اتفـاقية تحكُّـميَّـة، لا تستند عنـد المتكلمـين إلى شيء غـير تخصيص رمـز صـوتي مسمـوع للمعنى المـراد، دون أن تكون هناك علاقة طبيعيـة أو ارتباط عضـوي بين اللفظ والمعنى، أي بـين الاسم ومسمـاه، وذكر في ذلـك شيئاً عن اختـلاف الألفـاظ للمعنى الـواحـد في لغـات متعددة كالعربية والفارسية والرومية والـزنجية. كـما أنه لم يغفـل التنويـه بالمـظهر المتطور للغة، وارتبـاطه بتـطور المجتمع، وأن هذا المجتمع يصنـع بمحض إرادته ألفاظاً جديدة للمعاني الجديدة وهو ما نص عليه بقوله: «وعـلى هذا مـا نشاهـده الآن من اختراعات الصنـاع لآلات صنائعهم من الأسـماء». بل يـذهـب إلى أبعد من هذا، وهو أن الاصطلاح المقصود به الإلغاز والتعمية وإخفاء المعاني على غـير العارفين بمفاتيـح هذه المعميات جائز في كل آن بين البشر.. ثم يزيد على ذلـك فيقول: إن ذوق الناس في صنـع لغـاتها دون تـدخل من وحي أو إلهـام لا يشبهه إلَّا الاختلاف في طريقتهم في الكتـابة فكـل أمة لهـا خط يميزهـا، يقول: «وعـلى ذلك أيضاً اختلفت أقلام ذوي اللغات كما اختلفت أنفس الأصوات المـرتبة عـلى مذاهبهم في المواضعات...».

ينتقل ابن جني بعد ذلك إلى احتمال آخر في إمكان وضع البشر للغة؛ وهو أن يكونوا قد اشتقوها من أصوات الطبيعة وأصوات الحيوان، وهي نظرية قال بها كثير من المحدثين الأوروبيين أيضاً وسبقت الإشارة إليها.

ولكن ابن جني يقف أمام سحر اللغة العربية مبهوراً، يتأمل دقتها وإرهافها ورقتها، وإذا به بعد أن كان قد اطمأن إلى القول بأن اللغة اصطلاح من البشر يرجع متردداً، ففي وجدانه أنه لا يمكن أن تكون هذه اللغة العربية المعجزة وليد اصطلاح عشوائي من جماعة من الناس، ومحال أن تكون مأخوذة من أصوات الريح والرعد والماء والحمار والغراب والفرس والظبي، وإذا به يميل من جديد في نهاية جولته إلى أنها وحي من الله تعالى، وكأنه هذه المرة يخصص ما عممه في البداية، إذ قال أولاً: إن الله أوحى إلى آدم بجميع اللغات في آن واحد، وهو هنا يشعرنا بأنه إن كان الله قد أوحى بلغة إلى آدم أبي البشر، فهي اللغة العربية وحدها الجديرة بأن تنزل من السماء دون غيرها من اللغات. وفجأة ترى العالم النزيه الذي لا يريد أن ينساق مع حبه للغة العربية، وافتتانه بجمالها، يعود فيتردد في أنها موحى بها، وأنه من الممكن أن يكون الأسلاف الأُوَل الذين وضعوها أكمل منا وأقوى من حيث صفاء السليقة اللغوية، وأن صفاء لغتهم نابع من صفاء طباعهم؛ يقول: «لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق مِنْ قبلنا ــ وإن بعد مداه عنا ــ من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر، وأجرأ جناناً». ويختار في النهاية التوقف بين وجهتي النظر لا يختار منهما، ولا يرجح إحداهما، بل يقول: فأقف بين تين الخلتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفىء مكثوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد. . . » إلخ.

ومهما يكن من شيء، فإن هذا التردُّد من ابن جني ليس إلَّا تشريفاً لعلامة العربية القديم؛ ذلك أن واحداً من جهابذة الباحثين المعاصرين[1]، وهو الأستاذ

(١) Préhistoir du langage, G. Révéez, Professeur à l'université d'Amesterdam, origine et traduction de L. homburger. Payot — Paris 1950.

ج ريفيز، أستاذ علم اللغة في جامعة أمستردام، قد خصص لهذا الموضوع كتاباً كاملاً سماه (ما قبل تاريخ الكلام) عرض فيه جميع الاحتمالات ووجهات النظر التي قيلت وما تزال تقال حول نشأة اللغة، وألم فيه بمذاهب العلماء القدامى والمحدثين، ولكنه لم يستطع في النهاية إلاَّ أن يقرر أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنسانية في وضعها الذي نعرفه، أما أصلها الأول فهو يتوقف فيه ويتردد كما توقف ابن جني من قبل. ومع ذلك فإنه يصدر كتابه بقولة منقولة عن المفكر الفرنسي إرنست رينان، يتبيَّن منها أنه أشد ميلاً إلى الأخذ بنظرية الاصطلاح الاجتماعي وتفضيلها على القول بالوحي والإلهام من الله؛ تقول هذه السطور: «لو أن الكلام كان قد منح للإنسان كهبة سماوية، خُلقت بدونه مستقلةً عنه، لما كان من حق العلم ولا في إمكانه أن يبحث عن أصلها. أمَّا إنْ كان الكلام من ابتكار الطبيعة الإنسانية، وإن كان يمثل خطوة وتطوراً منتظماً فإنه من الممكن أن نصل باستنتاجات مشروعة إلى مهد هذا الكلام. إرنست رينان؛ حول أصل الكلام، سنة ١٨٥٩م» . والمسألة كما نرى كانت على عهد ابن جني وكانت في أوروبا في القرن التاسع عشر في أيام إرنست رينان، وفي وقتنا الحالي عند اللغويين المعاصرين موضع احتمالات وافتراضات واستنتاجات واجتهادات لا ترتفع إلى درجة اليقين ولا تسلم من الشكوك والطعون والاعتراضات.

وإذا كان ابن جني قد بقي في شكه وتردده، فإن عالماً آخر من علماء العربية في القرن الرابع الهجري، هو أبو الحسين أحمد بن فارس، لا يتردد وإنما يقول بنظرية التوقيف والإلهام من الله تعالى فيبدأ ذلك نصاً: «أقول: إن لغة العرب توقيف»[1] ونلاحظ أنه قصر الجدارة بالوحي من الله تعالى على لغة العرب وحدها عندما قال (لغة العرب) ثم ينبري لدحض اعتراضات المخالفين،

---

(١) الصاحبي، في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسين أحمد بن فارس، حققه وقدم له الدكتور مصطفى الشويمي ــ طبع مؤسسة بدران ــ بيروت سنة ١٩٦٣م، ص ٣١ وما بعدها.

فيبدأ ذلك بالرد على سؤال عن المترادف في اللغة، أي الألفاظ المتعـددة التي تدل على مدلول واحد، أهي كلها من عند الله فيقول: «فإن قال: أفتقولون في قولنـا سيف وحسام وعضب إلى غير ذلك من أوصافه إنه تـوقيف، حتى لا يكون شيء منه مصطلحاً عليه؟ قيل له: كذلك نقـول، والدليـل على صحـة ما نـذهب إليه إجمـاع العلماء على الاحتجـاج بلغة القـوم فيما يختلفـون فيه أو يتفقـون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم. ولو كـانت اللغة مـواضعة واصـطلاحاً لم يكن أولئـك في الاحتجـاج بهم بأولى منـا في الاحتجـاج بنـا، لـو اصـطلحنـا عـلى لغـة اليـوم، ولا فـرق»[1]. وواضـح أن ابن فـارس في تعليله هـذا يتنـاسى أن كـل لغــة في مسيـرتها الـطويلة عبر الأجيـال، تمر بحقب متفـاوتـة في النقص والكمـال، وفي الصحة والاعتلال، وفي النقاء والتلوث، بحيث يضطر الباحثون إلى اختيـار فترة من عمـرها، تكـون فيها في أوج كمـالها وصحتهـا ونقائهـا، فيجعلون من ذلك حجة في اللغة، على ضوئه تقيد قواعدهـا، وتسجل ألفـاظها، وتحـدد معانيهـا، وهو ما حدث في اللغة العربية.

ثم نرى ابن فارس بعـد ذلك يـزعم «أنه لم يبلغنـا أن قومـاً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسميـة شيء من الأشياء مصـطلحين عليـه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم»[2]. وفي هذا الكـلام تعسف ظاهر، فـالاصطلاح كـان يحدث في هـذه الأزمنـة، وقـد ذكـر علماء اللغـة أن الإسـلام اصطلح على ألفاظ جديدة، كالمسجد والمئذنة والمنبر والمصحف، فضلاً عما أشـار إليه ابن جني من اصطلاحات أصحاب الصنائع فيما يختص بآلاتهم وصنـاعاتهم. وهناك شيء جديد وطريف، يأتي به ابن فارس حين ينفي أن تكون اللغة العـربية قد أوحى بها جملة واحدة فيقول: «ولعل ظاناً يظن أن اللغة، التي دللنا عـلى أنها توقيف، إنما جاءت جملةً واحدةً وفي زمانٍ واحدٍ. وليس الأمر كذا، بل وقف الله

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٢ ــ ٣٣.
(٢) نفس المرجع، ص ٣٣.

جل وعز آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله. ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم، نبياً نبياً، ما شاء الله أن يعلمه، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ، فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله، تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قرّ الأمر قراره، فلا نعلم لغة من بعده حدثت[1]. والجديد الطريف هنا أن ابن فارس يكاد يقول لنا إن الله لم يعلم آدم الأسماء كلها، بل وزع ذلك عليه وعلى من بعده. ثم اشترط هذا العالِم شرطاً جديداً أيضاً وهو أن اللغة أوحيت مثل الأديان والعقائد والشرائع وأنزلت على الأنبياء فقط، والأنبياء من العرب وحدهم، حتى إذا تمت ببعثة نبينا محمد ﷺ، وقفت اللغة عند هذا الحد، لا يحدث فيها جديد، وهو قول لا يشفع فيه نظر صحيح، ولا تتبع مكين لتطور اللغة، ولا يشارك ابن فارس فيه أحد من الذين يعتد بهم من اللغويين، وكأن هذا العالم الجليل قد بهرته الخصائص العظيمة التي تميز اللغة العربية، واستولى عليه جمال أسلوب القرآن، فأحس بما أحس به ابن جني، ولكنه انساق بكل حماسته وراء إحساسه هذا، على حين توقف ابن جني، وأطال النظر، ثمَّ فضَّل أن يعلن عجزه عن الاختيار والترجيح.

وقد كرَّس جلال الدين السيوطي، في أول كتابه (المزهر)، في علوم اللغة وأنواعها، فصلاً كاملاً جمع فيه كافة الأقوال التي ترددت بين علماء المسلمين حول هذه المشكلة؛ فلخص كلام ابن فارس، وكلام المفسرين الأقدمين، وألمّ بمقتطفات مما قال ابن جني، ثم واصل جولته فلخص رأي الإمام فخر الدين الرازي في كتاب (المحصول) وتاج الدين الأرموي في (الحاصل)، وسراج الدين الأرموي في (التحصيل) قائلاً: «الألفاظ إمَّا أن تدلّ على المعاني بذواتها، أو بوضع الله إياها، أو بوضع الناس، أو بكون البعض بوضع الله والباقي بوضع الناس. والأول مذهب عباد بن سليمان، والثاني مذهب الشيخ أبي الحسن

(١) نفس الموضع.

الأشعري وابن فُورَك، والثالث مذهب أبـي هاشم، وأما الرابـع : فإمَّا أن يكون الابتداء من الناس والتتمة من الله، وهو مذهب قوم، أو الابتداء من الله والتتمة من الناس، وهو مذهب الأستاذ أبـي إسحـق الإسفرائيني. والمحققون متـوقفون في الكـل إلاَّ في مذهب عبـاد؛ ودليل فسـاده أن اللفظ لو دل بـالذات لفهم كـل واحد منهم كل اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازم باطـل فالملزوم كذلك. واحتج عباد بأنه لولا الدلالـة الذاتيـة لكان وضـع لفظ من بين الألفـاظ بإزاء معنى من بين المعاني ترجيحاً بلا مرجح، وهو محال. وجوابه أن الـواضع إن كان هو الله فتخصيصه الألفاظ بالمعاني كتخصيص العالَم بالإيجاد في وقت من بين سائر الأوقات. وإن كان هو الناس فلعله لتعيُّن الخُطْـران بـالبال. ودليـل إمكان التوقيف احتمال خلق الله تعـالى الألفاظ بـإزاء المعاني، وخلق علوم ضـرورية في ناسٍ بأنَّ تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني. ودليل إمكان الاصطلاح أن يتولى واحد ــ أو جمع ــ وضع الألفاظ لمعـانٍ، ثم يفهّموهـا لغيرهم بـالإشارة، كحـال الوالدات مع أطفالهن. وهذان الدليلان هما دليلا إمكان التوزيـع»[1].

والجديد فيما نقله السيوطي هنا هو ما يسميه إمكـان التوزيـع، أي الـرأي الرابـع الذي يجعل بداية اللغة تقـوم على دعـامتين: القـدرة الإلهية من نـاحية، والنشاط البشري من ناحية أخرى، والواقـع أن هذا الـرأي هو أقـرب الآراء إلى النظريات التي أسفرت عنها التجارب الطبية في العصر الحديث، فقـد تبين منهـا أن في جسم الإنسـان، وفي الخلية المخيـة على وجـه التحديـد، مـركـزاً للكـلام هو الذي أشـرنا إليـه آنفاً، وكـان من أوائل القـائلين بذلـك في أخريـات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الطبيب الجرَّاح الفرنسي الـدكتور «بـروكا»، عندما بحث في أمراض فقدان النطق فخلص من ذلك إلى أن في خلقـة الإنسان جهـازاً طبيعياً لصنـع الكلام، وللتمكن من عمـل لغة صـوتية يتفـاهم بهـا مـع المجتمـع المحيط به. وعـلى ذلك يكـون التوفيق هـو تمكين الخـالق الإنسان، من

---

(١) المـزهر، في علوم اللغـة وأنواعهـا؛ للعلاَّمـة جلال الـدين السيوطي، طبـع محمد سعيد الرافعي، صاحب مكتبة الأزهرية ــ القاهرة ١٣٢٥هـ، ص ١٠ وما بعدها.

التعبير بصوته عما يجول في نفسه، كما في قوله تعالى ﴿الرحمن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾.

ويقول اللغوي الفرنسي المعاصر الأستاذ فندريس: إن بروكا لم يستطع أن يعطي في وقته إلاّ فكرة تقريبية خشنة، يريد بها أن يعلمنا على الخصوص أنه في مخ الإنسان توجد مناطق متميزة تقابل مناطق متميزة في الفكر الإنساني نفسه، وغلطة بروكا أنه لم يدرك الصلات بين اللغة والفكر؛ إذ من الباطل أن نتصور أن المخ البشري مركب على شكل أبواب النحو ومقسم إلى خانات على عدد أقسام الكلام. فمجموع الواقع اللغوي للإنسان موزع في مخه بطريقة أكثر حرية واتساعاً مما افترضه بروكا. فوراء الإصابات بفقدان القوة الناطقة، وهي الإصابات التي بنى عليها الدكتور بروكا نظريته، يحتمل وجود تلف موضعي عادةً في مكان ما من المخ. ولكن فقدان القدرة على التعبير وعلى الوعي لما يقال توجب القول بانهيار عقلي عام. ولولا ذلك لكان من الممكن طبياً أن تأخذ المراكز السليمة في المخ مسؤولية أداء وظيفة المركز المصاب كلياً أو جزئياً كما يجري عادةً في الطبيعة[1] ولسنا نريد أن نخوض فيما لا طاقة لنا به من أسرار الطب وتشريح المخ بالذات، ولكننا نكتفي بترديد رأي الأستاذ فندريس إذ يقول: إن فكرة وجود مركز لصنع الكلام واستقباله في المخ تعتبر على وجه العموم ثابتة لا جدال فيها، ولكن تحديد مكان هذا المركز بالضبط يبدو بحثاً قابلاً للجدل يتطلب تجارب أخرى[2]. فالتوقيف إذن هو تجهيز الإنسان وإعداده للتفاهم باللغة، وهو تجهيز وإعداد قام به الخالق. أما استعمال الجهاز فقد تُرك لحرية المخلوقات فظهرت اللغة بحسب المجتمعات ، مظهراً من النشاط الفكري الإرادي للبشر، يصنعونها ويستعملونها ويطورونها حسب حاجاتهم في مختلف الأزمنة والأمكنة.

---

(١) Vendryès; le langage; Paris 1021 p. 15 SS.

(٢) ما تزال التجارب المشار إليها تجري في الأوساط الطبية إلى الآن:

Paul chauchard: Le CERVEAU HUMAIN; P. U. F. Paris, 1980.

وقد بدا التوقيف بمعنى مجيء اللغة بألفاظها وقواعدها وكل ما يتعلق بها من الخالق إلى البشر أمراً غير معقول ولا مقبول في نظر كثير من علماء العرب، فتحمسوا للقول بالاصطلاح، قال السيوطي: «واحتج القائلون بالاصطلاح بوجهين، أحدهما: لو كانت اللغات توقيفية لتقدمت واسطة البعثة على التوقيف، والتقدم باطل. وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية فلا بد من واسطة بين الله والبشر، وهو النبي لاستحالة خطاب الله تعالى مع كل أحد. وبيان بطلان التقدم قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلسان قومه**﴾ وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة. والثاني: لو كانت اللغات توقيفية فذلك إمَّا بأن يخلق الله تعالى علماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا، أو في غير العاقل، أو بِأَلاَّ يخلق علماً أصلاً. والأول باطل وإلاَّ لكان العاقل عالِماً باللَّه بالضرورة، لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكون الله وضع كذا وكذا، كان علمه باللَّهِ ضرورياً، ولو كان كذلك لبطل التكليف. والثاني باطل؛ لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاء تمام هذه الألفاظ. والثالث باطل؛ لأن العلم بها إذا لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيف آخر، ولزم التسلسل[1].

وواضح من هذه الجولة من النقاش أن البحث في أصل اللغة كان، كما أشرنا منذ البداية، من مقدمات البحث في أصول الدين، كما كان عند القدامى من الفلاسفة من مقدمات البحث في المنطق والفلسفة، ويزداد ذلك وضوحاً في «المزهر» حينما ينقل عن أبي الفتح بن برهان في كتاب «الوصول إلى الأصول» قوله: «اختلف العلماء في اللغة هل تثبت توقيفاً أو اصطلاحاً، فذهبت المعتزلة إلى أن اللغات بأسرها تثبت اصطلاحاً، وذهبت طائفة إلى أنها تثبت توقيفاً، وزعم الأستاذ أبو إسحق الإسفرائيني أن القَدْر الذي يدعو به الإنسان غيره إلى التواضع يثبت توقيفاً، وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكل واحد من الطرفين. وقال القاضي أبوبكر[2]: يجوز أن يثبت توقيفاً، ويجوز أن يثبت

(١) المزهر، الموضع السابق.

(٢) هو القاضي أبو بكر الباقلاني صاحب إعجاز القرآن.

اصطلاحاً، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفاً وبعضه اصطلاحاً، والكل ممكن. وعمدة القاضي أن الممكن هو الذي لو قُدِّر موجوداً لم يعرض لوجوده محال، ويعلم أن هذه الوجوه لو قُدرت لم يعرض من وجودها محال، فوجب قطع القول بإمكانها. وعمدة المعتزلة أن اللغات لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية، ولهذا المعنى يجوز اختلافها، ولو تثبت توقيفاً من جهة الله تعالى لكان ينبغي أن يخلق الله العلم بالصيغة، ثم يخلق لنا العلم بجعل الصيغة دليلاً على ذلك المدلول، ولو خلق لنا العلم بصفاته لجاز أن يخلق لنا العلم بذاته، ولو خلق لنا العلم بذاته بطل التكليف، وبطلت المحبة[1].

ولسنا نريد الإطالة بحشد كل النصوص التي ذكرها السيوطي، وإنما جئنا منها بما نشعر أن فيه جديداً يضاف إلى ما قاله القدامى كابن جني وابن فارس. فلا نريد إذن إلاَّ أن نشير إلى أنه حتى في الآية الكريمة **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾** يذكر أنه لا توجد فيها حجة قاطعة على التوقيف، ثم يسوق نصوصاً من إمام الحرمين في كتابه «البرهان» والغزالي في كتابه «المنخول»، وابن الحاجب في «المختصر» والزركشي في «البحر»، يبدو منها جميعاً توقفهم وعجزهم عن الميل إلى أي من الجهتين.

ولا نريد أن نترك هذا النقاش قبل أن نذكر من الناحية الفلسفية أنّ المعتزلة كانوا يقولون بالاصطلاح، وبنوا على ذلك القول بأن القرآن مخلوق، وليس قديماً بقدم الله عز وجل، فالمعاني وحدها كانت قائمة في علمه تعالى، ولكنه خلق لها الألفاظ عندما أوحى بها إلى النبي ﷺ، وهذه الألفاظ في الأصل من صنع العرب، تحقيقاً للمبدأ الذي تقول به الآية الكريمة **﴿وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلسان قومه ليبيِّن لهم﴾** أما معظم الذين فهموا من كون القرآن كلام الله أنه صفة من صفاته، وبالتالي يجب أن يكون أزلياً أبدياً سرمدياً كذاته، فقد اضطروا إلى القول بأن صانع اللغة هو الله لأنه صنع بها كلامه أولاً، وبالتالي قالوا بأن

---

(١) نفس الباب من كتاب المزهر للسيوطي، ولعل «المحبة» تحريف للفظة المحنة، لأن التكليف خاص بالدنيا وهي دار امتحان لخلق الله تعالى.

القرآن قديم غير مخلوق، وبأن اللغة ظهرت بين الناس بوحي من الله تعالى، وذلك يفسر لنا قول بعضهم ـ ومنهم ابن فارس ـ إن كل اللغات يمكن أن تكون من صنع البشر باستثناء اللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم. وينبغي ونحن بهذا الصدد أن نقول: إن اللغة هي تراث اجتماعي، ووسيلة من وسائل الإمتاع الفني، وبقية من بقايا فكر الأسلاف الأُوَل، تكتسب في نظر أبنائها قدسية معينة. وقد ادعى اليهود أن لغة الرب ولغة الملائكة هي العبرية، وأن أول شيء كتب على صفحة السماء السابعة بيد الله هو حروف هذه اللغة، كما ادعى الفرس أن لغتهم ستكون لغة التخاطب في الجنة، وقبلهم قال السريان أن لغة أهل الجنة ولغة الحساب في الآخرة هي السريانية، وكان الرومان يسمون كل مَنْ لا يحسن التفاهم باللاتينية بربرياً، ويعنون بذلك أنه من الهمج، ومن الأجناس السفلى من البشر. فالتعصب اللغوي ظاهرة طبيعية مع طفولة الأمم، وهي التي تدعو بعضهم إلى ربطها باعتبارات ميتافيزيقية لا دخل فيها للعلم التجريبي.

وخلاصة رأينا الذي نتفق فيه مع تعريف سابير، هو ما قلناه: من أن اللغة اصطلاحية يخترعها المجتمع طبقاً لقدرة مخلوقة في الأعضاء والأعصاب، تميز الإنسان في ذلك عن سائر الحيوان. هي إذن نشاط فكري وظاهرة اجتماعية تلازم البشر، وتحيا حياتهم، أي أنها تسير على سنة التطور الذي يعتري الناس، فتتميز العصور المختلفة بالازدهار الحضاري أو التخلف، وتكون اللغة دائماً مرآة لهذا الرفع والخفض، مما أوجب أن يقوم ـ إلى جانب العلوم اللغوية القانونية، التي تثبّت اللغة على وضع شبه نهائي؛ بل تدعي أنه نهائي ـ أبحاث تعتبر حياة اللغة وتطورها من أهم شعب الدراسات الإنسانية، وهذه الأبحاث هي التي تندرج تحت «علم اللغة» و «فقه اللغة».

□ □ □

الفَصْل الرَّابِع

الكَلَامُ والفِكْر

تحديد الروابط بين الكلام المسموع وبين الفكرة الهائمة في آفاق النفس البشرية، ما يزال يعتبر من أشد مباحث علم اللغة تعقيداً، وأكثرها طرافة في آنٍ واحد. وقد رأينا أن اللغة إن هي إلا رموز صائتة يحدد بها الإنسان تجاربه الحسية أو المعنوية، بحيث لو نظرنا إلى ذلك من زاوية الألفاظ المفردة فقط فإننا نجد أن كلاً منها هو مجرد علامة مميزة لمعنى مّا يريده المتكلم بهذه اللفظة. وهو في ابتداع هذه الألفاظ ينوعها بناءً على ذلك التمييز بين الأشياء والظواهر، ثم يختزنها لتكون في النهاية مؤنته من المعرفة، وعدَّته لتبادل ما يعرف مع غيره من أبناء مجتمعه. فالذي يدفعه إلى ذلك في الحقيقة هو ضرورة لا مفر منها للمعيشة في مجتمع هو محتاج أن يتبادل معه الأخذ والعطاء في الماديات والمعنويات جميعاً. وهكذا تصبح القيمة الحقيقية للكلمة بمقدار ما لدلالتهامن وضوح وشيوع في ذلك المجتمع، ومن مرونة في الإحاطة بأكبر عدد من الصور الجزئية والتفاصيل الفرعية التي تدخل في نطاق هذه الدلالة. ومن وجهة النظر هذه يتبين أن اللفظة في الكلام تشبه إلى حد كبير ورقة النقد في الاقتصاد، لا بد أن تغطيها قيمة اقتصادية حقيقية من الذهب أو غيره من القيم المصطلح عليها، وبدون هذا الغطاء لا تخرج ورقة النقد عن أن تكون قصاصة ورق لا حول لها ولا قوة. ولتقريب ذلك في ميدان اللغة نتصور مجموعتين من الناس وجدتا في صعيد واحد ولكل مجموعة لغة لا تفهمها الأخرى، ثم راحت كل مجموعة تتكلم لغتها. فالألفاظ المسموعة تتخذ عندئذ قيمتها في المجموعة التي تتفاهم بها فقط، بينما تظل بالنسبة للأخرى مجرد ضوضاء لا تولّد في العقل شيئاً.

فالمحتوى الفكري لألفاظ اللغة يظل ملكاً خاصاً لمن يستعملون هذه اللغة فقط، وهذا يختلف عن الفكر المطلق المستقل عن اللفظ فهو ملك للإنسانية جميعاً. وفي المجتمع الذي يصطلح على لفظة لمعنى، تزداد قيمة اللفظة كلما كانت دلالتها عامة شاملة ــ كما قلنا ــ واسعة التداول في هذا المجتمع. فالكلمة التي تدل على معناها دلالة عينية ــ أي تدل على شيء واحد بذاته ــ كلمة مكتوب لها أن تحمل قيمة فكرية محدودة جداً. ولنأخذ مثلاً كلمة ككلمة (المعبد) فهي رمز لمعنى عام هو المكان الذي تقام فيه الطقوس والشعائر الدينية من أي نوع كان، يدخل تحتها المسجد الإسلامي والكنيسة المسيحية والهيكل اليهودي وبيت النار المجوسي، وما شئنا من المحاريب والصروح الدينية المختلفة التي تعبد الأصنام أو الشياطين أو غيرها. لكن إذا نطقنا بكلمة مثل (الكعبة) فإنها لا تدل إلَّا على بناء بعينه مقدس عند المسلمين وموجود في مكة، وإذا سمي غير هذا المكان كعبة فلا يكون ذلك إلَّا مجازاً. وكذلك الأمر إذا نطقت بكلمة (البيعة)، فبالرغم من أن دلالتها ليست عينية كالكعبة، إلَّا أنها أضيق نطاقاً بكثير جداً من كلمة المعبد، فهي لا تدل إلَّا على المعبد الصغير للمسيحيين وحدهم ، هو نوع من الكنيسة المحلية التي لا تتسع لجمهور كبير من المصلين، وقد توسَّع فيها العرب فأطلقوها على المعبد اليهودي الصغير أيضاً، ويقول الفيروزأبادي «في القاموس المحيط»: «والبيعة بالكسر متعبَّد النصارى» وقد أضاف السيد مرتضى الزبيدي في «تاج العروس»: «وقيل كنيسة اليهود».

فالأصل في وضع الألفاظ إذن أن تكون كل منها علامة صوتية دالة على «معقول» أو «متصور» يندرج فيه ما لا يتناهى من المحسوسات أو الأعيان. وكنا قد ضربنا لذلك مثلاً كلمة «رداء» وهو ما يصطنعه الإنسان ليستر بدنه، مهما اختلفت ذلك طولاً واتساعاً، ومهما تباينت ألوانه وطريقة تفصيله والمادة التي هو متخذ منها. . . إلخ، يستوي في ذلك الجلباب والعباءة والمعطف والشملة والجبة والسترة والقميص وغيرها. ولكي تكون الكلمة بهذه المثابة من المرونة،

ينبغي أن تكون التجربة الحسية التي استمدت منها قيمتها وكيانها بوصفها وحدة لغوية، تجربة متكررة على عينات كثيرة فيها من التشابه ما يكفي لجمعها تحت رمز واحد، ومع ذلك يظل الاختلاف في الجزئيات والتفاصيل قائماً وممكناً في الأفهام، فهو الذي يضمن للكلمة مرونتها في الدلالة وصلاحيتها للإحاطة بقدر ما من المعرفة الإنسانية العامة. وبهذه الطريقة فحسب يصبح التفاهم ممكناً بين الناس بعضهم ببعض. وإذا كانت مجموعة ألفاظ لغة من اللغات هي الرموز الاصطلاحية الدالة على المتصورات المعروفة لدى أهل تلك اللغة، فإن اللغة نفسها ـ أي الكلام المركب المفيد ـ هو التصوير الشفوي للنسب القائمة بين هذه المتصورات بعضها ببعض.

وبالرغم مما يبدو على هذا الكلام من منطقية، فقد تناوله كثير من العلماء المحدثين بالتحليل والنقد والتكميل، ونذكر في مقدمتهم اللغوي الروسي المعاصر ليف سمينوفيتش فيجوتسكي في مجموع من بحوثه يحتوي على سبعة أبحاث في كتاب واحد عنوانه «الفكر واللغة»، ترجم إلى اللغة الإنجليزية ونشر في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٢م[١]. وأيضاً مجموعة مقالات للغوي الأمريكي بنيامين لي وورف بعنوان اللغة والفكر والحقيقة ظهر سنة ١٩٥٦م[٢]. يضاف إلى هذا أبحاث حديثة أخرى أهمها البحث الطويل القيم الذي شق الطريق لمئات الباحثين من ورائه وهو كتاب «الفكر واللغة» الذي نشره في أوائل هذا القرن اللغوي الكبير فرديناند برينو[٣]، وكذلك كتاب الفيلسوف البريطاني

---

(١) Lev Semenovich Vygotsky; Thought and Language; Translated by: Eugenia Hanfmann and Gertrude Vakar, The M. I. T. press; Massachusetts Institute of Technology, Gambridge, Massachusetts, U. S. A. 1966.

(٢) Benjamin Lee Whorf, Language Thought and Reality, Selected Writings, Edited and with introduction by: B. Carroll, M. I. T. Press, 1966

(٣) Brunot (Ferdinand), Histoire de la Langue Française. — 5 Volumes. La Pensée et la Langue — I Volume.

بـرترانـد راسل «دراسـة في المعنى والحق»[١]، وأخيراً كتـاب العلامـة الإنجليزي سيمون بوتر «اللغة في العالم الحديث»[٢].

استـوقفنا في المقـال السابـع من كتـاب العالم الـروسي فيجـوتسكي الـذي عنوانه «الفكرة والكلمة» قوله إننا في دراسة الصلة بـين التفكير والكلام لا نجـد أي ارتباط نوعي بـين أصول الفكر وأصول الألفاظ لدرجة أنه تبـين لنا أن هـذا الارتباط في آذان المتكلمين إنما كان نتيجة التطور التـاريخي للوعي الإنسـاني[٣]. كذلك استوقفنا مقاله الخامس الذي عنوانه «دراسـة تجريـبية لتكوُّن الـدلالات» (أي المتصورات اللغوية). وفيه ينقد الطريق القديمة لدراسة الدلالات اللغويـة، ويقول: إنه إلـى فترة قريبة، كان الـدارس لتكون الـدلالة أو للتصـور اللغوي، يشعر بعقبة كئـود هي نقصان المنهـج التجريـبى الـذي قد يتـيـح له أن يـلاحظ التحركات الباطنية في تكوُّن الدلالـة اللغويـة؛ ذلك أن المنـاهـج التقليديـة التي تهتم بـدراسـة الـدلالات تنقسم إلى شعبتـين: الأولى منهـا تبـدو في أجـلى مظاهرها فيما يسمى بطريقة التعريف، وهي طريقة تطبق تجـريـبياً عـلى الأطفال بسؤالهم عن معنى بعض ما يلفظون به، وفي هذه الـطريقة عيبـان هامـان يحولان دون تعميق هـذا النـوع من الـدراسـة: العيب الأول أن هـذه الـطريقـة تتنـاول حصيلة منتهيـة من الدلالـة، ولا تهتم بالتحـولات والتطورات التي تعـرضت لها الظاهرة نفسها، ومن الممكن أن يعتبر هذا مقياساً لتحصيل الـطفل للغـة، ولكنه عـلى كل حـال لا يمكن أن يـوضـح لنـا تكـوُّن الفكـرة وارتبـاطهـا بـاللفظ فـي إدراك الطفل. والعيب الثاني أن الطفل عند إجابته على أسئلتنا يستعمـل ألفاظـاً أخرى يعتقد أنها معادلة لما نسأله عنه، ومهما يكن من شيء فلا هذه ولا تلك تعبر عن تكوُّن الأفكار والمدركات في عقل الطفـل وتكوُّن الألفـاظ الدالـة عليها عـلى لسانه.

---

(١) Bertrand Russell, An Inquiry into Meaning andTruth,Peliçan, 1963.

(٢) Simeon Potter, Language in the Mcdern World, Peliecan 1964.

(٣) Thought and World, P. 119.

أمـا الشعبة الثـانية فتعتمـد على دراسـة «التجريـد»، والذين يصـطنعـونها يعتمـدون عـلى وسـائـل نفسيـة تـوصـل إلى تكـوُّن الفكــرة أو المدلــول. وفي هذه الطريقة يقدم للطفل عدد معين من المؤثرات (صور، لعب، أناشيـد، أشياء مختلفة) توجد بينها وجوه تشابه متكررة فيها، ولكنها خفيـة إلى حد مـا ، ويطلب منـه اكتشاف هـذا القدر المشتـرك بـين تلك الأشياء، ويـرون أن إدراك الطفـل للسمـات المتشابهـة هو نـوع من «دلالة» في دور التكـوين يلاحـظونها بـأنفسهم. ولكن هذه الطريقة لا تعين كثيـراً على كشف العـلاقة بـين الرمـز الصوتي الـذي هو الكلمة وبين مدلولها.

أمـا الـطريقـة التي يصفهـا فيجــوتسكي فتـتـلخص في إحـضـار شخص وإسماعه مجموعة من الألفـاظ التي تعتـبر من قبـيـل الهذيـان، ولا مدلـول لها في ذهنه، ثم يسأل عن الأثر الذي تـتركه كل لفظة من هذه الألفاظ في نفسـه، وقد قام بمثل هذه التجارب اثنان يذكـرهما المؤلف، أحـدهما «آتش» الـذي يقول: إن هذه الطريقة يمكن تطبيقها على الأطفـال والبالغـين سواء بسـواء؛ لأن الدلالات المطلوب إعطاؤها للألفاظ المنطوقة لا تفترض نوعاً بعينه من التجربـة أو المعرفـة المسبقـة، ثم إنها تنـطلق من فكـرة أن الـدلالــة التي تعـطى للفظ ليست شيئـاً متحجراً غير قابل للتبـديل والتغيير. وأنصار هـذه الطريقـة يـرون أن المـدركات المعـبر عنها تـتحرك وتـتطور طبقـاً لظروف وظيفيـة، أي متجاوبـة مع الحـاجات المباشرة للمتكلمين. أما الثاني فهو «ريمات» الذي أدار دراسة مخططة بعناية حول تخلق الـدلالات عند المـراهقين، مستعمـلاً طريقـة «آتش» مع بعض تعـديـل ، وانتهى منهــا إلى أن الإدراك بمعناه الحقيقي، أي القــابليـة لأن تقــوم في الــذهن متصورات حقيقية، يفوق طاقة مَنْ هم دون سن المراهقة، ولا يبدأ ذلـك إلا مع البلوغ. ثم ينقل المؤلف نصاً من ريمات يقول فيه: «لقد ظهر لنا بشكل قاطع أن زيادة كبـيرة في قدرة الطفل، بدون مساعدة، على تكوين متصورات مـوضوعيـة عامـة تتجلى في حدود السنة الثانية عشرة من عمر الطفل . . . فالتفكـير في التصورات

تفكيراً متحرراً من التلقين يفرض متطلبات على الطفل تتجاوز إمكانياتـه العقلية قبل سن البلوغ»[1]

والذي يهمنا هنا هو أننا نلاحظ أن الدراسة الحديثة في صلة الفكر اللغوي بـالإدراك العقلي قـد تعني علم النفس أكثر ممـا تعني علم اللغـة في ذاتـه، إذ إنّ عملية الكسب اللغوي لا تـبدأ عند الطفل كما بدأت في تجربة آتش وريمـات من نقطة الصفر لغوياً، وهي ما يسميه بالهذيـان المجرد من المعنى،وإنمـا تبدأ بسمـاع الطفل للغة مستقرة لها مدلولات مسبقة، يعتـبرها هـذا المؤلف من عيوب المنهـج الذي يعول عليها، بينما هي في الواقع تبـين كيف يختلف مـدلول الكلمـة بعينها من سن إلى سن، ومن مستوى اجتماعي أو فكري إلى مستوى آخر.

وإذا كانت كل هـذه المناقشـات بأجمعهـا تدور حـول العلاقـة بـين الكلمة ومدلولها، فقد كان ذلك باعثاً للفيلسوف برتـراند راسـل ليبدأ كتـابه «دراسـة في المعنى والحق» بسؤال هو بكل بساطة: ما الكلمة؟[2] وقد ذكر أنه في ذهن الرجل القـديم، لم يكن هناك فـاصل بـين الكلمـة وما تـدل عليه، فكـل شيء موجـود هـو موجـود باسمـه، كما أنـه كان يعتقـد أن المعـدوم هـو الـذي ليس لـه اسم. وتفرعت عن ذلك اعتقادات سحرية مختلفة،منها أن الذي كان يعرف اسم عـدوه كان بهذه المزية يتزود بقوة سحرية تسهل له التغلب عليه.وكان السحـرة يدعـون الملائكة والشياطين بأسماء هي التي، في معتقدهم، تجعل هذه المخلوقات الـرهيبة غير المرئية تطيعهم.

ونظراً للقدسية التي يكتسبها خلع الاسم على المسمى، ظل هذا إلى الآن في استعمالات تدعو إلى التأمـل، مثل: بـاسم القانـون، باسم الشعب، وبسم الله الرحمن الرحيم، فالاسم في كل هذا معناه في الواقع القـوة والسيادة والقـدرة التي يضمنها المسمى، فمفهوم «باسم القانون» هو بسيـادة القانـون، وبقوة القـانون،

---

(١) An Experimental Study of Concept Formation; P 52.

(٢) What is a Word?, P 21— 28.

ومفهـوم «باسم الشعب، بسيـادة الشعب وبقـدرة الشعب، ومفهـوم «بسم الله» بقوة الله وقدرته وسيـادته. فالكلمةُ إذن كانت ترتبط بالمـدلول ارتبـاطاً سحـرياً، وفي ذلك نفسه مـا يثبت أن الارتباط لم يكن عضـوياً وإنمـا كان صنـاعياً أريـدت تقويته فخلقت حوله هذه الهالةمـن المعتقدات القديمة. كان الرجل القـديم يخاف من الكلمـــة ، وقـد ذكــرنـــا في كتـــاب ألفنـــاه عن القَسَم عنـــد الســـاميـــين القدماء[1] أن تلك الأمم كالأمم البدائية المعاصرة لنا، كانت تخاف من اليمـين، وكـان بعضهم يفضل أن يضيـع حقه نهائيـاً على أن يتلفظ بصيغـة قد تجـرُّ عليه ما لا علم له به من اللعنات. على حين أن اليمين، في حد ذاتها، لا تعدو مجرد ألفاظ منـطوقة، عـلى ضوء الـواقـع المادي المنـطقي لا حول لهـا ولا قوة. وقـد اكتشف النـاس ذلك فـأكثروا من الأيمـان الكـاذبـة، حتى اضـطر المشـرعـون إلى وضـع عقوبات مادية للكـاذب في يمينه، وصلت في بعض الشـرائـع إلى عقوبـة الموت، ثم يئس القضـاء من قيمة اليمـين فلم يعد يقنـع إلاّ بـالوثـائق المـاديـة والعقـود والشهود. كذلك كانت اللعنـات في الزمن القـديم لا تعتبر مجـرد كلمات، وإنمـا هي أصوات ذات قوة سحرية خـاصة، لـدرجة أن بعض البـدائيين كـان إذا مَرَّ بالمصادفة فالتقطت أذنه صوت شخص آخر يطلق لعنة من اللعنات، انكفأ عـلى وجهه أرضاً حتى تمر اللعنة من فوقه ولا تلمسه.

كل هذا يـبـين لنا الشوط الذي قطعته الألفاظ في عـلاقتها الخفيـة بالفكـر حتى وصلت إلينا، ولم يكن وصولها مع ذلك خالياً من المشاكل الخاصـة بالعـلاقة بينهما.

وبـعد، فهناك سؤال حار الناس في الإجابة عنه وهو : هل يمكن أن يوجد الفكـر دون أن يوجـد الكلام؟ وبعبـارة أخرى: أليس الكـلام والفكـر كـلاهمـا مظهرين لعملية نفسية واحدة؟

---

(١) Hassan Zaza, Le Serment chez Ies Anciens Sémites, Paris 1957,P. P 39 —— 63.

يقول إدوارد سابير: إنه للإجابة عن السؤال يجب أن نفهم بوضوح ومنذ البداية أنه ــ حتى مع التسليم بأن الفكر في عملياته المختلفة في حاجة إلى رموز حسية يتعلق بها ــ في حاجة إلى لغة على وجه التحديد، فإنه لا ينبني على ذلك أن يكون الكلام دائماً وأبداً صورة لعملية من عمليات الفكر في معناه الفلسفي الأعلى. وقد سبق أن رأينا أن العنصر اللغوي الأساسي في الكلام هو اللفظة الدالة على متصور. وليس معنى هذا أن اللغة تستعمل فقط في التعبير عن متصورات بالمعنى الفلسفي؛ فإننا في الحياة اليومية العادية لا نهتم بالمتصورات قدر اهتمامنا بالواقع الملموس، بالأمور الجزئية القائمة أمامنا وبالنسب التي تنشأ بينها. وأنا عندما أقول إنني تناولت إفطاراً لذيذاً هذا الصباح، فإنه من الواضح أنني لا أتجشم ــ وأنا أنطق بهذه الجملة ــ عذاب الإجهاد العقلي الذي تحتاج إليه عملية من عمليات الفكر جديرة بهذا الاسم. بالعكس، أشعر بسرور من يستعيد ذكرى طيبة يسوقها في عبارة مألوفة يسيرة. وبالرجوع إلى كل لفظة من ألفاظ هذه الجملة نجد أنها في حقيقة الأمر تعبر عن متصور، أو عن نسبة بين متصورين، أو عن الأمرين جميعاً ، ومع ذلك فالجملة كلها بعيدة كل البعد عن أن تكون لها هذا الجو المكفهر، جو التصورات المنطقية والنسب والقضايا القائمة بينها، ونحو ذلك من أشكال الفكر الفلسفي. وأنا في نطقي بهذه الجملة، أي في التعبير عن معناها باللغة ــ هذا الجهاز الفكري الضخم المعقد ــ أكون مثل من وجد مولداً كهربائياً هائلاً تستطيع قوته تحريك الآلات الضخمة والمصاعد الثقيلة، فاستخدمه هو بكل بساطة في رن الجرس الصغير المثبت على باب بيته أو على مكتبه.

وهذا القياس ــ كما يقول سابير ــ أكثر جدية مما يبدو في الظاهر ولأول وهلة، إذ يمكننا أن نعتبر اللغة آلة صالحة لأداء ما يرجى منها في كل الظروف النفسية والفكرية، ابتداءً من الواقع البسيط المتكرر في الحياة اليومية كالحديث عن الإفطار في الصباح، إلى الفكرة التجريدية الفلسفية في كل تعقيدها وعمقها. وفي كل هذه الحالات التي لا حصرَ لها يختلف الموضوع، ويختلف

المستوى الذي يدور فيه التفاهم، أما مادة التفاهم، أما صورته، أي الجهاز اللغوي المطالب بالتعبير عنه، فإنه يبقى واحداً على الدوام[1].

وفي علاقة اللغة بالفكر يسأل الدكتور كمال يوسف الحاج في كتابه «في فلسفة اللغة» هذا السؤال: أبإمكان الألفاظ أن تدلَّ تمام الدلالة على المعاني الداخلية، أو أنها تقصر عن تصريف كل ما في الوجدان؟ عندما أقول (أحب)، هل تستطيع هذه الكلمة أن ترسم، بأحرفها الأربعة، جوهر الحالة النفسية التي يتناغم فيها المحب مع قلب آخر؟

جليٌّ أن العلاقة ههنا محصورة بين اللغة ومواجيد الباطن، وأن المعضلة الأولى (وهي: هل اللغة اصطلاح أو توقيف) لم تنتفِ بهذا السؤال الثاني. إنما أرجىء حلها فقط، فقد انتقلت من البحث في أصول الشيء إلى البحث في أصول الوجدان. ومعلومٌ أن الآراء، لم تجتمع في هذا المجال على حذوٍ واحدٍ. منهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ لا يفيدنا كل الإفادة عن حقيقة الوجدان. بذلك تصبح اللغة واسطة لا غاية (لوك Locke). ومنهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ يفيدنا عن حقيقة الوجدان، لأن اللفظ يعبر عنه تعبيراً كاملاً. بذلك تصبح اللغة غاية لا واسطة (دي بونالد De Bonald). ومنهم من وقف بين بين (ليبنتز Leibnitz).

يعتبر لوك، من أكابر فلاسفة الإنجليز في القرن السابع عشر، وقد خصص لمعضلة اللغة فصولاً طويلة، ضمنها كتابه الضخم «بحث في المدارك البشرية» حيث تبنّى المسالك التجريبية. وقد كان من أشد الذين لاحظوا الروابط المتينة الكائنة بين اللغة والفكر. في رأيه أن العلاقة بينهما أكثر من احتكاك برّاني. علاقتهما من الداخل. ولا نستطيع نحن، في أي حال من الأحوال، أن نقضي على هذه العلاقة، لنفصل بعضهما عن بعض.

---

(١) Edward Sapir, le langage, p. 21.

لاحظ لوك وجود هذا الحبك المتين بين التعبير والتفكير، ثم قال رغم ذلك بالتواطؤية (أي كون اللغة اصطلاحية لا توقيفية). هذا الحبك المتراص أعاده لوك إلى كون الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية، فطرنا على الحياة فيها مع الآخرين. هذه الحياة تفرض علينا التفاهم والتخاطب؛ لذا كانت الأعضاء الصوتية لدى الإنسان، ليتصرف بطريقة يتمكن فيها من أن يعبر عن أفكاره للآخرين. هنا مصدر اللغة البشرية. لكن هل نستطيع القول رغم هذا أن اللغة توقيفية؟

جواب لوك عن هذا السؤال واضح. يقول ما فحواه: إذا كانت قوة الكلام مغروسة، أصلاً، في عنقنا... إذا كنا نندفع بالسليقة إلى الكلام... فهذا لا يعني أن اللغة توقيفية. الإنسان يتواطأ مع صحبه على وضع المفردات الخاصة. حجة لوك في هذا ما يلي: الكلمة تدل إلى معنى. والمعنى لا يأتي من الشيء المادي. الحجر لا يعني، الكلمة الدالة إلى الحجر هي التي تعني. والذي يعني، في الكلمة، هو الفكر، الفكر إذن، عانٍ. والإنسان هو مصدر الفكر. لنقل ـ والحالة هذه ـ إن الكلمات رموزٌ لأفكارنا، شارات حسية لها. الكلمات لا تعني أشياء بقدر ما تعني أفكاراً. علاقتها بالباطن لا بالخارج، بعالم النفس لا بعالم الطبيعة، مهما تكن قوية علاقة الكلمة بالشيء الذي تعنيه. وضعيفة علاقة الكلمة بالفكرة التي لدينا عن هذا الشيء، فإنَّ غاية الكلمة هي الترويح عن النفس، التخفيف من لواعجها ونقل الأفكار إلى الآخرين في نطاق الحياة الاجتماعية. العلاقة حاصلة إذن، بين الكلمة والفكرة، لا بين الكلمة والشيء. العلاقة الثانية لا وجود لها، لأن الأفكار هي التي تعني، لا الأشياء البرانية.

يقصد هذا القول أن الإنسان هو الذي يعطي المعاني للكلمات. فهناك حاجة الإنسان إلى التعبير عن أفكاره، فحاجته إلى التعبير عن أفكاره للآخرين مما يفيد أنه لا يوجد ربط حتمي بين الأفكار وجرس الحروف. لأنه لا توجد علاقة جبرية بين ما نعبر عنه وما نفكر فيه. لو كانت هذه العلاقة موجودة لتكلم

الناس جميعاً لغةً واحدةً، وأشارت الكلمات عينها، في أذهان الكل، المعاني ذاتها. الكلمات في حد ذاتها لا تعني شيئاً. هي تعني ما نريدها نحن أن تعنيه. إذن هي وليدة التواطؤ.

وقد لاحظ لوك أن هذه التواطؤية ذات قاعدة. يعني أن وضع الكلمات يتطور من الحس إلى المجرد... من المنظور إلى اللامنظور... من الخاص إلى العام. فلو حللنا مفاهيم مجردة كلفظة عقل، وروح، ونفس، وربّ، لوجدنا أن معانيها ترجع بالأساس إلى أوضاع حسية. مثلاً عقل (الذي فحواه نور روحاني تدرك النفس به ما لا تدركه بالحواس) يعني بالأصل شيئاً مادياً. نقول عَقَلَ البعيرَ، أي ثنى وظيفه مع ذراعه، فشدُّهما معاً بحبلٍ هو العقل. العقل، إذن، هو الحبل الذي يشد به البعير في وسط ذراعه. نقول أيضاً: عقلت شعرها أي مشطته. اعتقل الرمح، أي وضعه بين ركابه وساقه. عقل الدواء بطنه، أي أمسكه. ولا شك في أن كلمة رب «التي تعني المالك، السيد، المصلح وهو خلاصة جميع الظواهر الكائنة» هذه الكلمة مأخوذة من الرُّب والرب ما يطبخ من الثمر، وما يخثر من عصير الثمار، وهكذا دواليك حتى تأتي على جميع المفاهيم المجردة[1].

هذه النزعة التواطؤية يقابلها نزعة توقيفية أشد، أظهرها دي بونالد، أحد مفكري الفرنسيس، في القرن الثامن عشر. وهو يعتبر من أعند الذين اشتغلوا بقضايا الكلمة على الصعيد اللاهوتي البحت.

عنده أن علاقة اللغة بالفكر ليست معضلة خاصة يمكن درسها بمعزل عن معاضل الإنسانية الباقية. هذه المعضلة هي في صميم الكيان البشري ومن صميمه وإلى صميمه. هي معضلة الإنسان رُمَّة، من هنا اعتباره إياها، صراحة، قلب الفلسفة كلها.

نستطيع أن نلخص نظرته في اللغة كما يلي: أن العلاقة التي تربط الفكر

(١) علاقة الربّ بالرُّب متكلفة، والرَّبّ في المعنى الحسي هو الكبير والكثير والضخم ومالك الشيء المتصرف فيه.

بالكلمة هي علاقة صميمة. الفكر والكلمة جسم واحد، لا يحصل فكر بدون أن تحدث لغة. ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكراً. استناداً إليه يقول دي بونالد ما فحواه: اللغة ليست تواطؤية من خلق الإرادة البشرية. الناس لم يتفقوا فيما بينهم على أن يكون ثمة لغة فكان هناك لغة. هذا التفسير لمنشأ اللغة بعيد كل البعد عن واقع الحقيقة؛ ذلك أن الإنسان لا يقدر على حل شيء ما لم يكن لديه فكرة صريحة عنه. ولكي يحصل على هذه الفكرة الصريحة ينبغي له أن يعبّر عنها. إذن اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها. مما يفيد أن اللغة ليست من عمل القوى البشرية. إنّها هبة من لدن الله.

أُعطي الإنسان قوة النطق منذ أن سُوِّي إنساناً، منذ أن تحرك الحركة الأولى. لذا نخطىء عندما نقول: إن الفكر سابق للكلمة. الفكر ذاته كلمة، والإنسان لا يفكر إلاَّ لأنه كائنٌ لاغٍ. فنحن نتحدث إلى أنفسنا عندما نفكر بيننا وبين ذواتنا. نتحاور في قرارتنا حواراً لا ينقطع، لأن في هذه القرارة فكراً لا ينقطع، والفكر تعبير وراء الشفتين الصامتتين، الفكر حديث باطني، والحديث تفكير بصوت عالٍ»[1].

ونحن متفقون مع أغلب الباحثين المحدثين في فلسفة اللغة، الذين وقفنا على طرف من آرائهم الآن، فالفكر هو المضمون الخفي أو الطاقة القصوى للكلام، هو المعنى الذي نكشف عنه عندما نتأمل القيمة التصورية لكل وحدة من وحدات الكلام. ولكن هذا بالذات يعني أن الفكر واللغة ليسا في الاعتبار الفلسفي شيئاً واحداً. فالكلام بالنسبة للفكر هو أولاً وقبل كل شيء عملية مصاحبة له غير خالقة له على وجه اليقين: هو رفيق لهذا الفكر يعمل بدأب وتواضع على أن يرتفع إلى مستواه، وبالتالي فهو من جهة أخرى ليس كما يظن البعض بطاقة نلصقها في النهاية على الفكرة عند بلوغها في العقل مبلغ الوجود.

وإذا سألنا زيداً من الناس هل تستطيع أن تفكر بلا كلام؟ بلا لغة؟

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة. بيروت (دار النهار) ١٩٦٧، ص ٢٣ وما بعدها.

بدون أن تستحضر في نفسك ألفاظاً معينة؟ فإنه سيجيب غالباً: نعم! ومع ذلك فليس من السهل علي أن أفعل هذا؛ ولكنني أعلم أنه ممكن.

الواقع أن الذي يجيبك بذلك مخدوع، فاللغة للفكر كالأرقام للحساب، لا يمكن تصور عملية حسابية بدون أرقام، مع أن الحساب، من حيث هو عملية عقلية، شيء، والأرقام شيء آخر. كذلك لا يمكن تصور فكرة بدون ألفاظ. والذي يوقع الناس عادة في هذا الخطأ هو ظنهم أن الفكر طبيعي، واللغة صناعية، وعلى ذلك تكون الرابطة بينهما شيئاً محدثاً مبتدعاً، ليس هو في لب الأمر وجوهره لازماً لا ينفصم. الواقع أن للفكر حمىً أو حرماً عزيزاً منيعاً ليس له إلّا طريق واحد تؤدي إليه هي الألفاظ، الكلام. وهناك سبب آخر لذلك الخطأ، وهو ملاحظتنا أن الصم البكم قادرون على التفكير رغم حرمانهم من وسيلته التي تسمى الكلام، وقد سبقت الإشارة إلى أن هؤلاء المحرومين يتلقون من المجتمع الذي يعيشون فيه رموزاً بديلة تحلُّ محل الألفاظ كالإشارة والكتابة إلى آخره.

ونحن في هذا نخالف ما يذهب إليه الدكتور كمال يوسف الحاج ومن لفّ لفه عندما يقول[1]: «اللغة، إذن، في صميم الوجدان، ومن صميمه، وإلى صميمه». نقول أيضاً لا صميم للوجدان بدون لغة. إن اللغة ليست صفة من صفات الوجدان، بل هي الوجدان عينه. إذا توقف الوجدان عن أن يكون لغة، أو في سبيل اللغة، توقف عن أن يكون وجداناً. إن التزام الدلالة في الوجدان دلالة إلى التزامه اللغة دائماً. إذا انعدم انتقاله إلى اللغة انتقل العدم إليه.

المقصود من هذا الكلام أن اللغة متحدة، اتحاداً عينياً بالوجدان؛ لذا كانت اللغة إلى الإيجاز أو الإطناب، إلى اللين والشدة، إلى الارتفاع أو بعد المدى، بمقدار ما تستلزمه الدلالات في الوجدان. وكانت الدلالات الوجدانية

---

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة. ص ٩٢ وما بعدها.

تنطبـع لغةً، بمناسبة طبيعية في الشدة أو الرخاوة، في الهمس أو الجهر، مما يجعـل الوجدان غير قادر على أن يتصرف بالحروف، والكلمات، كما يشـاء هو، بـل كما يفرضه الوجه الذي في الحروف، والكلمات. وهذا الـوجه في الحـروف، لم يأت محتماً إلاَّ لأنه يحمل فيه بلاغة الوجدان ذاتهـا. فدلالـة الوجـدان طبيعية في دلالـة اللغة. يكون فيها من دلالة على مقدار مـا يكون فيهـا من روح الوجـدان. وعلى مقدار ما يكون في الوجدان من دلالة ينجذب ضرورة إلى أن يصبـح لغة.

اللغـة إذن غايـة لا واسطة. لـولاها مـا بـان الإنسـان من بـاقي الحيـوان إلاَّ بتخطيط جسمه. ولولاها ما وجد إلى المعرفة باباً واسعاً. لا نرى عاقلاً يشـك في أنها من مهمـات علم الإنسـان، في أنها الأسبق إلى منـازل الشـرف ومـواقـع التعظيم. لا علم إلاَّ وهو دليـل عليها، ولا خـير إلاَّ وهو السبيـل إليها. نقـول: مـا كان شيء في الـوجود أنـور فـانـوساً من اللغـة، التي نفثت الحيـاة في العـدم فـأخصب، وضـربت السحـر في الجمـاد فتحـرك. لـولا اللغــة لبقيت اللطيفـة الإنسانية كامنة محجوبة. لاستولى الخفاء عـلى قاصيهـا ودانيها. لعجـزت النفس عن أن تنتهي إلى خابية الحق المعتّقة.

جـلي أن اللغة، التي نعني، ليست قـرع الشفاه. ولا هي وسيلة طينيـة في سبيل غاية وجدانية، قرع الشفاه أحد المظاهر فيهـا. اللغة، التي نعني، تبـدأ في الـوجدان وتمـر على اللسـان، وتنتهي في الخط. مصبها إذن أبعـد من الشفاه. إذا أردنا أن نأخذها من معدنها الصافي كان علينا أن نستقيها من الوجـدان ذاته. إذ هي وجـدان. وأن نمتشقهـا من طبــاع النفس عينهـا. إذ هي نفس ذلــك لأنها مركوزة في سـوس الآدمية، لاحقت الإنسـان، منذ أن كان، وهي تلاحقُـه إلى أن يذوب، في الحفرة الباردة.

لعل كلمة مصـطلح، المشتقة من فعـل اصطلح، هي التي سـاعدت عـلى تحـريف اللغة، لقـد جعلتنا نعتقـد أن المصطلحـات مجرد رمـوز إلى مسميـاتهـا، وكنـايات عنهـا وإشارات إليهـا. فهي وليدة الاختيـار البارد الـذي لا يبرره داعٍ

حياتي صارم. المصطلح هو الذي اتفق بعض الناس على أن يكون هكذا، فكان. وقد يتفقون على أن لا يكون هكذا، فلا يكون. مثل الاصطلاح مثل كلمة السرّ بين الجنود في ساحة الوغى. إذا تفشت اصطلح على غيرها، دون أن يتزعزع الموقف. هذا الفهم الجامد للغة البشرية تحريف لحياتيتها، وتبريد لحرارتها. هي لا تكون عن طريق الاختيار الذي لا يبرره شيء، ولا عن طريق الحجج اللغوية. اللغة توقيف. والتوقيف غاية أصيلة، اللغة تستمد توقيفيتها من الحياة ذاتها، من العمل ذاته. ومنطق الحياة العاملة يعلو، ولا يعلاه، لأنه نقطة التقاء السماء بالأرض.

في ضوء هذا المبدأ لا يعود بإمكاننا أن نعتبر أن اللغة واسطة بل غاية، وجودها معاصر لوجود الإنسان، والإنسان غاية إنسانه. في هذا الضوء لا يعود بإمكاننا أيضاً أن نتواطأ، بأسلوب لغوي صرف على وضع المصطلحات، بل نترك الإنسان يعايشها بالفعل وهو ينطقها بالقول. حينئذٍ تأتي المفردات، بصيغتها اللفظية، امتداداً للحياة، فتكون عبارات مستقيمة. الضرورة، أو الحاجة، هي التي تدفع بالخاطرة إلى أن تَتَكَلْمَنَ[1] بذوق سليم. المصطلحات تؤخذ من العمل ذاته. إذا لم يكن لها داعٍ يدعو إليها من صميم الحياة، خرجت هذياناً تمجه النفس. منطقها منطق الأعماق في النفس، لا منطق ما تتفق عليه، لغةً، المجامع اللغوية. من هنا كانت المصطلحات لغزاً من ألغاز الوجود الإنساني لا قاعدة من قواعد الصرف والنحو»[2].

هذا الكلام يؤكد ما يلاحظه كثير من الباحثين في اللغة، من تعرض الإنسان لمرض «عبادة اللغة» أو «تأليه اللغة» وهو مرض يحسن وقعه في وجدان المصاب به، فيجد له فتنة في أعماق الوجدان. وقد أشرنا سابقاً إلى تردد ابن جني أمام فتنة اللغة العربية وسحر بلاغتها، حتى توقف فلم يقل

(١) تتكلمن: أي تصير كلاماً، فيما يبدو. (ح. ظاظا).

(٢) الدكتور كمال يوسف الحاج: المرجع السابق.

لا بالاصطلاح ولا بالإلهام. وها نحن أولاء نجد هذا السحر قد استوعب هوى باحث آخر بعده بألف عام أو تزيد. فالدكتور كمال الحاج يبدو وكأنه لا يريد أن يجعل هناك فرقاً بين الفكر واللغة، فهما عنده جزء لا يتجزأ، وهما عنده الوجدان والإنسان وملتقى ما بين السماء والأرض وبهذه المثابة كان لا مفر له من القول بأن اللغة توقيفية، مع تعديل يناسب روح العصر، هو أنها توقيفية لا بوحي وإلهام من الخالق، وإنما بنوع من القدرية أو الحتمية الاجتماعية والحضارية، هي التي تجعل الفكر واللغة عند البشر شيئاً واحداً. ولو أبحت لنفسي أن أعدِّل من لفظه لقلت إنه لا يريد إرجاع اللغة إلى التوقيف بقدر ما يريد إرجاعها إلى التوفيق، فالمتكلم يعمل فكره في شق الطريق نحو استخلاص الرمز الصوتي الملائم، وجدانياً، لمدلوله عنده، وهو في هذا، بنوع من الضرورة الحيوية، موفق إلى بغيته لا محالة. فإذا كان ذلك كذلك كان النقاش مع الدكتور كمال الحاج نقاشاً لفظياً بحتاً، ولكنه يلح في إضفاء نوع من الروحانية السرمدية على اللغة، وفي أن يرفعها إلى مستوى الميتافيزيقيات. وانطلاقاً من هذه العقيدة خالف الفيلسوف الفرنسي برجسون الذي كان على سحر أسلوبه يعتقد أن اللغة ــ منظوراً إليها على أنها ألفاظ تدلُّ على معانٍ ــ هي في الواقع وحدات يتعامل بها البشر في نقل الأفكار، وهي مستقلة عن هذه الأفكار، وقليلاً ما تنجح في نقلها. يقول: «لقد تزعم برجسون المدرسة الإرهابية، التي قال ذووها بأن اللغة لا تعبر تماماً عن الوجدان، إذ هي دونه. نودي ببرجسون فيلسوفاً لتلك المدرسة لأنه قال بأن مركب اللغة قاصر عن أن يحوز مبسوط المعاني. المعاني جدّ بسيطة، ولها اتصال شديد بعضها ببعض، في حين أنه يوجد بين الكلمات فُرَج وفضاءات ومسافات. ليس بمقدور لغة بشرية أن تقبض على فرش المعاني وتحيط بها. ليس بإمكان الجملة أن تنصب على الوجدانيات سوراً. إن الألفاظ جالبة للفساد. إذ بها يحصل سوء التفاهم بين الإنسان والإنسان، بها تتحور المشاعر فتأتي عكس منطوقها»(١).

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة، ص ٣٩.

كذلك نقل نفس المؤلف عن الأديب اللبناني ميخائيل نعيمة في كتابه الغربال رأياً يؤكد انفصال اللغة عن الفكر وقصورها الكبير إزاء متطلباته، إذ يقول: «الفكر كائن قبل اللغة، والعاطفة قبل الفكر. فهو الجوهر وهي القشور. ومن تعس البشرية أن تفقد مقدرة قراءة الأفكار والعواطف كما تنبت وتنمو في الأرواح، لا كما ينطق بها اللسان. وأن تراها بحاجة إلى إشارات وعلامات مختلفة، تصطلح عليها رموزاً لأفكارها وعواطفها. لأن تلك الإشارات والعلامات مهما دَقَّتْ، ليست لتأتي إلا بأشباح ضئيلة مبهمة، من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرة، ولم تعرف الإنسانية بعد في كل تاريخها من تيسر له أن يسكب كل فكره أو يجسِّم كل عاطفته، في كلام أو خطوط أو ألوان أو ألحان. لذاك فهي أبداً تقرأ بين السطور. وما تقرأه بين السطور هو أفصح، وأبلغ وأعمق، وأوسع، مما تقرأه في السطور. وذاك لأنها تدرك بالفطرة أنه يستحيل على بشري كائن من كان ــ شاعراً أم كاتباً، رساماً أم نحاتاً، مهندساً أو ملحناً ــ تأدية فكر أو عاطفة بكل ما فيهما من تجعد وتلون»[1].

وسنرى بمزيد من الوضوح والتفصيل، عندما نتحدث عن الصلات القائمة بين اللغة والمجتمع، أن عبادة اللغة القومية، وتقديسها وتأليهها، ترجع كلها في الحقيقة إلى عكس ما يظنه أمثال هذا المؤلف من سماوية اللغة و«جوانيتها». ترجع إلى أنها كما أشرنا آنفاً تراث، وخزانة معرفة، وعنوان قومية، ومظهر ترف فكري في كثيرٍ من الأحيان: عندما يتغنى بها الشعراء، ويخطب بها قادة الجماهير، وتترنَّم بها أجيال من المصلين والنساك، ومن العابثين من سمار الليالي.

والأصل في اللغة ليس هذا الترف، بل أن تعبر عن أمور عملية في حياة الإنسان اليومية. ورقيها إلى مرتبة الفكر الفلسفي والعلمي والفني في أعلى

---

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة، ص ٣٦، نقلاً عن ميخائيل نعيمة، الغربال، ص ١٠٢.

مفهومها، مرحلة تطور متأخرة تتبع الرقي الحضاري نفسه. أي أن الفكر، وهو ذلك السر البشري المتسامي المتطلع إلى الكمال وإلى التجريد، يتأثر باللغة ويؤثر فيها، آخذاً بيدها في رحلته الطويلة، يعينها ما استطاع على أن تتم معه الرحلة حتى نهايتها. وقد قلنا إن الكلام ظاهرة مرافقة للفكر، ولكنها ليست هي الفكر بعينه، ولا بأس من إيراد بعض أمثلة لألفاظ رفعها الفكر من طينة الحس إلى آفاق التجريد الفلسفي في مراحل تطور، هي بلا شك من صنع العقل البشري.

لنأخذ مثلاً كلمة «المروءة»: أصلها من كلمة المرء ومعناها الرجل المكتمل القوة الحاوي لأبرز المميزات التي يمتاز بها هذا الجنس. فبينما كلمة «الرجل» بمعناها الأصلي الحسي لا تدل إلا على الشخص الذي يمشي على رجلين لا على أربع، كانت لفظة المرء تدل، زيادة على ذلك، على ما في الرجل من صفات تدعو لاحترامه، كالقوة والهمة والحرية والشعور بالواجب، وقد استعملت في لغات سامية أخرى كالآرامية والسريانية بمعنى السيد أو الرجل العظيم، وكانت تنطق «مار»، فيقال مار جرجس، مار مينا، مار الياس... إلخ. ومن كلمة مرء في اللغة العربية اشتقت كلمة مروءة لمجموع صفات الرجولة التي تمثل السيادة، ومع الزمن وجدنا كلمة على نفس النمط هي كلمة «الأنوثة» التي يستعملها المحدثون لمجموع الصفات التي تميز الأنثى من البشر، من الرقة والجاذبية الجنسية ووضوح خلق الأمومة... إلخ. ونجد مثل ذلك في عديد من اللغات الأوروبية فكلمة (Virtue) الإنجليزية أو (Vertu) الفرنسية تعني المروءة، وهي مشتقة من اللفظ اللاتيني (Vir) الذي معناه الرجل المستكمل الرجولة، أي المرء.

ومن هذا القبيل كلمة «الرُوح»: فأصلها من نفس أصل لفظة الريح، وهو الهواء، ثم النفَس الذي يردده الإنسان في صدره شهيقاً وزفيراً. وقد سمي كل ما تحمله الريح ويمكن أن يشمه الإنسان عند التنفس رائحة، وسميت الراحة كذلك لأن المتعب، أو المهموم المكروب، تضيق أنفاسه، فإذا استطاع أن يستنشق الهواء وأن

يتنفس الصعداء، صعد الهم مع هذا التنفس من صدره، فأحسّ بالراحة، وهكذا يكون قد استراح، ولما كانت الريح لا تلاحظ في هبوبها بقدر ما تلاحظ بوضوح في الأماكن الشاسعة المنبسطة سمي كل شيء واسع فيما بعد أَرْوَح، وسميت راحة اليد لاتساعها وانبساطها. ولما كان تردد الريح في صدر الإنسان هو أوضح العلامات على أنه حي لم يمت، اشتق من ذلك لفظ الروح بمعنى سر الحياة المجرد المبهم في الكائن الحي، ولاشتقاق الروح من الريح جاء لفظها في القرآن الكريم مستعملاً مع الفعل نفخ في قوله تعالى: ﴿**ونفخنا فيه مِنْ روحنا**﴾.

وتذكرنا هذه الكلمة بمثل لها وهو «النفس»: فأصلها من مادة التنفس أي استنشاق الهواء شهيقاً وزفيراً؛ ومن ذلك استعملت النفس بمعنى الكائن المحتوي على سر الحياة، لأنه يتنفس، ثم سميت المرأة التي وضعت حملها نفساء، لأنه خرجت من بطنها نفس أخرى حية. كل ذلك تطور مع احتياجات الفكر للتعبير ولم ينزل وحياً من السماء على بني آدم دفعة واحدة.

ولفظة «الدين» بدورها سارت في طريق تطوري طويل، فأصل الدين الحق، وأمر الحاكم الواجب الطاعة. كذلك جاء لفظ «الدَّين» بالفتح اسماً للمال الواجب أداؤه على الإنسان. أما الدِّين بالكسر فانتقل من معنى الحق وأمر الحاكم إلى معنى الطاعة، استشهد على ذلك أبو زيد القرشي في مقدمة «جمهرة أشعار العرب» بقول زهير بن أبي سلمى:

لَئِنْ حَلَلْتَ بجوٍّ في بني أسد   في دِين عمرو وحالَتْ بيننا فَدَكُ

«في دين عمرو» يعني في طاعة عمرو، وقال الله تعالى: ﴿ولا يدينون دين الحق﴾، أي لا يطيعون[1]. ثم انتقلت إلى معنى القانون ومنه سمي القاضي الديَّان، لأنه يقيم القانون بين الناس. ومن ذلك جرت العادة قديماً أن يسمى أي

(١) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي. طبع بولاق سنة ١٣٠٨هـ ص ٥.

بلد فيه قاضٍ وشريعة ومحكمة «مدينة»[1]، ولمّا هاجر النبي ﷺ إلى يثرب وأقام فيها أحكام الشريعة الإسلامية وقضى فيها بين الناس بالقرآن سميت المدينة، ومن هنا جاء اسم الدين بكسر الدال وهو مجموع الشرائع التي يقرُّ لها الناس بالطاعة، بعد أن يعتقدوا أنها من عند الله.

ويذكرنا هذا بلفظة جارية على الألسنة هي «العقيدة»، فأصلها من الفعل الثلاثي عقد، وهو أن يربط الإنسان عقدة في حبل أو قطعة من النسيج، والعقيدة هي الشيء الثمين الذي يُصَرُّ ويربط، ويعقد عليه الرباط حتى لا يضيع، وكذلك كان الرجل القديم يعقد خيطاً، أو خصلة من الشعر أو الصوف، على أصبعه ليتذكر شيئاً هاماً ولا ينساه، ثم استعملت كلمة العقيدة استعمالاً تجريدياً فلسفياً فيما استقر في قلب الإنسان من فكرة دينية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها يحرص عليها ويتعصَّب لها، وكأنها شيء ثمين عقد عليه قلبه حتى لا يضيع.

وكلمة « العقل » ، كان معناها المادي كما أشار إليه الدكتور يوسف الحاج آنفاً هو ربط الدابة بحبل اسمه العقال، حتى لا تجمح أو تشرد، والعقال الذي يعقد على الرأس يسمى كذلك لأنه يعقل «الكوفية» أو «الحَطَّة» فلا تنزلق عن الرأس، ثم نقل العقل من معناه الحسي وهو الربط والكبح إلى المعنى الفلسفي وهو القوة الخفية الكائنة في الإنسان التي تمسك النفس فلا تجمح ولا تضل.

ومن هذا القبيل كلمة «الأدب»، ونلاحظ أولاً أن الهمزة والهاء تتبادلان وتتخالفان كثيراً في اللغة مثل أراق وهراق، ومثل قول بعض العرب (أَل فعلت كذا؟) أي هل. وأحياناً تتبادل الهاء وحرف المدّ في اللغة مثل «الدهر» المأخوذة من الفعل «دار»، لأنه «دورة الزمن»، «والذهب» من الفعل «ذاب» لأنه كان من أوائل المعادن التي «أذابها» الإنسان على النار، أي صهرها. وكما تتبادل الألف والهاء كذلك تتبادل الدال والذال، وهكذا تتقارب

---

(١) ولذلك استعملت كلمة مدينة في كثير من اللغات السامية ـ كالعبرية ـ والآرامية مثلاً ـ بمعنى الدولة أيضاً.

مادة (أدب) و (هذب). وأصل تهذيب الشيء مادياً هو تنعيمه وتقويمه وإزالة ما به من خشونة ناتئة لا فائدة منها، ومثله (شذب)، وهو من نفس مادة هـذب بزيـادة الشـين التي نجدهـا تزاد قيـاساً في بعض صيـغ الفعـل في اللغة الآراميـة، وهي سامية من أخوات العربيـة، كما تـزاد في بعض اللهجات العامية عنـد العرب في أفعـال مستعملة مثل: (شقلب) بمعنى قلب رأسـاً على عقب، (شعلق) أي علّق بصعـوبـة، و(شعبط) من عبط الشيء أي تشبث بـه واحتضنـه، و (شخلع) أي تصرف بخلاعة... إلخ. وأصل التشذيـب هو تهذيـب غصن شجرة ليتخذ منـه وتد أو عصا أو عمود لخيمة أو نحو ذلك، ثم انتقل التهذيب إلى معنى التنظيم الحسي أولاً، ثم النفسي بـعد ذلك، وقام إلى جانب التهذيـبِ التأديـبُ بالمعنى الفكري فقط، وهو إزالة الجلافة والجهالة والرذيلة من الإنسان، وفي حديث «أدَّبني ربـي فأحسن تأديبي»، ويعود المعنى المادي إلى الظهور في كلمة (المأدبة) وهي الخوان الممدود المرتـب المهذب المعدّ لاستقبال المدعوين. ثم جاء الأدب بمعنى هذا الكلام الفني الذي لا يصدر إلا عن النفوس التي هذبتها الثقافة وصقلتها المعرفة، ولا يحس به ويقدره إلا من ارتفع عن حضيض الجلافة وأصبـح مهذبـاً، وهو في ذاتـه الكلام المرتب المنمق الذي اختفت منـه الخشونـات والفضول وأصبح كـأنه في النعـومة والاستقامة والجمال الغصن المقوَّم المشذّب. هذا أيضاً تطور طويل ومعقّـد سايـر الفكر وواكب تقدم المجتمـع.

وهناك كلمة «الشـرف»: وأصله الارتفاع والنـظر إلى الناس والأشيـاء من فوق. وسميت «الشُرفة» في البيت أو القصـر كذلـك لارتفاعهـا ولكون الـواقف فيها يشرف، أي يطـل على ما تحتها، وانتقل الإشراف مـع المحدثـين خاصـة من هـذا المعنى الحسي إلى المعنى التجـريـدي الفكـري. كـالإشـراف عـلى البحـوث العلميـة أو التلاميـذ في المدارس، أو الإشـراف الاجتماعي ونحـوهما. ثم تجـرد المعنى أكـثر فأكـثر، حتى أصبح الشـرف هـو مجمـوع صفـات، بعضهـا بـالنسب وبعضها بالحسب، تجعل الإنسان، معنوياً، في منزلة أرفـع من غيره.

وحتى «الجنـة»: كانت في الأصـل تعني البستـان الـذي يجـري فيـه المـاء

وتنبت فيه ألوان من الأشجار والنبات، قال تعالى: ﴿**ودخل جنته وهو ظالم لنفسه**﴾ ثم استعمل اسماً لدار النعيم المقيم التي يحظى بها في الآخرة الذين رضي الله عنهم.

أما «جهنم»: فأصلها أشد غرابة، إذ ترجع إلى لفظتين ساميتين قديمتين هما «جي» (بالكسرة الممالة) ومعناها الوادي، ولعل الفعل «جاء» في اللغة العربية كان معناه الأصلي هبط إلى الوادي أو مشى في الوادي، والعنصر الثاني في تركيب هذه الكلمة هو لفظة «هِنّم» (بكسر الهاء وضم النون المشدّدة) وهو اسم علم لقبيلة قديمة كانت تعيش في فلسطين قبل نزوح العبريين إليها، وكانت تعبد إلهاً اسمه «ملكُ» (بضمتين) وكان من طقوسهم أن يقدموا لهذا الإله قرابين من الأطفال الصغار يذبحونهم ويحرقونهم؛ وكان لهم وادٍ في جنوب مدينة القدس يقومون فيه بهذه الطقوس، وكان يسمى باللغة الكنعانية والعبرية «جي بني هنّم» أو «جي هنم» وكانت صورته في الأذهان هي صورة إزهاق الأرواح، وإراقة الدماء، والنيران الملتهبة، والجثث المحترقة، فاستعيرت هذه الصورة وأصبحت «جهنم» علماً على دار العذاب في الآخرة، حيث يحترق بنارها كل من حاق بهم غضب الله.

وأخيراً نجد مثالاً لتطور الدلالة مع تطور المجتمع في كلمتي «المعروف والمنكر» فمعناهما التجريدي هو الخير والشر، أما المعنى الحسي المادي القديم، فالمعروف ما يعرفه الإنسان والمنكر ما لا يعرفه. وفي حياة العشائر البدائية كان الإنسان لا يعرف إلا أهله وذوي قرابته وبني قبيلته، ثم حيواناته الأليفة المستأنسة، وكان يحب ذلك كله ويطمئن إليه. أما من عداهم فكان يخاف منهم، يستوي في ذلك الإنسان والحيوان، ولا يطمئن إليهم بل يعتبرهم أعداء يجب عليه أن يطاردهم ويقاتلهم. وعلى ذلك فقد كان يرى فيما يعرف الثقة والراحة والأمن والخير، وفيما لا يعرف المخاوف والمشاكل والخطر والشر. ومن هنا نقل الكلمتين إلى المعنى الفلسفي التجريدي، فأصبح المعروف والمنكر مرادفين في اللغة للخير والشر تقريباً.

من هـذه الأمثلة يتبين أن كـل مـا في اللغـة من تنـويـع في الاشتقـاق، أو توسيع أو تضييق في الدلالـة، أو نَقْلٍ لهـا من عالم المحسـوسات إلى عـالم المعاني المجرّدة، كل ذلك من صنـع البشر، وهو نتيجـة طبيعية لتـطور المجتمعات ومع ذلـك فـلأن اللغـة كـانت أول مخلوقـات الفكـر، ولأنها لم تنفصـل عنـه لحـظة، واحدة، وهو لم يستغن عنها على مدى تاريـخ الإنسـانية الـطويل، فقـد امتزجت بـه، حتـى إن إدوارد سابـير يقول: إنَّنا نفكر دائماً من خلال ألفـاظ نستحضرهـا في أذهاننا، ويؤكد ذلك عندما يتساءل: هل نظل دائماً عـلى أهبة المـوت في سبيل (الحرية) والكفـاح من أجل (المثـل الأعلى) إذا فـرضنا أن معنى هـاتين اللفـظتين لم يقترن في نفوسنا باسم كل واحدة منهما[١]؟.

ويزيد نفس العالم دليلاً آخر على لزوم اللغة للفكر، وهو عمومها وشيوعها في النوع الإنساني على اختلاف أجناسه وألوانه ودرجاته في الحضـارة، وانعدامهـا فيها سواه من المخلوقات، فإذا ما تذكرنا أن الإنسان هو المخلوق الـوحيد العـاقل المفكر، تبـين لنا إلى أي حد ترتـبط اللغة بالفكر وإلى أي حد كـان المعلم الأول (أرسطو) دقيقاً عندما عَرَّف الإنسان بـأنه «الحيـوان الناطق» وشـرح الناطق بـأنه المفكر.

وفي عالم الفكر الاشتراكي يقول كارل ماركس: «اللغة هي الواقـع المباشر للفكر»، أي أن جوهر الفكرة يعلن عن نفسه بواسطة الألفاظ. ويقول مرة أخرى: لا وجود للأفكار خارج نطاق اللغة، أي أن الاتصال الأبدي بين الفكر واللغة أوجد حالة اعتماد كلي من الفكر على اللغة، بحيث أصبح الإنسان غير قادر على جمـع شتات الفكر إلا داخل أسوار اللغـة. وتـتردد عنـد الباحثـين في علم اللغة وفقـه اللغة في البلاد الشيـوعية عبـارة تلخص ذلك: هي أن اللغـة هي المادة الـطبـيعية للفكر. ويعنون بذلك أن الفكر إنما يتبلور في قوالب من الألفاظ[٢].

---

(١) سابـير: نفس المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) Staline: A Propos du Marxisme en Linguistique, Paris 1951.

وبتتبع الآراء المختلفة حول ارتباط الفكر باللغة نجد أن الخلاف يكاد يكون لفظياً بين علماء الشرق والغرب. يقول الباحث البلجيكي أوسيب ـ لورييه[1] في كتابه «الكلام ومرض الثرثرة»: «في بداية الإنسان كان الوعي والإحساس والفكر والكلام شيئاً واحداً بصورة أساسية، ودون أن نوغل في الذهاب بعيداً نجد أن ارتباط الكلام بالفكر كان مشكلة طرحت أمام العقل الأغريقي: ففي اللغة اليونانية كانت كلمة لوغوس (Logos) تعبر عن الصلات الحميمة بين الكلام والفكر، وما يعتقده الأغريقي حول ذلك. فهذه الكلمة لا تفصل بين الفكر واللغة. وفي مذهب الفلاسفة الرواقيين لم يكن هناك فاصل بين الفكرة والكلام الذي يعبر عن هذه الفكرة. وكان اليونان يعتقدون أن الكلام بدون فكرة مستحيل كاستحالة التفكير بدون كلام. وكل كلمة لا تعبر عن فكرة محدودة كانت بالنسبة لهم ضوضاء لا قيمة لها. لدرجة أن هذا الباحث يقول: إن مفهوم كلمة لوغوس عند اليونان تستحيل ترجمته، لشدة الارتباط الذي يتضمنه المعنى بين ما هو فكر وما هو لفظ، من هنا جاءت الصعوبة التي يجدها الباحث في اللفظ لأنه مضطر باستمرار إلى البقاء في عالم المعاني وفي محيط الدلالات، لأن المتكلم يستعمل هذه الوسيلة ليخرج بها شيئاً داخلياً هو الفكرة، ولكن هذا نفسه دليل قاطع على أن اللفظ شيء والفكر شيء آخر.

□ □ □

(١) Ossip Lourié: Le Langage et Ia Verbomanie, Paris 1912, P. 22.

الفَصْلُ الخَامِسُ

اللُّغَةُ والمجْتَمَع

تبين لنا في ثنايا حديثنا عن نشأة الكلام، وعن صلته بالفكر أن اللغة ظاهرة فكرية إنسانية لا يمكن أن تنشأ إلّا في مجتمع يحتاج أفراده إلى التعامل بعضهم مع بعض. وينقلنا هذا إلى أسطورة رواها المؤرخ اليوناني هيرودوت (جزء ٢، فصل ٢) ونقلها عنه اللغوي الفرنسي المعاصر فندريس في كتابه «الكلام». يقول: إن فرعون مصر بسماتيك أراد أن يعرف أي الشعبين أقدم، المصريين أم اليونان، فأمر بإحضار طفلين بمجرد ولادتهما، ووضعهما معاً مع تحريم النطق بكلام من أية لغة أمامهما. وبعد بضعة أشهر من بداية التجربة سُمع الطفلان يقولان «بيكوس» وهي كلمة يونانية، في لهجة اليونان الفريجيين، معناها: «خبز». فاستنتج فرعون أن الفريجية هي أقدم لغات العالم[١].

وواضح أن القصة كلها مختلقة وأنها تنطلق من نقطة بدء هي أن الإنسان عند ولادته تأتيه اللغة إلهاماً. ومن الناحية العلمية نستطيع أن نؤكد أن فرعون مصر ولو أنه عزل طفلاً واحداً لا طفلين، ولو أن هذا الطفل لم يسمع من البيئة المحيطة به كلمة واحدة، لما استطاع أن يتكلم بأية لغة. ولكن الأسطورة تحدثنا عن طفلين. ولو أن التجربة قد وقعت، لكان من المحتمل بعد سنين طويلة من تعايش الطفلين معاً دون سماع أي كلام من الخارج، أن يخترعا هما لغة جديدة يتفاهمان بها لا تشبه المصرية ولا الفريجية في شيء. والذي يؤكد ذلك عملياً وتاريخياً هو ما يسمى في جغرافية اللغات بالجزر اللغوية، وهي مجتمعات محدودة

---

(١) J. Vendryés: le langage, p. 11

العـدد نسبياً، انعـزلت عن طوفـان الكتل اللغـوية الكبيـرة المحيطة بهـا، فبقيت وحدات لغوية مستقلة. من ذلك مثـلاً اللغة الألبـانية في العصر الحـديث، ولغة أخرى كانت في الشمـال الشرقي لإيـطاليا، في مقـابل إقليم ألبـانيا، هي اللغـة الأترورية، التي تكلم بها وكتبها شعب إيطالي غير لاتيني هو الأتروسك. ومن تلك الجـزر اللغويـة في المجتمعات المعـاصرة، لغـة البـاسـك في فرنسـا، ولغة النـوبة أو بـالأحرى لغـات النوبـة في مصر والسودان، واللغـة السقطريـة التي يتكلمهـا العرب من أهل جزيرة سقطرى في المحيط الهندي في مواجهة عـدن، وهي لغة، حسب تسجيل المستشرق «لسلاو» لها، تعتبر مزيجاً من العربية الفصحى والسبئية القديمة والسريانية أيضاً، إلى جانب نسب صغيرة دخلت في المزيـج من لغات أخرى[1].

وتعتبر رومـانيا جـزيرة لغـوية لاتينية قائمة في وسط العالم اللغوي السلافي، وهذا هو ما برر الإصرار عـلى ربطهـا بالتـراث الرومـاني اللاتيني وتسميتهـا رومانيـا.

وليس ثمـة شك في أن البحث في الـظروف الاقتصـاديـة والإقليميـة وفي طبيعـة الأرض والسـاكنـين فـي هذه الجزر اللغوية هو الـطريق الوحيـد الذي يـوصلنا إلى كشف أسرار هذا التفـرد اللغوي، وبقـاء المجتمع الصغيـر جزيـرة متميزة في خِضَمٍّ لغات أخرى بل لسنا مضـطرين إلى أن نذهب بعيـداً لتلمس أمثلة ذلك.

إذ إنه على مستوى اللغة الواحدة، أو حتى اللهجة الواحـدة، تظهـر جزر متميـزة لظروف اجتماعية أو اقتصادية معينة، فعندنا لهجة واحة سيوة التي يمتاز بها أهلها وتكاد لا تفهم بين غيرهم، وعندنـا كثير من القـرى في أقاليم مصر تميـزها لهجـة معينة يعرف بها أهلها مهما ابتعدوا عن مواطنهم، كالـذين ينطقـون الجيم دالاً في الصعيد فإذا ذكروا مدينة جرجا نطقوها «دردا»، وهنـاك الذين يبقـون على نـطق القاف العربية الفصحى في لهجتهم العامية، تسمعهم في ضواحي رشيد، وتتكرر أمثـال هذه المـلاحظة إذا تجـولنا في العـالم العربـي من الخليـج إلى المحيط، بـل تتكـرر في شتى لغات العـالم بفعل ظـروف محلية تعـطي للنطق وطـريقة التفـاهم تلويناً خاصاً في جهات معينة.

---

(١) W. Leslau: Lexique Soqotri; Paris, 1938.

ولأن اللغة من خلق الفكر، ولأنها خلقت خصيصاً لتيسير التبادل المادي والفكري مع المجتمع، ولأن المجتمع دائم التطور، فاللغة التي تسايره دائمة التطور أيضاً، وهي صورة صادقة لحضارته، فالمعجم اللغوي لأمة ما، هو في نفس الوقت صورة مخلصة لما تعرفه هذه الأمة في حياتها اليومية، وكيانها الاقتصادي والسياسي، وسلوكها الديني والأخلاقي، وتقدمها العلمي والفني. وانطلاقاً من هذه الفكرة يقول اللغوي الفرنسي أرسين دارمستيتر[1]: إن اللغة، أية لغة كانت وفي أية فترة كانت من وجودها، في تطور دائم مستمر، يتنازعها في تطورها هذا عاملان متناقضان تجاهد اللغة في الاحتفاظ بتوازنها بينهما، وبقدر احتفاظها بهذا التوازن يكتب لها طول العمر بين الناطقين بها، وهذان العاملان هما عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية أخرى.

أما فيما يتصل بعامل المحافظة، فإن اللغة بعد أن تصبح قادرة على أداء وظيفتها في التفاهم بين أبناء المجتمع الواحد، تتحول في ذلك المجتمع نفسه إلى وسيلة من وسائل الترف، مثلها في ذلك مثل الملابس والأطعمة التي بمجرد خروجها من حيِّز الوقاية ضد تقلبات الجو، أو خطر الجوع، تصبح عالماً حافلاً بإمكانيات الأبهة، وامتياز طبقة من الناس على طبقة أخرى أو فرد منهم على غيره، فالأزياء الغالية الثمن، الكثيرة الزينة والحلي النفيسة والفراء الثمين، والأحذية الأنيقة، والقبعات الفاخرة، والمنسوجات الفخمة، كل ذلك قد خرج عن الاستجابة إلى مطالب ضرورية، ليكون فناً يُقصد لذاته، لمجرد المتعة، وكذلك ألوان الطعام والشراب التي لم تعد قيمتها الغذائية في الحماية من الموت جوعاً تدخل في الحساب إلاَّ نادراً. وفي الذيل بعد جميع الاعتبارات، التي أهمها توفير اللذة الكاملة في المذاق، والتنعم عند النظر إلى المائدة، وربما نُظِر أيضاً إلى ألوان من النشوة كالتي يقصد إليها بأنواع الخمور التي يشربها البعض مع الطعام.

كذلك اللغة، مع تقدم الحضارة وتبلور التقاليد وتكوّن الذوق الجمالي،

---

(١) Arsène Darmeseter: la vie des mots ; Paris, Delagrave 1932 pp. 3-27

وحرص الآباء على أن يكون أبناؤهم صورة منهم، وصورة محسنة منقحة منقاة من الشوائب، كل ذلك أوجد لدى البشر إحساساً جمالياً بحتاً باللغة، بحيث لم يعد الإنسان يكتفي منها بمجرد الفهم والإفهام، بل راح يتلذذ بالجرس الحسن والصيغة الجميلة، والتعبير المحكم، والصورة البيانية الرائعة، وأخذ يتذوق ذلك، ويجذب إليه انتباه أبنائه ومَنْ يهمه أمرهم مِنْ ذويه، كما أقام الأسواق للشعر والأدب والخطابة، وأعطى المتفننين في استعمال اللغة فرصاً نادرةً في قيادة المجتمع، وحيازة الشرف والمجد والثروة.

وفي بعض اللغات توَّج ذلك كله نزول كتب مقدسة، أو ظهور نصوص دينية لها في قلوب المؤمنين بها جلالة وهيبة. وبسرعة أصبحت هذه النصوص نماذج لغوية، ومثلاً علياً، وحواجز في وجه التطور اللغوي الطبيعي في كثير من الأحيان. فنحن نعلم مثلاً أن اللغة اللاتينية التي ماتت في أوروبا كلغة للتخاطب بعد سقوط الدولة الرومانية بقليل، ظلت مع ذلك لغة العلم في أوروبا كلها قروناً طويلة بعد هذا التاريخ، لأن المثقفين هناك كانوا يرون فيها لغة الكنيسة ولغة البابوات ولغة الطقوس والصلوات في الكنيسة الكاثوليكية.

وعند الأمة العربية عرضت المشكلة بشكل آخر لعله أشد قسوة في ظاهره ولكنه مع إمعان النظر كان أقل تقييداً للغة العربية، ذلك أن القرآن الكريم لم يكن نصاً مقدساً وكتاباً دينياً عند العرب فحسب، ولكنه كان معجزة، وكان معجزة بلاغية، فإذا كان المسيحي الكاثوليكي يرى في قرارة نفسه أن لغة الكتاب المقدس في ترجمته اللاتينية «الفولجاتا» التي كتبها القديس جيروم تعتبر نمطاً يجب تقليده، فإن المسلم في قرارة نفسه كان يؤمن بأن القرآن لا يمكن تقليده ولو اجتمعت على ذلك الإنس والجن، فهو معجزة الرسول الكبرى، وبالتالي خفت قيوده اللغوية على الكتّاب والمؤلفين، واستطاعوا أن يبنوا حضارتهم الفكرية على تطور لغوي أكثر مرونة وأقل تعنتاً. بل إن الإسلام الذي جاء للعربي والعجمي على السواء قد وجد من مفكريه وفلاسفته من يسمح

بممارسة العبادة في حوزته بحدٍ أدنى من اللغة العربية، على أن يستمر المسلم في تفكيره من بعد بلغته القومية، فظهر من كبار مفكري الإسلام من كتب بالفارسية أو التركية أو الأوردو (لغة الباكستان) أو غيرها.

أما اليهود فكانت مصيبتهم في كتابهم، حسب النظرة التي نظروا بها إليه، سبباً في موت اللغة العبرية. وكانوا يعتقدون أن اللغة العبرية، قبل أن تنزل بها التوراة، كانت لغة الرب، ولغة الملائكة، وأن حروفها الإثنين والعشرين قد حفرها الله بيده في كبد السماء قبل أن يخلق شيئاً على الأرض. وتزمتوا جداً في ربطها بالدين، حتى فشلت كل المحاولات التي قام بها المصلحون من أنبيائهم لجعل الشريعة الموسوية شريعة عالمية، وذهبت دعوة أرمياء وأشعياء وغيرهما أدراج الرياح. وعندما بُعث المسيح كانت اللغة العبرية قد ماتت فعلاً على ألسنة الناطقين وحلت محلها اللغة الآرامية. أما إحياؤها مع الصهيونية المعاصرة فقد وقفت من ورائه العصبية العنصرية المتحفزة.

فعامل المحافظة إذن كان دائماً كابحاً للتطور اللغوي، لأنه ينطلق من فكرة أساسية وهي أن اللغة تراثٌ قومي، وقد يكون دينياً أيضاً، تقتضي الأمانة الحفاظ عليه كما كان على عهد السلف.

وأما عامل التطور فهو عامل ثوري متمرد على الجمود، تقف من ورائه الحضارة قوة دافعة. فاختلاط الناس بعضهم ببعض، والرحلة من مكان إلى آخر ووجود عناصر بشرية جديدة تدخل على مجموعة مستقرة فتؤثر في نطقها، والهجرة الجماعية من البيئة الأصلية إلى أمصار بعيدة أخرى، وتعاقب الأزمان والأجيال، مع وجود الفارق في دقة التلقي عن طريق السمع، وعن طريق المحاكاة بين الأبناء وآبائهم، كل ذلك يحدث عاهات عميقة في شكل اللغة بل يظهر فيها لهجاتٍ تتنوع وتنفصل عن اللغة الأم. مَنْ يدري مثلاً كيف كانت كلمة «شمس» تنطق في اللغة السامية الأولى؟ بشينين معجمتين، أم بسينين مهملتين، أم بشين وسين، أم العكس؟ هذا تحريف صوتي يتكرر بشتى الصور في خلال

تـطور اللغة. أمـا التطور النحوي، بالتـوسع في القيـاس ومحاولـة تطبيقـه، حيث لم يكن مطبقاً من قبل، فظاهرة شائعة في جميـع اللغات. من ذلك إجراء حـركات الإعـراب عـلى المضـاف في اللغـة العـربيـة بحيث نقـول: هـذا كتـابُ زيـد، (بضم البـاء) وقـرأت كتـابَ زيـد (بفتـح البـاء)، ونـظرت في كتـابِ زيـد، (بكسر الباء). هذا الإعراب لم يكن على الأرجح إلَّا استمراراً في عملية آلية هي تغيير الحركة في آخر الكلمة بتغير التراكيب. وبمقارنة العربيـة بغيرهـا من اللغات السامية نجد أن قواعـد الإضافـة في العبريـة والآرامية ثم في الأشـورية والبـابلية قبلها تؤكد أن المراحل الأولى للغة الساميين لم تكن تعرب المضاف. وما زال نحـاة العرب يقولون صراحة إن المضاف والمضاف إليه في حكم اللفظة الواحـدة. وقد عثر على نقش في جزيرة العرب يرجـع إلى عهد الـرسول وقـد وردت فيه صيغـة «علي بن أبو طالب»، ذكره كراوس وحميد الله في كتابهما «وثـائق سياسيـة من عهد النبوة والخلفاء الراشدين»، كما أن النحاة أشاروا إلى نوع آخـر من التوسـع الآلي في القياس النحوي يسمونه الإعـراب على المجـاورة، كقولهم: هـذا جُحْرُ ضبٍ خربٍ، بجر خرب لمجاورتها لضب مع أنها صفة لجحر مرفوعة.

فالتغيير الصوتي الذي يـطرأ على نـطق بعض الألفاظ والصيـغ، والتـوسُّع النحوي، الذي يظهر بالتدريـج، إن هي إلَّا مظاهر لتطور حيوي في اللغـة على ألسنة الناطقين، تضاف إليها مظاهر أوسع وأهم وهي ظاهرة الابتداع في اللغة. وهو أمر لا مفرَّ منه مع تعقدحياةالبشر وتقدم الحضـارة، ويكون ذلـك بإحـداث ألفاظ جديدة، أو إعطاء معانٍ جديدة لألفاظ قديمة، أو استعارة ألفاظ من لغـات أخرى. وظاهـرة الابتداع هـذه هي التي أوجدت في فقـه اللغات فكـرة المعاجم التاريخية، التي يحدد فيها بقدر المستطاع مولد كل كلمة في اللغـة وتاريـخ ذلـك، كما يبـين بالشواهد متدرجـة مع مـر العصور، تغـير الدلالات وظهـور المشتقات المختلفة من مادة الأصل، ويقابل ذلك التـوسع النحـوي السالف الـذكر مبحث من مباحث فقه اللغـة أيضاً، هـو النحو التـاريخي، أو تاريـخ التـطور النحوي، ويقابلهما في دراسة الأصوات كثير من الظواهر الصرفية، ولا سيما مـا اتصل منهـا

بالإبدال والإدغام والقلب والترقيق والتفخيم وما إليها. ولعل الابتداع الذي هو ألصق الظواهر بنمو الثروة اللفظية في اللغة من أوضح الشواهد على خضوع اللغة لنواميس الحضارة والاجتماع.

وسنسوق بعض أمثلة هذا النمو لنرى بوضوح كيف كانت اللغة العربية تسير في نفس الركب الذي سارت فيه الحضارة.

أمثلة من الألفاظ المبتدعة:

المئذنة: أصل المئذنة التي جاءت منها هذه الكلمة هو الأذن، عضو السمع المعروف، والأذان في الأصل هو الإعلان والإعلام، قال الفرزدق:

وحتى علا في سور كل مدينة　　　منادٍ ينادي فوقها بأذان

وواضحٌ أن معناه هنا الإعلان والنداء. وقال اللغويون: والتأذين مخصوصٌ في النداء إلى الصلاة والإعلام بوقتها، وقد أذّن الرجل تأذيناً وأذاناً وآذن يؤذن إيذاناً. كل هذا ملحوظٌ فيه المجاهرة بدعوة صوتية تصل إلى الأذن. أما المئذنة فهي موضع الأذان للصلاة، أو المنارة ـ كما في الصحاح، قال أبو زيد: يقال للمنارة المئذنة والمؤذِّنة. وقال اللحياني هي المنارة، يعني الصومعة، وأما قولهم «المأذنة» فلغة عامية. فالكلمة إذن من مصطلحات العمارة الإسلامية، تطلق اسماً على هذا البرج المرتفع فوق المسجد لتنطلق منه الدعوة إلى الصلاة. ولم نجد شاهداً على معرفة العرب لهذه الكلمة، لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، ومع ذلك فقد أخذت مكانها في المعجم العربي وتمتعت بنطقين فصيحين، وثالث عامي كما رأينا، لشدة ارتباطها بالنمط الفكري والحضاري للأمة الإسلامية.

المقذاف: هو تلك الخشبة الطويلة المفلطحة من طرفها الغائص في الماء، التي تستعمل في دفع السفن والقوارب وكأنها تقذفها إلى الأمام، أو لأنها تقذف الماء أثناء تحريكها، أو لأنها تسبب السير السريع، من قولهم: ناقة قاذف وقذاف وقَذُوف وقُذُف، وهي التي تتقدم من سرعتها وترمي بنفسها أمام الإبل في

سيرها ويقال له أيضاً الْمِقذف. وقد ورد فيه أيضاً لفظ مجذاف من قول العرب جذف الطائر أي أسرع بجناحيه، وجاءت هذه المادة كلها بالدال المهملة كذلك، إلاَّ أن شارح القاموس قد ذكر «مجذاف السفينة» وروي عن الجوهري أن ابن دريد قال هو بالدال والذال جميعاً، لغتان فصيحتان، وفي «المحكم»: مجداف السفينة: خشبة في رأسها لوح عريض يدفع بها، مشتق من جدف الطائر، وقال أبو عمرو: جدف الطائر، وجدف الملاح بالمجداف وهو المِرْدَى والمِقْذَف والمِقْذاف. وإن كنا نلاحظ أن صاحب «القاموس» ذكر مجذافة السفينة، وعقب عليه الشارح بقوله هكذا في النسخ والأُوْلى مجذاف. وقال الشرتوني في أقرب الموارد: جَدَفَ الطائر ــ مثل جلس ــ طار وهو مقصوص كأنه يَرُدُّ جناحيه إلى خلفه. وواضح من تعدد أشكال النطق في هذه الكلمة، ومن محاولة اللغويين ربطها بأفعال تخص حركة الإبل أو الطيور أنها مبتدعة، وهذا ليس بعجيب؛ فصلة العرب بالملاحة البحرية، فيما عدا بعض القبائل المقيمة في الخليج ،لم تكن أصيلة في حضارتهم، ولا قديمة العهد عندهم.

المِدْخَنَة: الدخان هو العُثان، أي ما ينبعث من النار مسوداً متصاعداً، وورد فيه على وزن غُراب وعلى وزن جَبَلَ، ومنه قول العرب: هدنة على دَخَن، كما تنطق بالتشديد على وزن رُمَّان. أمَّا المدخنة فهي اسم مبتدع يطلق على ما يخرج منه الدخان من أنبوب أو كوَّة، ونص الشرتوني في «أقرب الموارد» على أنها بفتح الميم وأنها مولدة، أما المِدْخنة بكسر الميم فهي المِجْمَرة، أي الموقد الذي يهيأ فيه الجمر، وجمعها مداخن، ولم نجد شاهداً في كلام العرب الأقدمين على المدخنة لا بالفتح ولا بالكسر، والظاهر أن العرب كانت تستعمل كلمة أخرى هي الداخنة، نقل ابن منظور في لسان العرب عن التهذيب: الداخنة: كُوى فيها أرْدَبَّات تتخذ على المقالي والأُتُّونات، وأنشد:

كمِثْل الدواخِنِ فوق الارينا.

أمثلة من الألفاظ المنقولة إلى معنى جديد :

المِدفع : هو آلة الحرب التي تدفع القذيفة بعيداً بقوة انفجار البارود أو غيره من المتفجرات. وهذه الكلمة المنقولة الحديثة أجمل وأكثر عروبة من الكلمة القديمة «منجنيق» أو « منجنوق »، للآلة التي تقذف الحجارة في الحروب القديمة، والتي ظن بعض أصحاب المعاجم أنها فارسية، قال شهاب الدين أحمد الخفاجي في كتابه «شفاء الغليل، في ما في كلام العرب الدخيل»: منجنيق معرب «من جه نيق» أي ما أجودني، أو أنا شيءُ جيدٌ، لأنه لا يجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية، غير اسم صوت؛ بكسر الميم كما في القاموس، وضبطه أبو منصور بفتحها، آلة لرمي الحجارة كالمنجنوق، ومنجليق لغات فيه، معربة. وقيل الأقرب أنه معرب «منجل نيك» ومنجل ما يفعل بالحيل. والذي نراه هو رأي الأب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه: «غرائب اللغة العربية» من أنه من أصل يوناني هو (منجنيكون Manganikon)، وواضح أن الكلمة المولدة «مدفع» أخف على الألسنة، كما أنها أقرب إلى سليقة اللغة، ولذلك انتشرت بين الخاصة والعامة.

القطار : كان عند العرب مجموعة من الجمال يسير الواحد منها وراء الآخر وقد قَرُب بعضها إلى بعض، يقال جاءت الإِبل قِطاراً بالكسر أي مقطورة. واستعمل القطار لكل سرب من الكائنات الحية يسير الواحد منهم وراء الآخر، حتى قيل قطار النمل قال أبو النجم العجلي:

وأقبل النمل قِطاراً تَنْقلُهْ   وانْحَتَّ من حَرْشاء فلجٍ خَرْدَلُهْ

ونُقِلَ اللفظ في العصر الحديث للدلالة على الصف من مركبات السكة الحديد المربوطة بعضها في بعض والمقطورة بقاطرة. وهكذا يوصلنا القطار المولد إلى القاطرة والمقطورة معاً.

الدراجة : اسم مولد للناقلة ذات العجلتين الخفيفتين. لأن راكبها يحرك رجليه على دولابها الأوسط المسنن بِدالاً كأنه صاعد على درج.

السيارة: من الفعل سار يسير، وهي صيغة مبالغة استعملت قديماً بمعنى القافلة، قال تعالى في سورة يوسف ﴿**وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرُّوه بضاعة والله عليم بما يعملون**﴾؛ وواضح أن السيارة بمعنى القافلة اسم جمع يدل على مجموع المسافرين في القافلة. ويزداد ذلك وضوحاً في قوله تعالى في نفس السورة: ﴿**قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيَّارة إن كنتم فاعلين**﴾ ونظراً لوجود كلمة القافلة فقد نقل المحدثون الكلمة إلى معنى عربة (الأوتومبيل).

الهاتف: يستعمل في اللغة الحديثة بمعنى (التليفون). والفعل هتف معناه صاح، والهاتف في الأساطير العربية القديمة نوع من الجن يُسمع صوته ولا يُرى شخصُه. ومن هنا جاء في ذهن المحدثين وجه الشبه بينه وبين مَنْ يتحدث مع غيره بهذه الآلة فيسمعه ولا يراه.

الطيارة: من الفعل طار يطير، وهي صيغة مبالغة نقلت في العصر الحديث للدلالة على آلة النقل الجوي المعروفة، وتستعمل أيضاً لفظة الطائرة بصيغة اسم الفاعل البسيطة. ونلاحظ أن «السيارة» انتشرت على ألسنة العوام بنسبة أقل من الطيارة أو الطائرة، إذ ما يزال في العالم العربي من يقول (أوتومبيل) صحيحة أو محرفة، بينما لا يعرف العرب في حديثهم العادي اسماً للمركبة الهوائية غير الطيارة أو الطائرة، ولا تستعمل أسماؤها باللغات الأجنبية على الإطلاق.

الإذاعة: وهي إرسال الصوت على أمواج الأثير ليسمع من أجهزة استقبال في أماكن بعيدة عن مصدر الصوت نفسه. والأصل أنه مشتق من الفعل ذاع بمعنى شاع وانتشر وعرفه الخاص والعام، القريب والبعيد، يقال شاع وذاع وملأ الأسماع. ثم استعملت الإذاعة حديثاً في نقل الصوت بالراديو، وجاء منه المذياع لجهاز الاستقبال، وكان الأولى إطلاقه على جهاز الإرسال، كما اشتق من نفس المادة المذيع وهو الموكل بتقديم البرامج في دار الإذاعة، ولا أقول محطة الإذاعة، لأن المحطة تقتضي السفر قدوماً أو رحيلاً، حيث يحط المسافرون

أحمالهم وحيث تحط الطيور المهاجرة لتستريح، فقد تصدق المحطة على القطار أو السيارة أما الإذاعة فلا.

أمثلة من الألفاظ المأخوذة من لغة أخرى:

الصراط: وأصله الكلمة اللاتينية (ستراتا strata)، وهو الطريق الواسع الكبير المستقيم المعبد، وقد أمدَّتْ الكلمة اللاتينية لغات أخرى، ففي الإنجليزية (Streat)، والألمانية (Strasse)، والإيطالية (Strada)... إلخ.

الخندق: بالفارسية «خنده» وكذلك «كنده» بمعنى المحفور.

الأسفنط: قالوا إنه أجود الخمر، وهو المتخذ من عصير العنب المطيب. وأصله يوناني هو (Apsinthion)، وهو نوع من النبات كانت الخمر تُعَطَّر بِهِ. وهذه الكلمة الأخيرة قد دخلت إيضاً إلى اللغة العربية للدلالة على هذا النبات العطري بلفظ «أفسنتين»، ذكره داوود الأنطاكي في «التذكرة» وجعل من خصائصه أنه يمنع السُّكْر، فلعله كان يضاف إلى الخمر لكسر حدتها.

السكر: وهو المادة الحلوة المعروفة ويكاد يكون اسمه هذا عالمياً، فلم أجد فيما اطلعت عليه من أسماء في ست وعشرين لغة مختلفة[1] لفظاً يخرج عن هذا الأصل إلا في اليابانية حيث يسمونه «ساتو»، وفي الأندونيسية حيث توجد كلمة «جولا» إلى جانب كلمة سكر. ويبدو أنه من أصل هندي وأنه يرجع إلى السنسكريتية القديمة حيث توجد كلمة «سركرا» وكان معناها الأصلي حبيبات الرمل لأنهم كانوا يستعملون السكر مسحوقاً كحبيبات الرمل[2].

الشاي: ويكاد هو أيضاً يكون اسماً عالمياً مع تحريفات صوتية طفيفة. فهو في الفارسية والتركية «تشاي» وأصله من اللغة الصينية واللفظة الدالة عليه فيها هي (تشا Tchaa).

---

(١) Peter M. Bergman: the concise dictionary of 26 languages, New York 1968.

(٢) E. Littré: dictionnaire de la langue Française, Paris 1833.

الليمون: اختلف فيه هل هو معرّب من الفارسية أو من اليونانية، والأرجح أنه يوناني الأصل.

البرتقال: فاكهة موطنها الأصلي في الشرق الأقصى، وقد جلبها إلى حوض البحر الأبيض المتوسط البحارة البرتغال فسميت باسمهم، ولذلك يسميه البربر في المغرب اللتشين وهو اسم الصين في لغتهم. وكأنهم يسمونه فاكهة الصين.

القرش: وهو العملة المعروفة، ويسمى أحياناً الغرش، من كلمة لاتينية الأصل هي (جروسو Grosso)، ومعناها الأصلي الكبير، واستعمل الألمان قديماً كلمة (جروشن Gruschen) اسماً لقطعة من النقود تساوي اثني عشر جزءاً من مائة من المارك، وعرفها البلغار وسكان رومانيا والمجريون والأتراك بلفظ جروش أو غروش.

الريال: اسم لنقد قديم عرف في المغرب وفي كثير من بلاد الشرق العربي وأصله من كلمة (ريال Real) الأسبانية التي تقابل الإنجليزية والفرنسية (رويال Royal) بمعنى الملكي، وكأن الريال هو العملة المسكوكة باسم الملك، والصادرة من قصر الملك، فسميت هكذا أي النقد الملكي.

ولا يقتصر أمر الصلة بين المجتمع واللغة على ما نلاحظه من تبعية تفرضها ظروف الحضارة على ألفاظ اللغة كما مثلنا لذلك فيما سبق، وإنما هناك آثار أكثر عمقاً ما تزال جديرة بالتنبه وبالبحث. ففي البلاغة العربية مثلاً يوجد مبحث كامل للفصل والوصل يهتم بوصف أبلغ الأساليب وأمثلها في تحديد صلات الجمل في الكلام، كل جملة بما قبلها وما بعدها. فيذكر في هذا الباب كيفية الوصل بين جملتين بالواو، وكيفية ربطهما ببعض أدوات الإضراب والاستدراك مثل بل ولكن، كما يذكر فيه ما يلزم لقطع الجمل المتتابعة بعضها عن بعض. والدارس لهذا الباب يشعر أن معظم قواعده وشواهده مأخوذ من نصوص قديمة من الأدب العربي شعراً ونثراً، في وقت كانت الفصاحة والبلاغة أساسها المشافهة، أي سماع الكلام بالأذن من شاعر أو متحدث أو خطيب.

ولكن ظهرت بعد ذلك الكتابة، وغلب النص المكتوب على الكلام المنطوق، ثم ظهرت المطبعة، وأصبح القارىء لا يرى الكاتب ولا يسمعه، ومع رقي الكتابة والطباعة ظهر فن التقسيم والتنقيط، فعرفت اللغات المكتوبة الفصلة، والفصلة المنقوطة، والنقطتين الرأسيتين، والنقطة الكاملة، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب، وشرطة الاعتراض، وشرطة الربط، ونقط التعليق الأفقية. . . إلخ. وواضح أن كل هذه الإشارات تفيد الفصل أو الوصل، بل تفيد ما يزيد على ذلك، فليس عجيباً والحالة هذه أن يظهر تسامح شديد في التزام هذا الباب من قواعد البلاغة، إذ يكتفي الكاتب العصري بهذه العلامات. ولكن تعود المشكلة فتقفز من جديد في مجتمعنا المعاصر مع ظهور الإذاعة والتلفزيون (الإذاعة المرئية) والمسرح والسينما، وكلها تعتمد من جديد على المشافهة لا على الكتابة والقراءة مما يقتضي عودة إلى قواعد الفصل والوصل البلاغية. ولما كان كثير من المشتغلين بهذه الألوان من النشاط الثقافي، ينطلقون من نصوص مكتوبة أو مطبوعة، فقد كثر شعور المستمعين بالملل، الذي يرجع بنسبة كبيرة إلى هذه المفارقة بين الفصل والوصل بالعلامات في النصوص المكتوبة، والفصل والوصل البلاغي بالأدوات والسكتات والنبرات في النصوص الملقاة على الأسماع.

كذلك تؤثر الصبغة العامة التي يتسم بها نشاط المجتمع في عصر من العصور على أسلوبه في الأداء: ففي العصور الوسطى كانت الحياة تسير في تقاليد رتيبة بطيئة في كل أنحائها، فالمواصلات البرية كانت على ظهور الدواب أو بعربات تجرها هذه الدواب، والمواصلات البحرية كان عمادها سفينة بالشراع أو بالمجاذيف، والصناعة كانت كلها يدوية، والكتابة والتعليم والثقافة كانت تعتمد على المخطوطات والمستنسخات، والحرب كانت بالقوس والسهم والسيف والرمح والمنجنيق، وكان مرور الزمن بطيئاً، فكان يلذ للناس إذا قرءوا أن يكون الكتاب مسهباً مطولاً حتى تدوم التسلية وقتاً طويلاً، وهذا ما برر ظهور مؤلفات مثل الكوميديا الإلهية لدانتي في إيطاليا، والدون كيشوت لسرفانتس في

أسبـانيا، وجـرجانتـوا وبنتجرويـل لرابليـه في فرنسا، وألف ليلة وليلة، وقصص أبي زيد الهلالي وعنترة في العـالم العـربـي، والشـاهنـامــه للفـردوسي، والمثنــوى لجلال الدين الرومي عند الفرس. كان عنـد الناس الـوقت، والاستعداد النفسي لقتل هذا الوقت وتبديده. أما اليوم فلا يمكن أن نتصور سيناريـو للسينما مكتـوباً بطريقة أبـي زيد الهلالي، ولا روايـة عصريـة تنتهج نهج الـدون كيشوت أو ألف ليلة وليلة، ولا نتصـور محرراً في جـريدة يـومية يكتـب الخبـر عـلى طريقـة إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنـي العباس للأقليدي، فالسرعة العلمية التقنيـة التي تعمـل بها الـطائرات النفـاثة والآلات الإلكتـرونية والمـطابـع الآلية والـلاسلكي والمصــانــع ذات الإنتاج الغـامر الأوتـوماتيكي، كـل ذلـك لا يسمـح لا مـاديـاً ولا نفسانياً بأن يأخذ الأسلوب البطيء في القصص أو السامرة أو التـأليف مكانـه في هذا المجتمـع. لو أننا قـرأنا عـدداً من صحيفة يـومية صـدر اليوم وعـدداً من نفس الصحيفـة صدر منـذ خمسـين عـامـاً لأحسسنـا بتـزايد السـرعـة في العـدد الحـديث، وبرغبـة الكاتب في الإيجـاز، إلا بعض المتسكعين من الكتـاب الذين ما يزالون يجترون أنماط الآباء المعروفة قبل أن يتغيـر الزمن. وفي ميدان الصحافة بخاصة، نجد مَعْلماً للأسلوب السريع هو البرقية التي تفرض نفسها بما فيها من إيجاز وتجـرد من فضول القـول على أقـلام الصحفيـين، حتى أصبح بعضهم يكـاد مِنْ تأثره بذلك يقع بأسلوبه في الإيجـاز المخل. وقد قالوا قـديماً إن الأسلوب الأمثـل هو الذي سَلِم من التطويل الممـل والاختصار المخـل. وكأنهم عنـوا به الأسلوب الذي يماشي سرعة عصره.

وكما يؤثر المجتـمع بمعناه الواسع في تـطور اللغة تـتـأثر أيضـاً بالمجتمعـات الضيقة في داخل المجتمع الواحد، فتظهر ألفاظ وتعابـير خاصة بأصحاب الحِرف المختلفة لا يكاد يعرفها غيرهم. يقول الدكتور السامرائي في كتـابه «دراسـات في اللغة»:

«وقد فطن الجاحظ إلى استعمالات ولهجات الطبقـات الدنيـا في المجتمـع في أيـامه، فهـو يعرض للغـة المتسولـين والمحتـاليـن ولا سيـما مـا جـاء في كتـاب

«البخلاء» من هذا الباب . . . كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة، وهم اللصوص، وقد كتب في الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص، وقد جاء ذكر الكتاب في مظان عدة. ومن المفيد أن نذكر أن الجاحظ لم يكن أول من كتب في اللصوص، فقد كتب أبو عبيدة في الموضوع نفسه، غير أنه إذا عرفنا أن نزعة الشعوبية عند أبي عبيدة هي التي دفعته إلى الكتابة في هذا الموضوع للانتقاص من العرب وتعصباً للفرس (كذا) .

«ولعل هواية الجاحظ في تسجيل آداب العوام وملحهم وظرفهم هي التي دفعته إلى أن يسجل حكايات عن الملاحين مع ذكر مصطلحاتهم التي يستعملونها[١].

ومن أوضح الأمثلة للغة الخاصة التي يتفاهم بها أهل فئة معنية، القصيدة الطويلة التي كتبها في القرن الرابع الهجري، الشاعر الماجن المتسوّل أبو دلف الخزرجي الينبوعي، مسعر بن مهلهل، واشتهرت باسم القصيدة الساسانية، وقد اختار منها أبو منصور الثعالبي قدراً لا بأس به أورده في «يتيمة الدهر» وشرح فيه المصطلحات الخاصة بالمتسولين. ومن ذلك قوله فيها:

وَمِنَّا حَافِرُ الطرس   بلا خَرْط ولا جَهْرِ
وَبَرْكُوشٌ وَبَرْكَكٌ   وَمُعْطِي هَالكَ الجزْرِ
وَمَنْ قَرْمَطَ أَوْ سَرْمَطَ   أَوْ خَطَّطَ في سِفَرِ
وحَرَّاقٌ وبَزَّاقٌ   بني الشِخَيِّرَ والنَّشْرَ
وَمَنْ زَكّر والقَوم   الزكُورِيُونَ في الصَّدْرِ
وَمَنْ دَهْشَمَ بِالْكَرشِ   وَيَسْتَبْرِد فِي النَّهْرِ
وَمَن يُعْطِي الضَمَانَاتِ   مِنَ الزَنْكَلَةِ الْعُفْرِ

ويشرح الثعالبي رموز هذه اللغة المغلقة فيقول: (حافر الطرس)

---

(١) الدكتور إبراهيم السامرائي : دراسات في اللغة. بغداد ١٩٦١، ص ١٩٩ .

هو الذي يحفر القوالب للتعاويذ، فيشتريها منه قوم أميُّون لا يكتبون، وقد يحفظ البائع النقش الذي عليه، فينفذ التعاويذ إلى الناس ويُوهم أنه كتبها، ويقال للقالب الطرس. (بركوش) هو الذي الذي يتصامم ويقول للإنسان: تكلم على هذا الخاتم باسمك واسم أبيك، فيسمع ما يقوله وينبئه به. (بركك) هو الذي يقلع الأضراس ويداوي منها، و(الهالك) الدواء، (والجزر) البصر، ويقال للعين الجزارة. (قرمط) هو الذي يكتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط. و(سرمط) كتبُ، والسرماط الكتاب. (الحراق) الذي تكون معه مرآة تشعل منها النار وتسمى حراقة و(البزاق) الذي يرقي المجانين وأصحاب العاهات، ويتفل عليهم. (زكر) كَدَّى على الأبواب، وهو من أجلائهم. (ومن دهشم) مَخْرقَ وموّه بأنه صائم، و(الكرَشْ) الصوم، والجوع أيضاً، ويكون قد أكل في منزله، فإذا عطش نزل في النهر بعلّة الاستبراد وشرب ما أراد، (الزنكلة العفُر) واحد، وهم المُعافِروُن، يأخذون الحجيج ويضمنون الجنة(١).

وقد أفاض المؤلفون في الكلام عن صلة التطور اللغوي بالاقتصاد والدين والأخلاق والكشف العلمي، وهم في ذلك يسوقون أمثلة يستطيع أي مهتم بالبحث اللغوي الاجتماعي أن يجد لها نظائر حيثما شاء.

□ □ □

(١) يتيمة الدهر في شعراء العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، المتوفى سنة ٤٢٩هـ، مطبعة الصاوي، القاهرة ١٢٥٣هـ ـ ١٩٣٤م، ج ٣، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

الفصل السادس

مظاهر التطور اللغوي

وهذه شعبة من البحث اللغوي مكانها الطبيعي هنا بعد أن أخذنا فكرة عن علاقة اللغة بالفكر وبالمجتمع. ومظاهر التطور اللغوي كثيرة جداً لا يكاد يحيط بها حصر، ولكن هناك خطوطاً رئيسية في هذا التطور ينبغي التعرف عليها.

وبداية ذلك أنه ما دام الفكر الإنساني نفسه في تطور مستمر، ينتقل من البسيط إلى المركب، ويخطو دائماً في درجات النمو والاتساع والتعقيد، فإن اللغة التي هي آلته لا تستطيع كما قلنا أن تقف حيث هي وتبقى مع ذلك على قيد الحياة، بل يجب أن تتطور هي أيضاً، وفي عدة اتجاهات.

فمن حيث النمو، تبدو بسيطة جداً، ثم سرعان ما تتعقد مع رغبة الإنسان في أن يجعل لفظه مرآة دقيقة صادقة لكل الاختلاجات والعمليات الجزئية التي تجري داخلياً في فكره ونفسه. ومن هنا كان النحو في اللغات القديمة مختلفاً عنه في اللغات الحديثة المتطورة عن هذه اللغات القديمة.

فمثلاً يكثر في اللغات القديمة تغيير أواخر الكلمات بحسب الوظيفة التي تؤديها كل كلمة في الجملة، وهي الظاهرة التي يسميها نحاتنا بالإعراب. ففي اللغة العربية تُضم أواخر الأسماء إذا كانت أركاناً رئيسية في الإسناد، أي في بناء الفكرة المضمنة في الجملة، كالفاعل ونائب الفاعل، والمبتدأ، والخبر، ويسمي النحاة تلك الضمة رفعاً، أما إذا كانت هذه الأسماء فضلات غير مباشرة، أي تتمات للجملة، أو لبعض أجزائها، تتصل بما تتعلق به بواسطة روابط كحروف الجر، أو كأسماء أخرى، في حالة الإضافة، أتت هذه الأسماء مكسورة الآخر،

ويسمى ذلك في النحو جراً. وإذا كانت الأسماء تتمات مباشرة للإسناد الموجود في الجملة كأن يقع مفعولاً به للفعل، أو حالاً، أو تمييزاً، أو ظرفاً، فإنها تكون مفتوحة الآخر ويسمى ذلك نصباً.

وقد لوحظ أن مثل هذه التغييرات تَرِدُ في غير اللغة العربية: ففي اللغات السامية، التي هي من نفس العائلة اللغوية للغتنا، نجد اللغة الأكادية بفرعيها البابلي، والأشوري، تجري على نفس قواعد الإعراب العربي، من الرفع بالضمة والنصب بالفتحة والجر بالكسرة، في المواضع المماثلة من الجملة. كما لوحظ أن نفس ظاهرة الإعراب تأتي بشكل آخر لكن على نفس الأساس، وهو تغيير آخر الكلمة بتغيير التراكيب، في لغات قديمة تنتمي إلى عائلات لغوية أخرى، فمن ذلك اللاتينية، واليونانية، والألمانية، ومن قبلها السنسكريتية الهندية، التي تعتبر أمّاً لهذه اللغات ولبقية اللغات الهندية الأوروبية.

كذلك نلاحظ أن الفعل المضارع في اللغة العربية يُعْرَبُ، لكن لمعانٍ أخرى غير التي يعرب لها الاسم، فهو يأتي مرفوعاً إن دل على مجرد وقوع الحدث في الحال أو الاستقبال، أو إن دل على وقوعه على وجه الاستمرار والعادة والقانون المقرر، نقول مثلاً: المطر ينزل الآن، المطر ينزل غداً، المطر ينزل في الشتاء في بلادنا، فنرفع الفعل المضارع في كل هذه الحالات. فإذا تمحض وقوع الحدث في المستقبل على وجه الانتظار والاحتمال، استحق الفعل المضارع الذي يعبر عنه النصب، نقول مثلاً: أملنا أن ينزل المطر، انتظرنا حتى ينزل المطر، صلينا كي ينزل المطر، تكوّن السحاب لينزل المطر، لن ينزل المطر... إلخ، أما إذا أريد بالمضارع معنى القطع بوقوع الحدث، أو اشتراط وقوعه حتماً، استحق الفعل المضارع الجزم بالسكون، كما في حالات الجزم والشرط المعروفة، نقول مثلاً: إن ينزل المطر نزرع، لم ينزل المطر، لما ينزل المطر... إلخ.

فالرجل القديم عندما فكر في التوزيع الوظيفي للألفاظ داخل الجملة، رأى أن يميز عمل كل لفظة بنهاية صوتية معينة، وكانت له بذلك حرية واسعة جداً في أن يرتب هذه الألفاظ داخل الجملة كما يشاء. فاللفظ، ما دام يحمل

العلامة المميزة لمهمته، يجوز فيه التقديم والتأخير، بل يمكن أن يحذف من الجملة إذا بقى فيها ما يدل عليه ويجعله مفهوماً من السياق. هذا الإعراب على ما يبدو للمتعلمين من تعقيد، يعتبر طريقة بسيطة لتمييز وظائف الألفاظ في الكلام المركب، وهو أقل تعقيداً من طريقة الكلام في اللغات الخالية من الاعراب كما سنرى.

فأثناء تطور اللغة جنح الناطقون بها، ولا سيما بعد أن دخلت بينهم شعوب كثيرة غريبة على المجتمع اللغوي النقي القديم، إلى التخفيف من قيود الإعراب وهكذا اختفى نهائياً في اللغات واللهجات الحديثة التي ولدت من اللغات القديمة الفصيحة: فالفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية لا إعراب فيها ، مع أنها مشتقة من اليونانية واللاتينية وهما معربتان . والإنجليزية التي تلتقي في أرومة واحدة مع سائر اللغات الجرمانية (ترجع في النهاية إلى الهندية الأوروبية كذلك) تخلصت من الإعراب، بينما هو لا يزال محترماً في الألمانية الفصحى. ومع ذلك فلعل من الطريف أن نلاحظ آثاراً باقية من الإعراب في الانجليزية مثلاً، نحو التغيرات التي تحدث في ضمير المفرد الغائب (he, him, his).

وفي اللغة العربية بدأ الجنوح إلى إهمال الإعراب في بعض قبائل العرب منذ الجاهلية، كقول الشاعر:

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثماً من الله ولا واغلِ

وهو كما نرى لم يعرب الفعل المضارع أشرب ونطق آخره موقوفاً، وكقول الراجز:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

فهو لم يعرب كلمة أب ولا المثنى في آخر البيت ويقول المثل: «مكرهٌ أخاك لا بطل» وهو أيضاً لم يعرب كلمة أخ. وقد سبق أن أشرنا إلى أن المضاف لم يكن يعرب في بعض لهجات العرب الأقدمين، وروينا من ذلك النقش الذي جاء فيه «علي بن أبو طالب».

والـظاهر ــ كما يرى المستشـرق يعقوب بـارت، ويوافقـه فِلْهاوْزِن وريـنـان وغيرهما[1] ــ أن لغة القرآن الكـريم، وهي لغة سـدنة الكعبـة وأمراء الحـج من قريش، كانت على أواخر الجاهلية قد أصبحت «لغة فصحى» أو «لغـة مقدسـة» بالمعنى الكامل لذلك، أي أن عامة العرب كـانت لا تدقق في مـراعاة كـل أركان الفصاحة التي تمتاز بها، وكانت لكل قبيلة لهجة مختلفة، مما جعل هذه اللغة الفصحى لغـة دين وثقافة ولغة دبلوماسية رفيعة يتفاهم بها الرؤساء وقادة الرأي في القبائل. وكـان أكثر النـاس يحتاج إلى تعلمهـا، فيحفـظون الأشعـار والخـطب والأمثـال، ويتتلمـذون على كبـار الشعراء والأطبـاء والكهنة والعـرافين والخـطبـاء، حتى إذا أتقنها الواحد منهم فرحت به قبيلته لأنه صار أهلاً لتمثيلها في الأسواق والمنتديات الكبرى، ينطق بمفاخرها ومآثرها، ويكون سفيراً لها مدافعاً عن مصالحها. ونحن نعلم أن اللغة العربية الفصحى التي نزل بهـا القرآن الكـريم، بناءً عـلى أحدث أبحـاث فقه اللغـة التاريخي والمقـارن[2]، أقرب الصـور إلى ما كـانت عليه لغـة الساميين الأم، تلك اللغة الأصلية المندثرة، التي تفرعت عنها كل هذه المجموعة التي نسميها اللغات السامية من أكادية (بابلية ــ أشورية)، وكنعـانية (فينيقيـة ــ مؤابية ــ عبرية)، وأرامية (سريانية ــ نبطية)، وعربية (عدنانية ــ قحطانية يمنية)، وحبشية (جعزية ــ أمهرية)... إلخ. فإذا ما تبين لنا أن الأكادية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل ميلاد المسيح، إذا قـورنت بالعـربية الفصحى ظهـر أنها، على شدة شبهها بلغة العرب، وكأنها متطورة متساهلة في كثير من المقومات والمميزات القديمة للغة السامية، فإنه يصبح من المرجـح أن اللغـة العربيـة الفصحى أقـدم بكثير جداً مما تقف عنده نصوصها ومروياتها الجاهلية، وأنها بهذا القـدم، وبعدد

---

(١) راجـع مـثـلاً: Ernest Renan: Histoir Générale et Systéme Comparé des Langues Sémitiques, Paris 1855, PP. 320-388.

(٢) راجـع: C. Brockelmann: Grundriss der Vergleichenden Grammctik der Semitischen Sprachen, 2 vols, Berlin 1908-1913.

William Wright: Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Amsterdam, philo Press 1966.

من الأنبياء الذين ظهروا بين أهلها في قديم الزمان كشعيب وهود وصالح ، وبالكعبة التي شيدها إبراهيم الخليل عليه السلام في مكة ، كانت تعتبر ـ حتى عند الجاهليين ـ لغة مقدسة حقاً ، وهو ما يبرر كون معجزة الإسلام ، أي القرآن الكريم ، قد جاءت من صميمها ؛ ولعل ما يرويه المؤرخون عن العرب من تقسيم أمتهم إلى عرب بائدة وعرب باقية ، ثم تقسيم هذا الجنس الأخير إلى عاربة ومستعربة ، هو نفسه صدى لهذا القدم الموغل في مجاهل التاريخ التي انقطعت دونها الرواية ولم ترد منها أية كتابة . ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة مما كتبه الأكاديون ، بابليين وآشوريين ، ورد فيها ذكر العرب ، وكذلك جاء ذكرهم في الكتب الدينية العبرية في العهد القديم والتلمود وغيرهما .

لا عجب ، والحالة هذه ، أن تكون هناك لهجات تختلف قرباً وبعداً من العربية الفصحى على أواخر الجاهلية ، حتى إذا ما انتشر الإسلام في خارج بلاد العرب ، حدث تفاعل بين هذه اللغة وبين لهجات الأمم المجاورة ، وظل هذا التفاعل يقوي ويزداد نشاطاً مع كثرة الألسنة الغريبة التي دخلت في الإسلام أو انضوت تحت لواء الحضارة العربية ، إلى أن تمَّ تخلّق اللهجات العامية التي نعرفها الآن في العالم العربي ، متخلصة تماماً من الإعراب .

ومع التخلص من الإعراب يحدث دائماً تقييد وتحديد من حرية المتكلم في التقديم والتأخير والحذف ، فاللفظة وقد أصبحت لا تَحْمِلُ في نهايتها العلامة الصوتية المميزة لوظيفتها في الجملة ، تحتاج بدل هذه العلامة إلى أن يكون لها مكان ثابت في نظام الألفاظ في داخل الجمل ، بحيث تعرف وظيفتها من هذا المكان الذي تشغله ، ولذلك فإن علم التركيب (Syntaxe) يزداد دقة وتعقيداً ، ويفقد كثيراً من مرونته القديمة في اللغات الموقوفة ، أي التي ليس فيها إعراب .

ولكن ، هل الانتقال من التركيب المعرب إلى التركيب الموقوف يعتبر ظاهرة حتمية في تطوّر اللغات؟ نعم ولا .

نعم : لأن الجملة التي يصنعها المتكلم في المجتمعات القديمة إنما يصنعها في نفس الوقت الذي يصنع فيه فكرته نفسها . وهو لذلك يحتاج إلى أقصى حد من

المرونة في التركيب والترتيب حتى تتيسر له هذه المسيرة التي يلاحق فيها اللفظ جزيئات المعنى وهي ما تزال في طور التكوين. والذين لهم بعض اتصال باليونانية القديمة مثلاً أو بالبابلية يعرفون هذا الوجه من الذوق اللغوي الذي يميز التعبير القديم، حيث يكثر في الجملة رد المتأخر على شيء سبق النطق به، وهو يتعلق به تعلقاً فكرياً؛ كما تكثر صيغ التردد والاحتمال بدرجاته، وأدوات الفصل والوصل، وأنواع من الزوائد تتجاوب مع حركات عقلية جزئية تختلج في الفكر في لحظة التعبير. على حين أن المتكلم باللغات الحية المعروفة يكاد يفرغ من تكوين فكرته داخلياً قبل سبكها في قالب الكلام، فيقل فيها ما يشعر بهذا الجهد الداخلي في بناء الفكرة نفسها.

ولا: لأن أصحاب لغة ما، قد يشقون طريقهم نحو التطور والحضارة في ظل كتاب مقدس يحتم عليهم الإبقاء على الطابع العام المميز للغة وهو الإعراب، فاللغة اللاتينية، كما سبق أن أشرنا، بقيت قروناً طويلة بعد الرومان بفضل المسيحية الكاثوليكية التي كَرَّسَتْها لغةَ دين وعبادة. وكذلك اللغة العربية بكتابها المبين، القرآن، فرضت على العرب الحفاظ عليها كما هي، حتى إنهم رضوا بازدواجية حتمية بين لغتهم المقدسة وبين اللهجات السوقية، وبقيت العربية الفصحى لغة الثقافة والفكر والعلم حتى يومنا هذا. كذلك يحدث أحياناً تمزق لغوي إلى لهجات فقيرة منحرفة متباعدة بعضها عن بعض، بينما تبقى العواطف القومية، والمصالح المتصلة بالحضارة والتراث، تدعو فروع الأمة التي تبلبلت ألسنتها إلى التمسك باللغة الفصحى، ولو لم يكن فيها كتاب مقدس، وأشهر أمثلة ذلك الألمان الذين تتعدد لهجاتهم بينما يتحد تراثهم وتتوحد أهدافهم القومية على نحو يفرض اللغة الفصحى لتشدهم جميعاً برباطها. وهذا الوضع يصدق أيضاً على الأمة العربية، ويتدخل لغوياً في صالح العربية الفصحى، حتى بصرف النظر عن الاعتبار الديني السابق الذكر. ويكفي دليلاً على ذلك أن نلاحظ أنه في أخريات عصر الانحطاط الفكري للأمة العربية، على أواخر الحكم العثماني، وفي الوقت الذي كان فيه العرب المسلمون ينظرون فيه إلى

الخلافة التركية على أنها المِسَاك السياسي للإسلام، كان المسيحيون من العرب، لا سيما في لبنان، يتمسكون باللغة العربية في وجه الغزو اللغوي التركي مع الحكومة ومع الإدارة، حفاظاً على قومية ليس الدين جزءاً منها، وهذا ما يفسر لنا ظهور الدراسات والمعاجم العربية وكثرة نشر آثار التراث الأدبي العربي على يد علماء من العرب المسيحيين في لبنان؛ فالمعلم بطرس البستاني يؤلف معجمه «محيط المحيط»، وكذلك دائرة المعارف المشهورة المعروفة باسمه، كما ينشر سعيد الشرتوني معجم «أقرب الموارد» وكثيراً من التراث العربي القديم مثل كتاب «النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري»، ويؤلف المطران جرمانوس فرحات كتابه المشهور في النحو «بحث المطالب»، كما ينشر معجماً في اللغة؛ ويطول بنا الحديث لو حاولنا الاستقصاء، فهناك عبد الله البستاني، والأب لويس شيخو اليسوعي والمعلم جرجس همام الشويري، وآل اليازجي، والأب لويس المعلوف اليسوعي وغيرهم، هذا فضلاً عما تدين به الصحافة العربية لمسيحيي العالَم العربي في إبان نشأتها، وهو مظهر من تمسك أولئك العرب، بصرف النظر عن الدين كما قلنا، بدعامة من أهم دعائم القومية العربية التي كادت التركية أن تزعزعها يومئذٍ.

أما من حيث الصرف فالأمر يختلف كثيراً، لأن قواعد التصريف هي الآلة الأولى البسيطة المرنة لتنمية الثروة اللفظية في اللغة. ولذلك تكثر أوزان التصريف وتتعقد، وهي لا تظهر طفرة واحدة، وإنما يظهر بعضها في أثر بعض بحسب الحاجة، كما تختفي بعض الصيغ الصرفية عندما ينصرف المتكلمون عن الإقبال عليها.

فمن الحقائق المعروفة في علم اللغات أن من أوائل صيغ الأفعال ظهوراً فعل الأمر، ومن أواخرها صيغة المصدر، على عكس ما يزعمه النحاة والصرفيون. إذ ليست هناك صيغة فعلية أبسط وأقرب إلى حاجة الرجل البدائي من قوله اذهب، ارجع، احضر، خذ، كل، اشرب. . . إلخ؛ فهو قبل أن يشعر بالحاجة إلى الإخبار عن شيء كان قد حدث، أو احتمال شيء سيحدث،

أو تصور الحدث المطلق المجرد عن الزمن والفاعل والمفعول، كان يطلب شيئاً، أو يأمر بعمل شيء. ولهذا نرى السمات الصرفية الأولى للمادة الفعلية الأصلية أكثر وضوحاً في صيغ الأمر في أكثر اللغات، وهذا واضح جداً في اللغة الفارسية مثلاً، حيث يتفق فعل الأمر مع ما يسميه نحاة اللغة الفارسية بالمادة الفعلية الأصلية للاشتقاق في كل الحالات تقريباً.

كذلك ما من شك في أنَّ اسم الفاعل واسم المفعول كانا أقدم ظهوراً في اللغات من اسم الآلة مثلاً، بل إن كثيراً من اللغات تسمي أكثر الآلات بأسماء ليست مشتقة من الأفعال التي تشاركها في المعنى العام.

وبعض الأدوات التي تفيد معنى زائداً على صيغة الفعل مثل السين، وسوف، وقد، أو معنى ثانوياً للجملة مثل رُبَّ، التي تعبر عن التقليل والتكثير والاحتمال تأخرت في الظهور نسبياً، ودليلنا على ذلك وجودها في العربية وانعدامها في البابلية الآشورية، والعبرية، والآرامية وغيرها من لغات نفس العائلة السامية، مع وجود المادة التي اشتقت منها كلمة «ربّ» في هذه اللغات بمعنى الكبير أو الكثير.

ومثل هذا يقال في أدوات التعريف، التي لم تظهر في اللغات إلا بعد أن وقف الإنسان موقفاً عقلياً واضحاً محدداً إزاء الشيء المعروف والشيء المجهول وهو موقف فلسفي يحتاج إلى تطور فكري وحضاري طويل، وإلى تكامل ثقافي في نظرية المعرفة. ولهذا بقيت أداة التعريف غير معروفة في البابلية واللاتينية، وظهرت الاستعانة على تمييز المعروف من المجهول في عصور متأخرة بأسماء الإشارة أو بأجزاء مقتطعة منها، أو أحياناً بتحديد النكرة دون المعرفة كما في الفارسية، حيث يوضع في آخر الاسم المقصود تنكيره حرف ياء مكسور ما قبلها وذلك في المفرد فقط، فكلمة «رَجُل» بالفارسية هي «مَرد» وعندما أنطق بهذه الكلمة هكذا يكون أقرب مفهوم لها هو «الرجل» بالتعريف، فإذا أردت النص على تنكيره، وأنه مجرد رجلٍ ما، قلت «مَرْدِي».

أما الصيغ المزيدة من الأسماء والأفعال فهي تنشأ في اللغات في عصور

متفاوتة وبحسب الحاجة أيضاً. ثم إن استعمالها بعد ذلك يقل ويكثر بنسب متفاوتة أيضاً فمثلاً صيغة فعّل (بتشديد العين)، وأفعلَ (المزيد بالهمزة)، وانفعل (المزيد بالنون)، أقدم وأوسع انتشاراً من صيغة افعوعل مثلاً، فالعرب استعملت أعشب أكثر من أعشوشب واستعملت كذلك اخضرَّ (بتشديد الراء) أكثر من اخضوضر، وأكثر من اخضارّ (بألف مد قبل الراء المشددة) ثم إنها استعملت انفعل وافتعل أكثر من استعمالها للمبني للمجهول، وكان أسهل عليهم أن يقولوا انهدم البناء واندحر العدو واحترقت الدار واهتزت الأشجار، من أن يقولوا هُدم ودُحر وحُرق وهُز (بصيغة المبني للمجهول). ولذلك سبب صوتي وهو أن المبني للمجهول تتعاقب فيه حركتان متنافرتان بطبيعتها الضمة والكسرة، بالنسبة للذوق العربي طبعاً، حتى إن هاتين الحركتين لم تتعاقبا في أوائل الأسماء الثلاثية إلا نادراً،وأشهر ذلك النادر «الدئل» وهو اسم حيوان صغير من فصيلة ابن عرس، وسميت به قبيلة من كنانة إليها ينسب أبو الأسود الدؤلي اللغوي القديم المعروف.

وفي لهجاتنا العامية تأكد النفور من المبني للمجهول فاختفى تماماً وحلت محله صيغ المطاوعة: انفعل، افتعل (أو اتفعل) فنقول الكيس انسرق، والخشب احترق (أو اتحرق) ونحو ذلك.

والخلاصة أن الصيغ الصرفية لا تسير في خط التبسيط المطلق، وإنما تتجاوب مع حاجة المتكلمين، فبعض الصيغ يستحدث، وبعضها الآخر يهجر حتى يندثر تماماً.

وأما التطور في متن اللغة، أي في الألفاظ ودلالتها على المعاني، فإنه كما سبق أن ذكرنا، الميدان الكبير الذي يتسع لأكثر من بحث، ويتناوله العلماء من أكثر من جانب، فمثلاً عالجه اللغوي الفرنسي البير دوزا في كتابه حياة الكلام[1]. وبدأ القسم الثالث منه، وهو القسم الخاص بالعامل الاجتماعي في التطور اللغوي بفصل عن «الصراع بين اللغات، وموتها»، يرى فيه أن اللغة

(١) Albert Dauzat: La Vie du Langage-paris 1910, P. 161 ss.

كأي كائن حي، تتطور خلال حياة تطول أو تقصر ثم تموت في النهاية: إما بموت الأمة التي كانت تتكلمها واندثارها، وإما لأن تلك الأمة قد غيرت لسانها. والصراع على الحياة، كما هو قائم بين الكائنات الحية، يقوم أيضاً بين اللغات، بل بين الألفاظ في داخل اللغة الواحدة. وإذا كان كذلك فهل لنا أن نفهم أن لكل لغة طفولة، ثم سناً معيناً تصل فيها إلى أوج القوة والصحة والجمال، ثم تصيبها أمراض الكبر وغضونه إلى أن تموت؟ يقول دوزا: إن علماء الأدب يجيبون عن هذا السؤال بنعم، وفقهاء اللغة يقولون لا، وأما علماء الاجتماع فيقولون ربما. ولتوضيح ذلك نقف إلى جانب دوزا، لكن نحاول أخذ أمثلة من لغتنا العربية، حيث يبدو الأدب الجاهلي أشبه بالطفولة الفكرية للأمة، أما دور الشباب والاكتمال والجمال فهو من نزول القرآن الكريم إلى تلك الأيام التي جادت بأمثال جرير وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي والجاحظ وغيرهم. ثم تأتي الشيخوخة مع قرون الانحطاط التركي. ولولا المعجزة القرآنية التي حافظت على هذه اللغة لما أتيحت لها انتفاضتها الأدبية الحديثة، وبعثها من على شفا القبر، ولكانت الآن في عداد اللغات الميتة.

أما من وجهة نظر النحاة وفقهاء اللغة فإن معدن اللغة كأداة، مجرد أداة للفكر، في عصر ابن نباته والسراج الوراق وابن حجة الحموي وعبد الغني النابلسي وتوفيق البكري مثلاً، معدن هذه اللغة يبقى هو هو، وحيويتها تظل هي هي. أما الذي ضعف وأصابه الانحطاط فهو ثقافة المتكلمين بها، وذوق المستعملين لها. وإذا كنا قد استعرنا أمثلتنا من تاريخ العربية فإن ألبير دوزا يجول في ميدان اللغة اللاتينية بنفس الطريقة فيقول: إن هذه اللغة في عصر ثيودوسيوس ــ وهو عصر انحطاط ــ لم تكن أقل جدارة بالحياة منها في عصر أوغسطس، وكان من الممكن أن تعيش، وأن يمتد بها العمر لولا أن دهمتها غزوات البرابرة، فقطعت أوصال المتكلمين بها والمستعملين لها في الثقافة، وساعدت بذلك على سيادة اللهجات المحلية، والإجهاز على اللاتينية الفصحى. كذلك يلاحظ أن اللغة اليونانية قد عاشت بعد انهيار الفلسفة اليونانية، وبعد

زوال القوة السياسية والعسكرية للإغريق، وحتى بعد سقوط الدولةالبيزنطية المسيحية، وطرد الأتراك لليونان ولغتهم وفكرهم من القسطنطينية، عاشت اللغة اليونانية مشردة، وعاشت كل عصور الانحطاط السياسي والفكري، وهي موجودة إلى الآن لم يطرأ عليها، من الناحية اللغوية البحتة، إلا تطور طبيعي طفيف هو معقول في حساب المدد الزمنية التي قطعتها من القرن السادس أو السابع قبل الميلاد ــ عصر هوميروس ــ إلى يومنا هذا.

أما كيف تموت اللغة فإن أصحاب النظرة الاجتماعية للتّطور اللغوي يذكرون لذلك ثلاثة أشكال:

أولها: أن تموت اللغة موتاً طبيعياً، من الكبر والضعف والتقدم في السن، ولا بد في تلك الحالة من أن يكون المتكلمون بتلك اللغة قد كثروا وتشعبوا، وتباعدت مواطنهم، وأقاموا لهم حضارات متباينة لا يتصل بعضها ببعض إلا من بعيد، فتولّد لدى كل منهم لهجة محلية منبثقة من اللغة القديمة، ومع مرور الأجيال تندثر اللغة الأم من ذاكرة الأبناء وعلى ألسنتهم وتموت. وأمثلة ذلك السامية الأم، والسنسكريتية، والفارسية القديمة، والجعزية الحبشية، واللاتينية.

ثانيها: أن تموت اللغة قتيلة، وذلك بفعل الغزو المسلح. ولكي يكون هذا القتل ممكناً يجب أن تتضافر ظروف معينة أهمها:

١ ــ أن يكون الغزاة أكثر عدداً بأضعاف كثيرة من أهل تلك اللغة، بحيث يصبح استقرارهم بلغتهم في الأرض المفتوحة أشبه بطوفان يبتلع الشعب الأصلي الصغير، ولغته معه. ومن ذلك غزو الساميين القدماء للعراق، حيث كان الشوميريون يقيمون منذ ما قبل التاريخ، وباكتساح الساميِّين لهم تلاشوا هم ولغتهم، ومع ذلك ــ إنصافاً للحقيقة ــ ينبغي أن نقول إن اللغة القتيل تترك دائماً آثاراًمنها في لغة الفاتحين تقل أو تكثر.

٢ ــ في حالة التساوي في العدد تقريباً بين الغزاة والسكان الأصليين، ينبغي أن يكون الغزاة أعلى درجة في الحضارة من الأمة التي أصيبت بالغزو، وإلا فإن الغزاة هم الذين يفقدون لغتهم، وتنتصر لغة المنهزمين كما حدث عندما

هاجمت القبائل المتبربرة أوروبا اللاتينية التي كانت شعوبها أكثر تقدماً في الحضارة، ولذا ترك هؤلاء البرابرة لغاتهم الأصلية، بل تركوا أديانهم الوثنية، واصطنعوا اللاتينية واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية. وكذلك التتار بعد إسقاطهم بغداد اعتنق أكثرهم الإسلام وتعلموا اللغة العربية.

أما الغزاة المتحضرون فإنهم يقتلون لغة الأمم المفتوحة بفرض لغتهم في العلم والثقافة والتجارة ونحوها، وترك من لا يتقن اللغة بلا عمل ولا فرصة طيبة للتعلم أو الارتزاق: ومثال ذلك سيادة اللغة الأسبانية أو البرتغالية بين شعوب أميركا اللاتينية، وسيادة الإنجليزية في أميركا الشمالية، وسيادة الفرنسية في أنحاء من كندا وفي جزر الجوادلوب والمرتينيك وغيرها. وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث، حتى إذا كان الغزاة أقل عدداً بكثير بشرط أن يكون رقيهم الحضاري والإداري والاقتصادي ساحقاً.

ثالثاً: أن تموت اللغة بالتسمم، ويبدأ ذلك بتسرب رشح من الدخيل من لغات أخرى تحتاج إليه اللغة فتتقبله، بل تحس مع تعاطيها له في البداية بمزيد من الانتعاش والقوة والنشاط يشجعها على تقبل جرعات أكبر فأكبر من هذا الدخيل. ولكن قدرتها على هضم ذلك كله واستيعابه في بنيتها العامة تخونها في النهاية، فتسقط من الإعياء، تاركة المجال للبقية الباقية من الدخيل تتسرب إليها بدون أية مقاومة حتى تجهز عليها وتميتها. هكذا ماتت اللغة السريانية في بلاد الشام. فإن الفاتحين العرب تصالحوا مع المسيحيين في هذه الأقطار، قانعين منهم بالولاء والمسالمة ودفع الجزية، أما دينهم فقد تركوا لهم مطلق الحرية فيه، واتخذوا منهم المترجمين والأطباء والمهندسين وأساتذة الصناعة وكبار الموظفين، ولكن سيل الدخيل العربي المتزايد استمر في التسرب إلى ألسنتهم حتى وجدوا أنفسهم يوماً ما وقد فقدوا لغتهم نهائياً وتكلموا العربية، وأصبحوا من بعد أشد غيرة عليها من كثير من المسلمين، كالفرس مثلاً، إذ كان الفتح العربي قد أدخل اللغة العربية إلى بلاد فارس، حتى أصبح العلم والأدب والسياسة جميعاً لا تعرف تعبيراً غير العربية، وتقلص ظل الفارسية فأصبحت رطانَة للطبقة الدنيا من الفلاحين والرعاة وصغار التجار والصناع؛ ولكن العصبية الشعوبية

استيقظت منذ القرن الثالث الهجري، وبدأت مع الدويلات الإسلامية الشعوبية التي قامت في فارس حركة إحياء وبعث للغة الفارسية، وهكذا بدأ مفكرون من الفرس يهجرون لغة العرب ليعودوا إلى لغتهم قبل الإسلام، من أمثال رَوْدَكي وفِرْدُوسي وعمر الخيام وسعدي وجلال الدين الرومي وغيرهم. ومع ذلك فهذه اللغة الإسلامية الفارسية تحتوي على أكثر من خمسين في المائة من الدخيل العربي في صلب ثروتها اللغوية، وهي نسبة لولا النعرة السياسية القومية التي تداركت الفرس، لكانت قريبة من درجة الإشباع المؤدية إلى التسمم[1]. والصورة ما تزال بعد في حاجة إلى استكمال جوانب أخرى منها، فمثلا نريد أن نعرف كيف تحاول اللغة ملاحقة تطور الحياة؟ كيف تتسع وتنمو، ما هي مواردها وروافدها، كيف تنسق الألفاظ صفوفها من جيل لجيل لتستجيب اللغة للمطالب المتجددة مع الزمن؟

ونريد في ختام هذا الفصل أن نمر على بعض المصطلحات التي وردت في ثناياه لكي نحصرها الآن في صعيد واحد، ونزيد من وضوح دلالتها:

١ ــ اللغة:

يقول أنطوان مييه في كتابه «لغات العالم»[2]: «إن كلمة لغة تعني كل جهاز كامل من وسائل التفاهم بالنطق المستعملة في مجموعة بعينها من بني الإنسان، بصرف النظر عن الكثرة العددية لهذه المجموعة البشرية، أو قيمتها من الناحية الحضارية». ثم يضيف إلى هذا التعريف قوله: «إننا نستطيع أن نعد من اللغات بقدر ما نستطيع أن نعد هذا العالم من مجموعات بشرية، يختلف بعضها عن بعض في وسائل التفاهم بالنطق، بحيث لا يستطيع الواحد من أبناء

(١) وقد عني اللغويون الغربيون بتقدير الجرعات القاتلة للغة من الدخيل الأجنبي، فوجدوا أن الأسماء أقلها خطراً، وتستطيع اللغة أن تهضم منها القدر الكبير جداً. أما الأفعال فإن أقل من ربع نسبة الأسماء يكفي لقتل اللغة لأن الفعل يتصرف وتشتق منه ألفاظ كثيرة ولا يبقى وحدة محايدة كالاسم بل يعمل في غيره. وأما الحرف فأشدها خطراً لأنه أهم ضوابط الفكر قبل التعبير.

(٢) Antoine Meillet et Marcel Cohen: les langues du monde, Paris 1952, p. 14.

مجموعة منها أن يتفاهم مع أبناء مجموعة أخرى إلاَّ بعد تلقين وتعليم». وجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن تعريف العرب لها هو أنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»، وهو تعبير صاحب القاموس، أما الشَّارح فيذكر تعريفاً آخر وهو أنها «الكلام المصطلح عليه بين كل قبيل».

والغريب في لفظة «لغة» أنها لم ترد مستعملة في كلام عربي يعتد به؛ وإنما كانت العرب تسمي مجرد الضوضاء التي لا طائل من ورائها لغواً، وجاء من ذلك الفعل أَلْغى، يُلْغِي، بمعنى أبطل، أي اعتبر ذلك لغواً؛ولذلك فقد اختلف في اشتقاقها، وحار بعض الأعراب في جمعها، يقول ابن منظور بعد أن ذكر في تعريفها ما ذكره صاحب القاموس،«وهي فُعْلة، مِنْ لغوت ــ أي تكلمت، أصلها لغوة، ككُرة، وقُلة، وثُبة، وكلها لاماتها واوات؛ وقيل أصلها لَغْي أو لَغْو، والهاء عوض، وجمعها لُغىً مثل برة وبُرى، وفي المحكم: الجمع لغات ولغون. قال ثعلب: قال أبو عمرو لأبي خيرة، يا أبا خيرة سمعت لغاتهم (بكسر تاء لغاتهم) فقال أبو خيرة وسمعت لغاتهم (بالفتح)، فقال أبو عمرو. يا أبا خيرة، ، أريد أكثف منك جلداً، جلدك قد رق. ولم يكن أبو عمرو سمعها ومن قال لغاتَهم بفتح التاء، شبهها بالتاء التي يوقف عليها بالهاء»[١].

فالعرب الخلص لم يكونوا يستعملون كلمة لغة في كلامهم، وإنما كانوا كغيرهم من الأمم السامية، بل كأكثر أمم الدنيا، يستعملون كلمة لسان للدلالة على اللغة، وهكذا يضطرد الأمر في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ولقد نَعْلَمُ أنهم يقولون إنَّما يُعَلِمه بَشَرٌ لِسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌ وَهَذا لسانٌ عَرَبي مبين﴾[٢]، ﴿وَمَا أَرْسَلنا من رسول إلاَّ بلسان قومه ليبيِّنَ لهم﴾[٣]، ﴿بلسان عربي مبين﴾[٤]، ﴿ومن آياتِهِ خَلْقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكم إنَّ في ذلك لآيات للعالمين﴾[٥].

---

(١) لسان العرب، لابن منظورة مادة (ل. غ. و).

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٤) سورة الشعراء: الآية ١٩٥.

(٥) سورة الروم: الآية ٢٢.

وأصل اللسان هو عضو الذوق والنطق الموجود في الفم، وقال اللغويون إنه يذكر ويؤنث، فمن ذكر جمعه على ألسنة، مثل حمار وأَحْمرة، ومن أنَّث جمعه على أَلْسُنٍ مثل ذراع وأَذْرُع، وورد جمعه على لُسْن بضم وسكون مخففا عن لُسُن بضمتين مثل كتابٌ وكُتُب. قال اللغويون: واللسان اللغة، ويقول شارح القاموس إن اللفظة في هذا الاستعمال تؤنث لا غير[1]، واستعمل اللسان مؤنثاً بمعنى الرسالة، قال أعشى باهلة:

إنِّي أتتني لِسَانٌ لا أسر بها مِنْ عَلْوَ لاَ عَجَبٌ مِنْهَا وَلاَ سَخَرُ

ومثله قول الشاعر:

أتتني لسان بني عامر أحاديثها بعد قول نُكُرْ

وواضح في البيتين أن الرسالة التي يتحدث عنها الشاعر لم تكن رسالة مكتوبة، وإنما شفهية يحملها متكلم عن مرسلها، ولذا قال اللغويون «واللسان المتكلم عن القوم».

وإننا ونحن لا نجد شاهداً واحداً على استعمال العرب لكلمة لغة بهذا المعنى العلمي الذي نعنيه، ونظراً لما بدا من اضطراب اللغويين في اشتقاقها، وتردد الأعرابي في ضبط جمعها، لنَميل إلى القول بأنها من أصل يوناني هو كلمة «لوغوس»[2] التي معناها الأصلي «كلمة» و«كلام». وذكر المختصون من استعمالاتها في اليونانية الوحي، والحكم، أو الحكمة، أو المثل، أو المثال، أو القصة، أو المقالة، أو القضية المنطقية، أو التعريف، أو التفكير... إلخ. وكل هذا كما نرى يحوم حول التعبير اللفظي عن الفكر. لكن متى دخلت هذه الكلمة إلى اللغة العربية؟ لا ندري. ومن المحتمل أنها جرت على الألسنة بين بعض قبائل العرب حتى قبل الإسلام، ولكنها لم تكن إذ ذاك في أسماعهم من النبل والطنين، بحيث تستحق أن تستعمل في الشعر أو الخطب أو غيرها من فنون

(١) كيف يكون هذا وقد قال الله تعالى ﴿بلسان عربي مبين﴾ بتذكير الصفة؟

(٢) Logos.

القول الاحتفالي الذي كان العرب يدققون في انتقاء الألفاظ له. ومهما يكن من شيء فنحن لا نقول ذلك لنطرد لفظة «اللغة» من اللغة، وإنما هي ملاحظة كان ينبغي أن يقف عليها الباحث فيما يتصل باللغة.

٢ ــ اللهجة:

يقول أنطوان مييه في كتابه السابق[١]: «إن كل جهاز كامل للتفاهم بالنطق، أي كل لغة، تتعرض لأن تنقسم المجموعة البشرية المتكلمة بها إلى جماعات جزئية يشعر كل منها بأن له في استعمال هذه اللغة ذوقاً خاصاً متميزاً من الناحية الصوتية ومن ناحية الصرف والتركيب والدلالة يعرف به، ويسهل من خلاله تمييزه ونسبته إلى جماعته الجزئية الخاصة. وهكذا تعرض للغة نفسها تقسيمات فرعية تبعاً لتقسيم المتكلمين بها إلى جماعات صغيرة، مع دخول الزمن عاملاً أساسياً في هذا التطور. ويعرف كل قسم فرعي في داخل اللغة الواحدة باسم اللهجة. ومن الملاحظ، في التطور اللغوي التاريخي، أن أية لغة نعرفها الآن قد بدأت حياتها كلهجة من لغة أخرى أقدم منها. وهكذا يصعب على علم اللغة أن يضع حدوداً مضبوطة تمام الضبط لامتداد مدلول كلمة لهجة، وأقرب الحدود منالاً هو أن يقال: إنه إذا كانت مجموعة من اللهجات تنتمي إلى لغة أم، وكانت هذه اللغة الأم نفسها ما تزال على قيد الحياة، شائعة الاستعمال، فإن أية واحدة من فروعها غير جديرة بأن تسمى لغة، إلى أن تموت اللغة الأم نفسها؛ فحتى ذلك الوقت يسمى كل فرع من فروعها لهجة؛ ومن ذلك اللهجات العربية. ومنها قديم مات بينما اللغة الأم ما زالت حية، وحديث هو هذه اللهجات العامية التي تعيش بجانب العربية الفصحى.

وإذا كانت «اللغة» من حيث الاشتقاق تثير مشكلة، وتدعو إلى التردد، فإن كلمة «اللهجة» فصيحة أصيلة، وهي بسكون الهاء وفتحها، وأصل معناها طرف اللسان وجرس الكلام، ولهجة الإنسان لغته التي جبل عليها فاعتادها

---

(١) نفس المرجع.

ونشأ عليها. قال ابن منظور واللهجة اللسان، وهو يقصد اللسان بمعنى الحديث والكلام، والدليل على ذلك استشهاده بقول رسول الله ﷺ:

«ما من لهجة أصدقُ من أبي ذرٍّ» وقوله: «أصدق لهجةً من أبي ذر».

٣ ـ اللحن أو اللغية:

اللحن في الأصل هو نغمة في المسموعات تميزها، قال شارح القاموس: اللحن من الأصوات المصوغة الموضوعة، وهي التي يرجَّع فيها ويطرب، قال يزيد بن النعمان:

لقد تركت فؤادَك مستجنًّاً مطوَّقةٌ على فنن تَغَنَّى
يميلُ بها وَتَرْكَبُهُ بِلَحْنٍ إذَا مَا عنَّ للمحزون أَنَّا
فلا يحزنك أيام تَوَلَّى تذكَّرها ولا طير أرَنَّا

وفلان لا يعرف لحن هذا الشعر، أي لا يعرف كيف يغنيه، جمعه ألحان ولُحُون، يقال هذا لحن معبد، وألحانه، وملاحنه، لِمَا مَالَ إليه من الأغاني واختاره، وقال الشاعر:

وهاتِفين بِشَجْوٍ بعدما سجعت وُرْق الحمام بترجيع وإرنان
بَاتَا على غُصْنِ بَانٍ في ذُرَى فَنَن يُرَدِّدانِ لُحونا ذَاتَ أَلوان

ولحَّن في قراءته تلحيناً طرَّب فيها وغرَّد بألحان. والغريب في الأمر هو أن اللخن بالخاء المنقوطة هو قبح الكلام، وروى ذلك أبو عمرو، واللخن في الروائح هو النتن، وفي الطعوم فساد المذاق، وفي الألوان كل بقع بيضاء تعيب الجلد. واللخناء صفة سوء تميز المرأة، قال شارح القاموس: رجل ألخن وأَمَة لخناء، لم يُخْتَنا، ومنه حديث ابن عمرَ: «وابن اللخناء»، ومع ذلك فالمعنى الدقيق هنا فيه خلاف؛ قيل: هو نتن في الرائحة يكون في الجسم كله أو بعضه، وقالوا: إن ابن اللخناء معناه دنيء الأصل أو لئيم الأم. والأصل في اللخناء أنها المرأة التي تقوم بالخدمة فيما يُستقذر عند الناس، والكلمة في هذا المعنى تقريباً وردت

خاصة بالخدمة باللغة الآرامية، حيث تعني كلمة (لحينة، لحِنْتَا) الجارية التي تقوم بالخدمة، وكذلك الأمة التي يتسرى بها الرجال، هذا، ولا تفوتنا الإشارة هنا أن مادة لحن ولخن تتصلان بمادة أخرى هي «لعن» التي تستعمل في ما يستقبح من صياح الناس بالسباب أو الدعاء بعض على بعض، وهي في الآرامية والعبرية كانت أولاً المرارة في الطعم.

ويبدو من ذلك أن القدر المشترك من الدلالة هو شيء مميز في السمع أو البصر أو السلوك الأخلاقي، والأصل فيه أنه مميز بما لا يستحب، وبقي منه في مادة (لحن) استعمال اللحن بمعنى الخطأ وترك الصواب في القراءة والنشيد ونحو ذلك، وقيل: هو ترك الإعراب، وبه فسر قول عمر رضي الله تعالى عنه: تعلموا اللحن والفرائض. وفي حديث أبي العالية: كنت أطوف مع ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: وهو يعلمني لحن الكلام. قال أبو عبيد: وإنما سمَّاه لحناً لأنه إذا بصَّره بالصواب فقد بصره باللحن. قال شمر: قال أبو عدنان: سألت الكلابيين عن قول عمر هذا، فقالوا: يريد به اللغو، وهو الفاسد من الكلام، وبه فسر قول أسماء الفزاري:

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطقٌ رائعٌ وتلحنُ أحيا ناً، وخير الحديث ما كان لحنا

أي أنها تخطىء في الإعراب، وذلك أنه يستملح من الجواري ذلك إذا كان خفيفاً، ويستثقل منهن لزوم مطلق الإعراب. ومن ذلك استعمل اللحن بمعنى اللغة، قال شارح القاموس: واللحن اللغة، بني كِلاب، وبه فسر قول عمر رضي الله عنه تعلموا اللحْن في القرآن أي تعلموا كيف لغة العرب فيه، الذين نزل القرآن بلغتهم. قال ابو عدنان: وأنشدتني الكلبية:

وقوم لهم لَحْنٌ سوى لَحْنِ قَوْمِنَا وشكلٌ وبَيتِ اللَّهِ لسنا نُشَاكِلُهْ

قال: وقال عبيد بن أيوب:

أَتَتْني بلحنٍ بعدَ لحنٍ وأوقدتْ حواليّ نيرانا تبوخ وتزهر

وفي الأساس يقال: هذا ليس من لحني ولا من لحن قومي، أي من نحوي، وميلي الذي أميل إليه وأتكلم به، يعني لغته ولسنه، ومنه تعلموا الفرائض والسنة واللحن، قلت: ويروى والسنن، وهو قول عمر رضي الله تعالى عنه. وقال الأزهري في تفسير قوله: تعلموا اللحن في القرآن، أي لغة العرب في القرآن، واعرفوا معانيه وكقوله أيضاً: أُبَيٌّ أقْرَؤنَا، وإنّا لنرغب عن كثير من لحنه، أي من لغته، وكان يقرأ (التابوه). ومنه قول أبي ميسرة في قوله تعالى: فأرسلنا عليهم سيل العرمِ. قال: العرم المسنّاة، بلحن اليمن، أي بلغتهم، وقد لحن الرجل: تكلم بلغته.

واللحن: الرمز والإشارة الملحوظة التي يفهمها اللبيب، ومنه قول القتال الكلابي:

ولقد لحنت لكم لكي ما تفهموا ووحيت وحياً ليس بالمرتاب

وفي الحديث: إذا انصرفتما فالحنا لي لحناً، أي أشيرا إليَّ ولا تفصحا، وَعَرِّضا بما رأيتما. أمرهما بذلك لأنهما ربما أخبرا عن العدو ببأس وقوة، فأحب أن لا يقف عليه المسلمون، وبه فُسِّر أيضاً قول أسماء الفزاري المتقدم. وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ﴾، أي فحواه ومعناه، وقيل: أي في نيته وما في ضميره؛ وروى المنذري عن أبي الهيثم أنه قال: العنوان واللحن بمعنى واحد، وهو العلامة تشير بها إلى الإنسان ليفطن بها إلى غيره، وأنشد:

وتعرف في عنوانها بعض لحنها وفي جوفها صَمعاء تحكي الدواهيا

واللحن أيضاً الميل يقال لحن إليه أي مال إليه، واللحن كذلك الفهم والفطنة والانتباه، واللاحن العالم بعواقب الكلام. وقد لخص ذلك شارح القاموس بقوله: أن للّحن سبعة معانٍ: الغناء ــ واللغة ــ والخطأ في الإعراب ــ والميل ــ والفطنة ــ والتعريض ــ والمعنى.

ومن طريف المجاز قولهم: قَدَحَ لاحن، إذا لم يكن صافِي الصوت، وهذا يأتي من سوء صناعته أو من أنه مشعور.

واللحن عند اللغويين هو قسم أو فرع صغير من فروع اللهجة يختص بإقليم معين أو مدينة أو بشعبة من قبيلة؛ فاللهجة المصرية لهجة واسعة الحدود، أما نطق أهل الإسكندرية أو القاهرة أو الصحراء الغربية فكل منها لحن أو لغية (تصغير لغة) بالنسبة للهجة أو حتى للغة، وهي تتميز باختلافات في الحركات أو في النبرة الرئيسية وموضعها على الكلمة أو في نطق بعض الحروف، أو في قواعد أو استعمالات للألفاظ محلية ضيقة الحدود.

٤ ـــ اللغات الميتة:

وهي اللغات التي انطفأت ولم يعد يتحدث بها أحد وهي نوعان:

(أ) لغات أدركت عصر الكتابة ثم ماتت ووصلتنا نصوص مكتوبة ونقوش أثرية منها. ومن أمثلتها: المصرية الفرعونية، البابلية الأشورية، السنسكريتية، اللاتينية.

(ب) لغات عاشت وماتت دون أن تعرف الكتابة، فاندثرت مع المتكلمين بها، وأصبحت لا تعرف إلَّا افتراضاً وعن طريق أبحاث مقارنة في علم اللغة وفقه اللغة، وأشهر هذه الفصيلة من اللغات المجهولة أو المندثرة اللغة السامية الأم، التي عاشت وماتت قبل اختراع الكتابة فلم يصلنا شيء من نصوصها.

وكل لغة حية إنما هي في نهاية الأمر وليدة لغة ميتة سابقة لها، معروفة أو غير معروفة، وكانت في حياة اللغة الأم التي أنجبتها لا تعدو في البداية أن تكون لهجة منها، كالفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية بالنسبة للاتينية، وكالعربية والبابلية والآشورية والسريانية والعبرية بالنسبة للسامية الأم، مع ملاحظة أن بعض هذه اللغات الوليدة ذاتها كان حياً، ثم أصبح الآن بدوره في عداد اللغات الميتة، كالبابلية الأشورية والسريانية.

٥ ـــ اللغة الأم:

وهي اللغة التي عنها تشعبت عدة لغات أخرى. وهذا الاعتبار هو الذي حدا بعلماء اللغة إلى القول بانتماء اللغات إلى عائلات أو مجاميع تنحدر كل مجموعة منها من أصل واحد. وإذا كانت اللغة لا تنتمي إلى مجموعة معروفة،

ولم تـترك لها مـواليد من اللغات أو اللهجات، وصفت ــ ولـو مؤقتاً ــ بـأنها (لغة معـزولة، أو عـازلة) كـاللغة الألبـانية، والإتـروسكية، ولغـة الباسـك، واللغـة الشومـيرية في العراق القديم.

٦ ــ الكتـابـة:

الكتابة من أهم الاختراعات التي قام بها الإنسان، وهي عبارة عن تحـويل الرموز المسموعة في الأذن إلى رموز مرئية بالعين، وقد مرَّ هذا الاختـراع بمراحـل وخطوات كثيرة في سبيل تيسيره وتحسينه. وهذه المراحل تتخلص في ثلاث:

(أ) **الكتابة التصويريـة**: وهي أقدم طـرق التعبير البصـري عن الكلام المسموع، وفيها يكتفي الكـاتب برسم مـدلول الكلمـات الواحدة تلو الأخرى، فالرجل يعبر عنه بصورة رجل، والتضرع يعبر عنه بصورة يد تـرتفع وتتقـدم إلى الأمام، والأكل يعبر عنه بيد تمتد إلى الفم، والماء يرمز إليه بأمواج متتابعة وهكذا. وهـذه الكتابـة هي التي تسمى بالكتـابة الهيـروغليفية عنـد المصريـين الفراعنـة، والحيثيين في آسيا الصغرى، والشـومـيريين بـداية تـاريخهم. وهي كتابـة تطورت نحو تبسيط الصور وتوحيدها وزودت بإشارات بصرية لإضافة مزيـد من تحديـد المعنى. وكثـير من هذه الإشـارات وظيفتـه نحـويـة صـرفـة ولا يقـرأ أو ينـطق، كالإشارات التي تبين المذكر من المؤنث، والمفرد من الجمع، والتي تميز الآلهـة من البشر ونحو ذلك.

(ب) **الكتابة المقطعية**: وهي خطوة متقدمة في الحضارة بالنسبة لسابقتها. إذ فيها اكتشف الإنسان أنّ الألفاظ التي ينطقها تتكون من مقاطـع، هي وحدات صوتية صغيرة تسيطر عليها حركـة واحدة. فكلمـة مقعد تتكـون من مقطعـين: مق + عد، فيضع الكاتب لكل من هذين المقطعين علامـة اصطلاحيـة يستعملها في جميـع الكلمات التي يرد فيها نفس المقطع، فالإشارة الدالة عـلى المقطع (مق) يكتب بها في كلمة مَقْدس، مقبرةَ، مَقـطَعَ، أَحمقَ، أعمقَ... إلخ. ومن أشهـر الكتابات المقطعية القديمة الخط المسمـاري، الذي كـان يستعمل هـذه الإشارات المقـطعية منقـوشة عـلى ألواحٍ من الـطين في العراق وإيـران وغيـرهمـا من بلدان

الشـرق الأوسط القديمـة. ومن الكتابـات المقطعيـة التي مـا تـزال حيـة مستعملة الكتـابة الصينيـة. أما الكتـابة الحبشيـة فهي مقطعيـة متقـدمـة نحـو الأبجـدية.

(ج) **الكتـابة الأبجـدية**: تـدرج الفكـر التحليـلي لـلإنسـان من الكلمـة برمتها، في الكتابة التصويرية، إلى المقطع الذي هو وحـدة صوتيـة مستقلة داخل الألفاظ، في الكتابة المقطعية، إلى أن وصل إلى التمييز بين الحروف والحركـات، وبدأ يراقب جهازه الصوتي، وعدد ما يخرجه من أنواع الحروف بصرف النظر عن الحركات، فعرف أن لغته تقوم على عدد قليل نسبياً من الحروف الساكنة، فـأراد أن يسجلها.

وانبثقت الفكـرة في أكثر من مكـان في آن واحد، اكتشفهـا الكنعانيـون في «رأس الشمرة» بالقـرب من اللاذقيـة في سوريـا، فاستعـاروا الكتابـة المسماريـة وطَـوَّروها وطـوَّعوهـا لنظام أبجـدي دقيق. كذلـك حاول المصـريـون أن يصلوا بكتـابتهم إلى المرحلة الأبجـدية، ولكن كـانت الكتابـة بعـدُ بحـاجـة إلى تفكـير جديد. فالطريقة الكنعانية المتطورة عن المسمـارية إلى الـرسم الأبجدي، كـانت ماتزال تعتمد على نقش العلامات على ألواح الـطين، وهي طريقـة غير عمليـة، لثقـل حمل النصـوص المكتوبـة، ولخطر تعـرضهـا للرطـوبـة الـذي لا يؤمن منـه إلَّا بإحراقهـا وتحويلهـا إلى فخار وهـو عملٌ كثـير المشقة والتكـاليف، ويحتاج إلى وقت طويل. أما الطريقة المصرية فكانت طريقة أرستقراطية تحتاج إلى كاتب فنان وإلى أنواعٍ من ريشة الكتابة دقيقـة الصنع، وإلى ورق خـاص وأنواع معينـة من الأحبار والأصباغ.

وفي هذا الوقت كان الفينيقيون في لبنان قوماً من البحارة محتاجين إلى كتـابة عملية وسريعة، ليس فيها ثقل ألواح الطين، وخطورة تعـرضها لماء البحر فـوق السفن، وليس فيها كل التأنق الذي يحتاج إليه الكاتب المصري الفـرعوني ربيب الكهنـة وخادم الملوك والآلهـة. وهكذا التقط أولئـك الفينيقيـون في لبنـان فكـرة الأبجدية وحاولوا أن يصلوا بها إلى مزيدٍ من التيسير؛ فكان من أوائل الأبجديات التي ظهرت في هذه المنطقة الأبجدية «شبه التصويرية» في مدينة جبيل إلى الشمال من

بيروت ثم ظهرت جنوبي بيروت في منطقة صور أبجدية نهائية فرضت نفسها على أكثر بقاع العالم المتحضر، فأخذهـا اليونـان، ومنهم انتشرت في جميـع أنحـاء أوروبا، وأخذها الآراميـون فنشروهـا في جميـع أنحاء آسيـا حتى حدود الصـين؛ وتلقاهـا العبريون، والمؤابيون، والسريان، والنبط، والعرب. ومعهم انتشرت في جزء كبير جداً من إفريقيا وجزائر المحيط الهندي. وتعرضت الكتابـة الأبجديـة لتحسينات بحسب طبيعة اللغات التي استعملتها؛ فالأوروبيون جعلوا حركـات الضبط من صميم الأبجـدية، بينـما جعلها العـرب والعبريـون والسريـان زوائد وعـلامـات توضع فوق الحروف أو تحتها، وهو أكثر ملاءمـة لطبيعـة لغاتهم التي تعتمـد على الحروف الساكنة فقط، دون الحركات، عند التصريف والاشتقاق.

وكان اختراع الكتابة سبباً في ظهور اتجاهات لغوية جديدة لم تكن معـروفة قبل أن يتعلم الإنسان تخليدأفكاره وتثبيتها في وثائق مكتـوبة. فمـع الكتابـة ظهر الحرص على سلامة التركيب ووضوح الدلالة وإحسان التنسيق والتقسيم والعمل على تنقية التعبير من الحشو والفضول وتصفيته من الشـوائب. إذا أخذ الإنسـان بـالقلم وشرع يكتب أحس بـأن الكلام لم يعـد طـائـراً في الهـواء، بـل هـو بـاقٍ محفوظ، وكاتبه مسؤول عنه طول حياتـه بل بعـد مماتـه. وهو بهـذا، تحت عامـل نفساني بحت، يسعى إلى ألاَّ يثبت بالقلم إلاَّ مـا يشرفـه، ويكون وسيلة لانتـزاع حكم طيب عليه من القارىء.

وبـالاختصار فـإن اللغات المكتـوبة تكـاد تكون مـرادفة للغـات الأدبيـة، أو لغـات الثقـافـة، ويقـابـل ذلـك في أقصى الـطرف الثـاني اللغـات الـدارجـة أو العامية. وهناك سبب آخر في وجود فرق كبير بين اللغات المكتوبة والدارجـة، ففي الأخيرة يستعين المتكلم بالحركات والإشارات والنبرات الصوتية على إكمـال دلالته المنطوقة وتحديدها وتوضيحها، أما الكاتب فهـو لا يملك كل هـذه المؤثرات التكميليـة، ولذا فهـو يتوخَّى أن يكـون ما يثبتـه بالكتـابة مستغنيـاً عن كل هـذه المؤثرات، وبهذا يتفاضل الكتاب، ويعلو أسلوب على أسلوب.

□ □ □



الباب الثاني
تصنيف اللغات

تصنيف اللغات

فرغنا في الباب الأول من عرض أهمّ ما يتعلق بما يسمى بالظاهرة اللغوية، مع ذكر العوامل التي تؤثر في تطور اللغات. والظاهرة اللغوية ذاتها تقدم للباحث في علم اللغة حقائق واقعة، عليه أن يتعمق كنهها وأن يخصها بالبحث، وفي مقدمة ذلك تنوع لغات البشر وتعددها، لدرجة أنه يكاد يكون من المستحيل إحصاء جميع اللغات واللهجات واللغيّات المحلية التي يستعملها النوع الإنساني الآن فضلاً عن الإحاطة بذلك منذ بدء الخليقة.

فاللغات المستعملة الآن ما يزال بعضها كامناً في بقاع نائية من مجاهل الكرة الأرضية، لم يتصل الناطقون بها بنظام التبادل الفكري الحديث، فبقيت بعض لغاتهم ولهجاتهم غير مكتوبة ولا مدروسة ولا مسجلة. واللغات القديمة فيها لغات مندثرة مع الأمم التي تكلّمت بها . بادت هذه الأمم قبل أن تعرف الكتابة، وبادت معها طرقها في التعبير، بل هناك لغات وصلتنا كتابات تصويرية منها. ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق كيف كانت تنطق ولا كيف كان نظامها في النحو وصياغة الألفاظ والجهل، ومن أشهر هذه اللغات الأترورية في إيطاليا والأورارتو في شمال العراق. ومع ذلك فإن معرفة المحدثين من علماء اللغة بالنظم المختلفة التي تهيمن على ألسنة البشر قد تقدمت تقدماً كبيراً بفضل الكتابة، والطباعة، وتنوع وسائل المواصلات، وسرعتها، واختراع الوسائل الآلية للتسجيل الصوتي. كل ذلك أتاح لعالم اللغويات الحديث مادة ضخمة يستطيع من خلالها أن يصنف اللغات، إن لم يكن على وجه الحصر والإحاطة

الكاملة فهو على الأقل جهد يصف معظم ما نعرف من اللغات، ويحدد العلاقات المختلفة القائمة بينها، بما يكفل للدارس فكرة واضحة عن هذا المظهر الحضاري الكبير، وهو تعبير الإنسان عما يدور في فكره بلسانه. يقول «جان بيروه»[1]: إنه من العسير إحصاء اللغات المعروفة في الوقت الحاضر. والصعوبة التي نرتطم بها تأتي أولاً من الناحية النظرية، فالكلمة الاصطلاحية «لغة» تتضمن حقيقة معقدة ليس من السهل تعيين حدودها: أين تنتهي اللغة وأين تبدأ اللهجة؟ وأين تنتهي اللهجة ويبدأ اللحن أو اللغية؟ كل هذا في دنيا الأمر الواقع ما يزال عائماً، وليس هناك فيصل يساعد على التمييز النهائي، والتقسيم الواضح الحاسم. ثم إن المعلومات الوثيقة ما تزال تنقصنا في كتل كاملة، ومعقدة جداً، من التعبير الإنساني سواء في إفريقيا أم في أمريكا، الأمر الذي يحرمنا من إنجاز تعداد دقيق. وبناء على ذلك فإن الجهود الاحصائية لن تستطيع والحالة هذه، أن تطمح إلا إلى أرقام تقريبية، ربما كانت لا تغطي كل ما يسمى «لغة» بقدر ما تنسحب على أشكال وألوان من الألسنة واللهجات واللغيّات.

وفي هذه الحالة يكون الرقم الذي يقدمه اللغويون قريباً من الواقع، ومع ذلك فهم مختلفون فيه بين ألفين وخمسمائة من الألسنة واللغات وثلاثة آلاف وخمسمائة.

وهذا العدد يضم لغات لا يمكن أن يقارن بعضها ببعض من حيث الأهمية: ففي إحصاء نشره الباحث اللغوي إ. تينيير في عام ١٩٢٨م يتبين أن هناك تسعاً وعشريسن لغة فقط في العالم يستعمل كلاً منها مجتمع يزيد على العشرة ملايين من الأنفس، وفي مقدمة ذلك الصين. ويبدو أيضاً أن اللغات التي لها ثقافة وأدب، يعتد بها أولا، هي خمسون لغة في العالم كله، لا تكاد تتجاوز هذا العدد. أما اللغات ذات الأهمية العالمية من حيث سعة إنتشارها

---

(١) Jean Perrot: la liguistique — Collection: que sais-je? Paris 1953, p. 26 SS

أو قيمة تراثها المكتوب فإنها لا تصل إلى نصف هذا العدد.

ومنذ القرن الماضي ونحن نشهد تطوراً في لغات معينة. فالحركات الوطنية التي انبثقت في ذلك الوقت ساعدت على ازدهار لغات وطنية لم يكن معترفاً بها بصورة كاملة من قبل، كاللغة التشيكية واللغة المجرية. وفي الوقت الحاضر كان قيام جمهورية إندونيسيا في جنوب شرق آسيا سبباً في استقلال إحدى لهجات الملايو وجعلها لغة لإندونيسيا تهيمن على أمور الحضارة بين أكثر من سبعين مليوناً من الناس. وشبيه بذلك اصطناع الصهيونية لصورة متطورة للغة العبرية وجَعْلها لغة رسمية لإسرائيل. ويبدو أن اللسان «الهندي» الذي ما يزال لهجة من لهجات الهند مقدر له أن يكون اللغة القومية للهند الجديدة.

وفي إفريقيا تشقّ لهجة «الهاوسا» طريقها لتصير لغة قومية في حوض النيجر، وهو نفس ما تفعله اللهجة «السواحلية» في شرق إفريقيا.

ومهما يكن من شيء فإن معظم اللغات المستعملة بين البشر الآن، والتي عرف المستكشفون المجتمعات المتكلمة بها، قد وصفت وسجلت على نحو من الدقة يزيد وينقص. والعقبات الحقيقية التي تقف في وجه علماء اللغات هي اللغات الميتة: ففي عائلة اللغات الهندية الأوروبية ما تزال مشاكل معينة مطروحة على بساط البحث تنتظر التفسير، فقد وجدت في البلقان ومنطقة البحر الأسود مجموعة لغوية تكاد تكون غير معروفة هي المجموعة «التراقية، الفريجية». واللغة التراقية القديمة نفسها ما تزال إلى الآن شبه مجهولة، مثلها مثل الكتابات «الايبيرية» التي تسجل لغة أمة سكنت شرقي أسبانيا وامتدت شمالاً على الساحل الفرنسي حتى نهر الرون، قبل الاحتلال الروماني لهذه الجهات. وهي ايضاً لغة تكاد تكون غير مفهومة منا. واللغة القبرصية قبل اليونان هي ايضاً لغز من الألغاز. ونفس الغموض يحيط بنقوش معينة في آسيا الصغرى قبل الأتراك وفبل الروم وقبل اليونان بل قبل الحيثيين. كل ذلك يضاف إلى اللغة الأترورية. ومن الكتابات التي ما تزال سراً مبهماً لم تحل طلاسمها حتى الآن الكتابة الكريتية القديمة التي تسمى بين اللغويين

«الأتيوكريتية» أو «المينوئية» التي ترجع إلى الألف الثاني قبل ميلاد المسيح. وهناك لغات مندثرة منها عدد معين في آسيا الصغرى تضاف إلى هذه العقد اللغوية، وتجعل أمر الوصف والتصنيف للغات البشر تقريبياً وغير كامل.

ومع ذلك فليست الصورة كلها معتمة بهذا الشكل، فهناك لغات قديمة كثيرة معروفة لدينا بشكل دقيق أو قريب من الدقة، منها:

١ـ **لغة شومر**: وهم أمة سكنت جنوبي العراق حول الخليج العربي وتركت لنا آثاراً مكتوبة يرجع أقدمها إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. وقد بلغ من قوة هذه اللغة أنها لم تمت نهائياً بعد غزو الساميين الأقدمين «الأكاديين» للعراق، بل عاشت قروناً طويلة في ظلهم، لغة للعلم والدين والثقافة.

٢ ـ **لغة أكاد**: منذ النصف الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد بدأ زحف الساميين من جزيرة العرب نحو سهول العراق، فعاشوا أولاً بجانب الشومريين، وتعلموا كتابتهم وتدينوا بدينهم وتكلموا بلغتهم، كما أنهم سجلوا اللغة الأكادية منذ ذاك الوقت نفسه، وابتلعوا الشومريين سياسياً وعنصرياً. فاستمرت اللغة الأكادية حية متطورة في صورة اللغة البابلية الآشورية ثم الكلدانية، وظلت تصارع عوامل الموت حتى بعد سقوط نينوى عاصمة الأشوريين أمام الغزو الفارسي بقيادة قورش سنة ٥٣٨ قبل الميلاد، فامتدت بها الحياة بين الكهنة والعلماء والفلكيين والأطباء والمنجمين، بل بين بعض طبقات الشعب، إلى ما قبل ميلاد المسيح بقليل.

٣ ـ **اللغة المصرية الفرعونية**: وتبدأ وثائقها كذلك من الألف الرابع قبل الميلاد، ثم تستمر في صورة أخرى بعد انتشار المسيحية في مصر، هي اللغة القبطية التي لم تستطع اليونانية على عهد الاسكندر والبطالسة، ولا اللاتينية في ظل الاحتلال الروماني، أن تمحواها، ولم تتقلص إلا أمام الفتح الإسلامي الذي أقر اللغة العربية بصورة نهائية في البلاد.

٤ ــ **اللغة الحيثية في آسيا الصغرى**: التي تغطي وثائقها الألف الثاني قبل الميلاد.

٥ ــ **اللغة الصينية القديمة**: وآثارها المكتوبة ترجع كذلك إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ولكنها لا تنتهي في خلاله كما انتهت الحيثية بل تزدهر، وتكثر فيها الأعمال الأدبية الكبرى منذ الألف الأول قبل الميلاد، ثم تواصل تطورها الطبيعي وتظل على قيد الحياة إلى يومنا هذا ، حيث تعتبر بحق من أهم اللغات الآسيوية الحية.

٦ ــ **اللغة السنسكريتية**: وهي لغة الهند المقدسة ترجع نصوصها الأدبية التي تعرفها إلى غضون الألف الأول قبل الميلاد.

٧ ــ **اللغة اليونانية**: وهي ايضاً معروفة لنا بنصوصها منذ الألف الأول قبل الميلاد، أي منذ عصر هوميروس الذي يقترن اسمه بالملحمتين العظيمتين: «الإلياذة» و «الأوديسة».

٨ ــ **اللغة العبرية القديمة**: لغة التوراة، وأسفار الأنبياء اليهود، وتراث الحكمة القديمة عندهم، وهي نصوص يرجع أقدم ما وصلنا منها مكتوباً إلى هذا الألف الأول قبل الميلاد نفسه.

٩ ــ **اللغة اللاتينية**: وهي ايضاً من هذا الألف الأول قبل الميلاد، ولكن الحياة استمرت بها إلى القرن الخامس عشر المسيحي، حيث بدأت القوميات تتبلور، وأخذت اللهجات المتفرعة عن اللاتينية تقوى حتى تغلبت عليها وقتلتها.

هذه الأمثلة المعدودة التي ذكرناها تبين أن اللغات القديمة ليست كلها مجهولة منا، بل إن قدرا قدراً كبيراً منها، ومن أهمها، مسجل معروف يجعل مشاكل التصنيف أقل خطورة مما يتصور بعض الباحثين. وهذا التصنيف يتبع طريقتين تتكاملان فيما بينهما:

(١)
تقسيم اللغات إلى فصائل
بحسب طبائعها أو أنماطها

في هذا التقسيم نظر الباحثون في علم اللغة الحديث إلى اللغات، لا من حيث انتماؤها إلى أصل معين هو اللغة الأم لكل مجموعة، ولا من حيث درجة القرابة بين لغات المجموعة الواحدة، بل من حيث الصبغة العامة التي تميز طريقة التعبير، أي من حيث النمط المتبع في صياغة الألفاظ (الصرف) وفي صياغة الجمل (النحو). وخرجوا من هذا بملاحظة أن لغات البشر تندرج تحت ثلاث فصائل:

١ ـ **اللغات العازلة**: ويمكن تسميتها اللغات الجامدة: وهي لغات موادها الأصلية عبارة عن وحدات ثابتة تتكون عادة من مقطع واحد، ثم عند الاستعمال توضع هذه المواد متتابعة حسب نظام نحوى مبنى على ترتيب أماكن الكلمات في الجملة، دون المساس بأية مادة أو لفظة من هذه الألفاظ بتغيير إعرابي أو صرفي أو صوتي. ومن أمثلتها القديمة اللغة الشومرية في العراق، فالشومريون كانوا يستعملون ألفاظاً وحيدة المقطع، فكلمة بيت عندهم هي (أي)، والصفة التي معناها عظيم أو كثير هي (كَلْ) وكلمة رجل هي (لُو)، فكانوا ينطقون مثلاً (لُو ــ كَلْ) وواضح أن معناها الحرفي الرجل الكبير أو العظيم، وكانت هذه التسمية تعني عندهم الملك.. والبيت الكبير الذي يعنون به المعبد كان يقال له (أي ــ كَلْ) وهي الكلمة التي انتقلت منهم إلى الساميين حتى أخذها العرب بلفظ «هيكل». ومن هذه الفصيلة في اللغات الحديثة اللغة الصينية وكثير من اللغات واللهجات القريبة منها في أواسط آسيا والشرق الأقصى.

٢ ــ **اللغات الإلحاقية، أو الإلصاقية**: وهي لغات تختلف عن الفصيلة الأولى بأن فيها مادة أصلية تتألف من مقطع أو أكثر، وتبقى كما هي بلا تغيير، ولكن يستعان فيها لتنويع الدلالات النحوية والصيغ الصرفية بزوائد، تلتصق بالمادة الأصلية على صورة سوابق (Prefixes) أو لواحق (suffixes). فمن عينات الفصيلة التي تستعين بالسوابق لغة «البانتو» في وسط أفريقيا. ولغة «التلنكيت» الأفريقيين ايضاً. ومن عيناتها التي تستعمل اللواحق لغة «الاسكيمو» ولغة الهنود الحمر من قبائل «الالجونكين» الذين تعيش فلول منهم الآن في كندا فقط، وكذلك اللغة التركية.

٣ ــ **اللغات المتصرفة**: وهي التي تتكسر فيها المادة الأصلية فتقبل السوابق (Prefixes) واللواحق (Suffixes) والمقحمات (Infixes) التي تحشر في وسط البنية الأصلية؛ كما تقبل الإدغام والحذف في بعض الحروف، حسب نظام صوتي في كل لغة منها، لأجل تنويع الصيغ، وكذلك لتحديد الوظائف النحوية عن طريق علامات الإعراب. ومن أمثلتها اللغة العربية ولغات كثيرة من اللغات المعروفة الشائعة.

وبالرغم مما يبدو على هذا التقسيم من إحكام فقد هاجمه عدد كبير من العلماء، نذكر منهم ادوارد سابير الذي يقول[١]: إن هناك اعتراضين كبيرين يتجهان ضد هذا التقسيم: أحدهما، أن معظم اللغات لا تنتمي إلى فصيلة من هذه الفصائل بصورة خالصة نقية من الشوائب، بل تتأرجح بين فصيلتين منها أو بين الفصائل كلها؛ فاللغات السامية مثلاً كالعربية والعبرية والسريانية... إلخ، تنتمى إلى اللغات الإلصاقية والمتصرفة في آن واحد، فمادة«أكل» مثلاً في اللغة العربية يأتينا منها المضارع بإضافة «سابقة» هي حرف المضارعة وتغيير طبيعة الحركات إذ نقول يأكل، فإذا انتقلنا إلى الأمر من هذا الفعل وقع فيه الحذف، وقلنا كُلْ، وإذا جمعناه أضفنا «لاحقة» وقلنا:

---

(١) Edward Sapir: Le Langage; P. 115-140

كلوا، وإذا أتينـا بجمع اسم المفعـول منه قلنـا: مـأكـولـون بسـابقـة هي الميم، ومقحمة هي الواو بـين الكاف واللام، ولا حقة للجمع هي الواو والنون.

أمـا الاعتراض الثـاني فهو أن مثـل هذا التقسيم من حيث الشكـل يعتبـر سطحياً، إذ إنـه يجمع تحت فصيلة واحـدة عدة لغـات يختلف بعضها عن بعض تماماً من حيث الروح، لأن واضعي هذا التقسيم قد لاحـظوا بـبسـاطة شيئـاً من وجـه الشبه الخـارجي البحت؛ فمما لا شـك فيه أن لغـة كمبوديـا التي تستعمـل السوابق والمقحمات إنمـا تستعملها استعمـالاً صرفيـاً محدوداً بتنـويـع المشتقات، على حين أن السوابق المستعملة في لغة البانتو أكـثر سيطرة عـلى الكلمة والجملة، إذ لها أهداف في النحو والتركيـب وتحديد العلاقة بـين الفكـرة واللفظ. ويضيف سابـير إلى ذلك أن التقسيم فاسد من حيث جمعه السوابق واللواحق تحت فصيلة واحدة لمجرد النظرة السطحية الخارجيـة ايضاً، عـلى حين أن اللغـات التي تعتمد اعتماداً أساسياً على السوابق تختلف من حيث الفكر اللغوي عن تلك التي تعتمد على اللواحق.

بناء على هذا يتبـين من موقف سـابـير أنه يسم هـذا التقسيم بالسـطحية، أو النـظرة البرانيـة، وبطبيعـة الحال فقـد انساق إلى أن يقتـرح محـاولات أخـرى للتقسيم والتصنيف منها هذه المحاولة:

يقول: إن جميع فصائل الكلام تعبر بـالضرورة عن متصـورات إسناديـة، أو عن علاقات بـين هذه المتصورات، ثـم إن الألفاظ نفسها قد تكون جـامدة في بعض اللغات، أي وحدات مستقـل كل منهـا عن الآخر، وقـد تكون من لغـات فيها اشتقاق وتصريف، كذلك راح يبحث في الروابط في الاسنـاد: أهي صوتيـة ملفوظة، أو نظمية فقط، أي مجرد علاقات تركيـبية فكرية يحددهـا مكان اللفـظة من الأخـرى. وحاول بنـاء عـلى هـذه الاعتبـارات أن يقسم اللغـات إلى لغـات تحليليـة، ولغات تـركيـبيـة، ثم لغـات تعتمد عـلى الاشتقاق، ولغـات لا تعتمد عليه. ووصف وجهة النظر هذه بأنّها نقيـة من سطحية التصنيف السـابق، وأنها

«جوانية» أي تتعلق بروح الفكر اللغوي، لا «برانية» تتعلق بشكل الألفاظ والجمل فقط. ولكنه في النهاية أقرَّ بأن تصنيفه هذا لا يمكن أن يضع حدوداً فاصلة واضحة المعالم بين اللغات بعضها وبعض، كما ذكر أن بعض اللغات يمكن أن يقع في تقسيمه وسطاً بين فصيلتين، الأمر الذي عابه على التصنيف الأول. ووصل به الأمر من ذلك إلى أنه أعلن أن أي تقسيم نمطي لكلام البشر غير ممكن، لأن الكلام، شأنه شأن سائر مظاهر النشاط الإنساني، يختلف من مجتمع لآخر، بحيث يصعب إدخال طوائف معينة منه في نمط واحد وتحت فصيلة واحدة. ولخص أسباب صعوبة هذا التصنيف في أربعة:

(أ) ليست هناك نقطة بدء منطقية تفرض نفسها عقلاً عندما نشرع في هذا التصنيف.

(ب) إن تصنيف لغات البشر ولهجاته التي تعد بالآلاف تحت فصائل تعد على أصابع اليد أمر خطير جداً، ولا سيما إذا علمنا أن كل علماء اللغويات يجهلون معظم هذه الآلاف المؤلفة من اللغات.

(جـ) إن هذا التصنيف هو ميل إلى التبسيط في مسائل من أشد الأمور تعقيداً، ومن السذاجة أن تحدد بطريقة ما، غالباً ما تكون تحكمية بحتة: قطبين يتدرج التصنيف بينهما، نقطة بدء ونقطة انتهاء، أي ما نفترض كونه طرفي نقيض، كاللغة الصينية مثلاً من ناحية، واللغة اللاتينية من ناحية أخرى، ثم نحاول أن نحشر كل لغات البشر بينهما بشكل أو بآخر.

(د) الإسراف في الإيمان بفكرة التطور التقدمي التي قال بها الاجتماعيون في القرن التاسع عشر، ومحاولة اللغويين نقل هذه الفكرة إلى البحث اللغوي، إذ أكثرهم رأى أن اللغة اليونانية واللغة اللاتينية هما أرقى صور الكلام التي ظهرت بين البشر، وساعدهم على ذلك ارتباطهم منذ الطفولة بالتراث اليوناني واللاتيني في اللغة والتاريخ والحضارة، في المدارس التي تعلموا بها؛ فتبلورت لديهم، وجدانياً لا عقلياً، حالة إعجاب أو تقديس لهاتين

اللغتين، وجعلوهما المثل الأعلى عند المقارنة والقياس، في حين أنه على محك النظر العلمي المتجرد ليس هناك أدنى دليلٍ على امتياز لغوي لليونانية أو اللاتينية.

وهكذا تظل مشكلة تصنيف النظم اللغوية عند البشر، من حيث إنها لغات ولهجات، وبصرف النظر عن الناطقتين بها، وعن أوطانهم وزمانهم ودرجاتهم في الحضارة، ويظل هذا التصنيف أمراً مشكلاً نتركه برمته لتفكير اللغويين، ونقنع منه فيما يتصل بنا بالتقسيم الذي لم يرض عنه سابير، فهو على ما فيه من عيوب، يعطينا إمكانيات أمتن في البحث اللغوي التجريدي، كما أنه بسطحيته وبرانيَّته يقينا من المؤثرات الثانوية في حكمنا على الأنماط اللغوية كحالة الأدب أو التأليف أو وجود كتاب مقدس، أو غزارة الحكم والأمثال أو المأثورات الشعبية ونحو ذلك، مما يبهر الباحث فيشغله عن التركيز البحت على النوعية اللغوية فقط للكلام.

* * *

(٢)
تقسيم اللغات إلى عائلات لغوية

يعتبر تقسيم اللغات إلى عائلات أو مجاميع، كل مجموعة منها يبدو أنها منحدرة من أصل واحد، من أهم نتائج علم اللغة التاريخي. ولما كان علم اللغة التاريخي نفسه ودراسة تاريخ اللغات من المباحث الحديثة في اللغة، فقد جرت عادة الكتاب الغربيين على اعتبار أصول هذا التقسيم من مخترعاتهم، وأنها لم تبدأ إلا مع مقارنة اللغات الأوروبية بعضها ببعض. ويذكرون أن انتباه المفكرين في أوروبا إلى هذا التقارب بدأ بملاحظته في اللغات الرومية. (أي المنحدرة من اللاتينية) وذلك في أوائل القرن الرابع عشر حيث تعزى مقالة إلى الأديب الإيطالي دانتي (Dante) حول الألفاظ التي معناها «نعم» في اللغات الرومية ورجوعها جميعاً إلى أصول فصيحة في اللغة اللاتينية.

ومن القرن السابع عشر شغلت مسألة القرابة بين اللغات الرومية أذهان المفكرين. وبالرغم من الوضوح الشديد في سمات هذه القرابة، فقد ظلت موضع شك، بل إنكار، من فريق من العلماء، حتى كرسها البحث العلمي في القرن التاسع عشر فقط. وبالطبع سارت المقارنات اللغوية في البداية متعثرة جداً حتى إن ب. جامبولاري (P. Giambullari) حاول أن يربط لهجة بلده (فلورنسا) باللغة الكلدانية. أما ج. بريون (J. Périon) فربط الفرنسية باليونانية بصلات قرابة تاريخية وفكرية دون أن تكون ثمة سمات تشابه وتطور. والذي حاول هذه المحاولة هو إتيين (Estienne) في مؤلفه الذي عنوانه «رسالة في مطابقة الفرنسية لليونانية» (سنة ١٥٦٩) كما ربط نفس المؤلف (سنة ١٥٧٦) بين

الفرنسية واللاتينية في رسالة أخرى. وفي أواسط القرن السابع عشر ظهر كتاب «أصول اللغة الفرنسية» الذي ألفه مناج (G. Ménage) وطبقت شهرته أوروبا كلها. وقبل هذا الإسباني الدريتى (B. Aldrete) قد حاول دراسة مماثلة للعلاقة بين الإسبانية واللغة اللاتينية. وواضح أن هذه المحاولات في بدايتها كان مبعثها الرغبة في قتل اللغة اللاتينية. كان عصر النهضة الأوروبية الذي بزغت أنواره منذ القرن الرابع عشر قد أيقظ القوميات المحلية في أوروبا، وشجعها على أن تحاول أن تتعتع عن كاهلها نير الكنيسة ولو قليلاً، وأن تؤكد شخصياتها في أوطانها، فتحرر الفن التشكيلي، وتحرر الأدب فكتب عباقرة عصر النهضة آثارهم الخالدة لا باللاتينية الفصحى بل بلهجات عامية شعبية: دانتي وبترارك بوكاشيو ثم مكيافيلي في إيطاليا، ورابليه ومونتيني ورونسار في فرنسا، وسرفانتيس مؤلف الدون كيشوت في أسبانيا؛ فنشأت حركة لغوية متضافرة مع روح النهضة، ومع هذه النزعة التحررية والرغبة الملحة في الخروج من العصور الوسطى، تدعو إلى النظر إلى اللهجات التي يكتب بها الأدباء في أوروبا على أنها مواليد شرعية للغة اللاتينية، وبالتالي فهي جديرة بميراثها، أي أن هذه الدراسة كانت فرعاً من الصراع الذي نشب بين الفصحى والعامية في أوروبا. وليس ينبغى مقارنة هذه الحالة بالعامية والفصحى في العالم العربي، فالإسلام ليست فيه بابويّة، والتعايش السلمي بين العاميات والعربية الفصحى قد قرره التاريخ منذ عصر الجاحظ في الشرق وابن قزمان في الأندلس.

إذن فالقرن التاسع عشر هو الذي شهد في أوروبا، التأريخ للغات وتصنيفها في عائلات يبدأ سيراً منهجياً لم يعرفه من قبل، وهو وقت متأخر جداً بالنسبة لظاهرة كان ينبغي أن تشد أنتباه العلماء من قبل، فما السبب في ذلك؟ إلى جانب روح الصراع بين اللاتينية الفصحى وبناتها العاميات وما كان يمليه من نفور ومقاومة في حلقات العلم الرصينة المحافظة، كان هناك عامل آخر له صفة دينية. ذلك أن الكتاب المقدس الذي تدين به أوروبا كان أصله باللغة العبرية. وكان اليهود منذ حقبة التلمود قد أشاعوا أن هذه اللغة التي كلم الله

بهاموسى لغة أبدية أزلية سماوية، نستطيع أن نقول إنها في اعتقادهم اللغة الرسمية لله. ووافقهم على ذلك آباء الكنيسة المسيحية، فظلوا حتى القرن السابع عشر يقولون: إنه ما دامت هذه اللغة هي لغة الوحي فإنه يترتب على ذلك ضرورة الاعتقاد بأنها اللغة الأولى للبشر التي عنها تفرعت جميع ألسنتهم، وإن كانت حكاية برج بابل التي وردت في سفر التكوين من التوراة تخفف كثيراً من سلطان هذه العقيدة. ومع ذلك فقد وُجد من يقول بأمومة العبرية للغات البشر، ومنهم جيشار (E. Guichard) الذي ألف في ذلك في أوائل القرن السابع عشر دراسة عن «النسق الاشتقاقي للغات المنحدرة من العبرية» ولكن الفيلسوف ليبنيز (Leibniz) يحمل على هذه العقيدة وعلى أشباهها حملة شعواء.

إلا أن النظرية البديلة التي قدمها ليبنيز لم تكن قد وصلت إلى حد الكمال، فهو يحاول أن يجعل لغات أوروبا وآسيا ترجع إلى أصل واحد، هو نفسه الذي يضم اللغة المصرية القديمة. ولكننا على كل حال نقترب شيئاً فشيئاً بهذا الشكل من اكتشاف اللغات الهندية الأوروبية وما بينها من صلات، وهي صلات لاحظ بعضها منذ القرن السادس عشر الإيطالي ساسيتي (Ph. Sasseti) والفرنسي كيردو (P. coeurdoux) والإنجليزي جونز (W. jones) بعد ذلك.

وتاريخ اللغات وتقسيمها إلى عائلات، إذا كان يرجع في أوروبا إلى القرن التاسع عشر، فإنه في الشرق العربي أقدم من ذلك بكثير. فاللغوي الفرنسي جان بيرو[١]، يذكر في كتابه «علم اللغة» أن الإمام ابن حزم الأندلسي المتوفى في القرن الخامس الهجرى قد ذكر أن اللغة العربية والعبرية والسريانية متفرعة من أصل واحد. كذلك قال الإمام اللغوي علي بن أحمد بن سيده في كتاب المخصص: «وكنعان بن سام بن نوح، وإليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع العربية»[٢] ومنه يتبين إدراك هذين العالمين أن العبرية

---

(١) Jean Perrot: La Linguistique, P. 85.

(٢) المخصص، لابن سيده، ج ١٣، ص ١٦٧.

والسريانية والكنعانية من نفس العائلة اللغوية الي تنتمي إليها اللغة العربية. بل إن كثيراً من علماء المسلمين، عند تفسيرهم للقرآن الكريم، كانوا يشيرون إلى بعض ألفاظ تشابهت في العربية والعبرية والسريانية ونذكر منهم الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات القرآن». وقد كثر بين اللغويين العرب من يتكلمون في أصول بعض الألفاظ كالمصحف والمنبر والسورة والآية والملائكة ويتلمسون لها المنابع الأولى في الحبشية أو السريانية أو غيرهما، ثم هناك كل الكتب التي ألفت في المعرَّب والدخيل وما جاء في كلام العرب من لغة النبط ولغة حمير وهي اليمنية القديمة. كل ذلك يدل على أن هؤلاء العلماء كانوا منذ القرن التاسع والعاشر الميلاديين متنبهين، في حدود الإمكانيات العلمية المتاحة لهم، لصلات القرابة بين اللغات.

وقد بدا هذا بشكل أوضح عند العلماء المسيحيين واليهود الذين نشأوا في ظل الثقافة العربية. فأكثرهم كان مضطراً بحكم دينه إلى إتقان لغة أخرى على الأقل غير العربية قد تكون العبرية، أو الآرامية (لغة التلمود) أو السريانية. بل كان كثير منهم يعرف لغات أخرى من خارج عائلة اللغات السامية، كالفارسية والهندية واليونانية وغيرها، وكانوا يشتغلون بالطب أو الحسبة أو الترجمة، وفي هذه الصناعة الأخيرة كانوا يتبينون بوضوح درجة التقارب بين لغات العائلة الواحدة ودرجة التباعد بين اللغات المختلفة الأصل. فالمترجمون السريان كانوا يشعرون وهم ينقلون من اليونانية إلى العربية أنهم يتوسطون بين طرفين غريبين، فإذا ما وصلوا إلى الترجمة من السريانية إلى العربية وجدوا القرابة الحقيقية والأصل الواحد.

وفي بغداد كان اليهودي سعديا سعيد بن يوسف الفيومي، المتوفى سنة ٩٤٥ ميلادية يرأس الحركة العلمية واللغوية العبرية، وكان يتتلمذ على اللغويين العرب ويحذو حذوهم، بل كان يفسر الألفاظ العبرية المشكلة في التوراة بما يقاربها في اللفظ العربي. وقد ترجم الكتاب المقدس اليهودى (التوراة ــ الأنبياء ــ كتب الحكمة) إلى اللغة العربية، فكان يختار أقرب الألفاظ

العربية من نطق اللفظة العبرية، كلما أمكنه ذلك. وفي المغرب والأندلس ظهر فوج من علماء اليهود اقتبسوا مناهج اللغويين والنحاة العرب وطبقوها أيضاً على اللغة العبرية، وعلى رأس هؤلاء مناحم بن سروق، ودونش بن لبرط، وأبو زكريا يحيى بن داود حيوج، وأبو سليمان داود بن إبراهيم الفاسي، الذي ألف معجماً ضخماً للغة العبرية يقع في مجلدين كبيرين وجعل شرحه للألفاظ بالعربية[1]، ونص في أكثر من موضع على التقارب والتشابه بين اللغتين، ثم يأتي شيخ نحاة اليهود بلا منازع مروان بن جناح القرطبي المتوفى في سرقسطة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، فيكتشف الصلة المتينة من حيث الأصل بين عدد لا بأس به من اللغات السامية، وفي مقدمتها العبرية والعربية، ويؤلف باللغة العربية كتاباً في النحو العبري اسمه «كتاب اللمع»، يقول في مقدمته، وهو يشرح منهجه في دراسة القواعد وتفسير مشكلات اللغة:

«وما لم أجد عليه شاهداً من المقرا (أي الكتاب المقدس) استشهدت عليه بما حضرني من المشنة والتلمود (مرويات شفوية في الدين بالعبرية والآرامية) واللغة السريانية، وجميع ذلك من استعمالات العبرانيين. مقتفياً في ذلك أثر رأس المثيبة (رئيس علماء يهود العراق) الفيومي رحمه الله في استشهاده على «السبعين لفظة الفردة»[2] (أي المستعملة مرة واحدة في كل الكتاب المقدس) من المشنة والتلمود، وأثر غيره من الجأونيم أيضاً (أي الأحبار) كالسيد شريرا والسيد هاي رضي الله عنهما، وأثر غيرهما أيضاً. وما لم أجد عليه شاهداً مما ذكرته ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي، لم أنكل من الاستشهاد بواضحه، ولم أتحرج عن الاستدلال بلائحه، كما يتحرج عن ذلك من ضعف علمه، وقل تمييزه، من أهل زماننا، لاسيما من استشعر منهم التقشف وارتدى بالتدين، مع قلة التحصيل لحقائق الأمور. وقد رأيت رأس المثيبة سعديا ــ نضر الله وجهه ــ يتوكأ

(١) كتاب جامع الألفاظ أو (الأجرون)، لأبي سليمان داود بن إبراهيم الفاسي. تحقيق سالومون سكوس، طبع فيلادلفيا، الجزء الأول سنة ١٩٣٦م، والثاني سنة ١٩٤٥م.

(٢) هو عنوان كتاب لسعديا الفيومي يفسر فيه هذه الألفاظ العبرية الغريبة النادرة

على مثل ذلك في كثير من تراجمه، أعني أنه يترجم اللفظة العبرية الغريبة بما يجانسها من اللغة العربية. وقد رأيت الأوائل رضي الله عنهم.. وهم القدوة في كل شيء، يستشهدون على شرح غريب لغتنا بما جانسه من غيرها من اللغات».

ثم يعقد مروان بن جناح مقارنة لغوية بين اللسانين العربي والعبري فيقول:

«أما اعتلاله وتصريفه ومجازاته واستعمالاته فهو في جميع ذلك أقرب إلى لساننا من غيره من الألسن، يعلم ذلك من العبرانيين الراسخون في علم لسان العرب، النافذون فيه، وما أقلهم».

ثم يؤكد أنه يشق طريقه نحو ما أصبح يسمى في العصر الحديث بعلم اللغة المقارن، وفقه اللغة والنحو المقارن أيضاً، فيقول: «ولسنا نقنع نحن فيما نستشهد من ذلك بمثل ما قنع به الأوائل، رضي الله عنهم، مما ذكرناه من استشهادهم، بل بما هو أبين دليلاً، وأقوى برهاناً، لعلمي بتعسف أهل زماننا وكثرة تشططهم، وبما يبعثهم عليه الحسد من الإنكار بما ليس بمنكر، ومن الدفع فيما لا مدفع فيه»[1].

وممن يستحقون الذكر مِنْ علماء هذه المدرسة اليهودية الداعية إلى المقارنة بين العبرية وسائر اللغات السامية، لمعرفة معاني الألفاظ معرفة واضحة، وإدراك أسرار التركيب إدراكاً دقيقاً، اللغوي اليهودي المغربي يهودا بن قريش، ومن أحسن كتاباته في هذا الباب وصية بعث بها إلى الجالية اليهودية في مدينة فاس يحثهم على قراءة الترجمة الآرامية للتوراة (الترجوم) عند دراستهم للنص العبري، وكذلك عند قراءتهم لأسفار الأنبياء، ويشرح في هذه الرسالة الروابط اللغوية المتينة التي تربط العبرية بكل من الآرامية والعربية، ثم يميل إلى

---

(١) كتاب اللمع (في النحو العبري)، لأبي الوليد مروان بن جناح القرطبي الأندلسي. حققه ونشره يوسف دربنورغ في باريس سنة ١٨٩٦م ــ المقدمة.

الفارسية، فيثبت أنها قد أثرت في العبرية ببعض الألفاظ الدخيلة، كما أثرت فيها لغة البربر في إفريقية[1].

وهذه الوصية تردّنا من جديد إلى مروان بن جناح[2] الذي يشير إلى منهج أمثال ابن قريش وغيره من العلماء بقوله: «أفلا تراهم يفسرون كتاب الله (يعني التوراة) من اللسان اليوناني والفارسي والعربي والإفريقي وغيرها من الألسن، فلمّا رأينا هذا منهم لم نتحرج عن الاستشهاد على ما لا شاهد عليه من العبراني بما وجدناه موافقاً ومجانساً له من اللسان العربي، إذ هو أكثر اللغات بعد السرياني شبهاً بلساننا». ويصل مروان بن جناح في ثورته على الفكر اللغوي المحافظ المتسم في نظره بالجمود، إلى حد أنه يقول في وجه المتزمتين من يهود عصره بالتطور اللغوي والتكامل بين الحقب المختلفة من حياة اللغة، ويشدد النكير على مَنْ يعارض في ذلك فيقول: «وأشنع من هذا وأقبح من فعلهم وأظهر من جهلهم، إنكارهم علينا معشر أهل التفسير لكتب الله المنزلة الاستشهاد بألفاظ المشنة (الشريعة الشفوية، وعبريتها متطورة متأخرة) إذ يجعلونها، بما يوجد فيها من ألفاظ غريبة، خارجة عن قياس اللغة».

ومن بين الذين أنصفوا الفكر اللغوي في ظل الحضارة العربية من وجهة النظر هذه جان بيرو[3] حيث يقول بعد أن بيّن أن الدراسة اللغوية المقارنة وتقسيم اللغات إلى عائلات حديث جداً في الفكر الأوروبي: «بينما كانت القرابة بين اللغات السامية معترفاً بها منذ وقت مبكر من النحاة اليهود والعرب الذين كانوا يعيشون في جهاتٍ مختلفةٍ من العالم العربي».

---

(١) Barges and Goldberg: Epistola da studii torgum utilitate et de linguae chaldaicae, Misnicae, Talmudicae, Arabicae, vocalblarum item nannullorum convenientia cum hebraea: Paris 1875.

(٢) مروان بن جناح: اللمع ـــ المقدمة.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٨.

مهما يكن من شيء فإن المقارنة اللغوية قد أدت إلى ملاحظة تشابه، لا في النمط النحوي الذي عرضنا لمشاكل تصنيفه قبل أن يفضي بنا الحديث إلى العائلات اللغوية، ولكن لوحظ تشابه أوثق وأشد اتصالاً بالتاريخ. فعندما نَوَّه مروان ابن جناح ومعاصروه قديماً بالتشابه بين العبرية والعربية، كانوا يعنون بهذا التشابه الوجوه التالية:

١ ــ **التشابه في النطق**؛ فهذه الطائفة من اللغات تحتوي مثلاً على حروف حلقية مثل الحاء والعين لا توجد في غيرها من لغات المجاميع المجاورة كاللغات الأوروبية؛ وكذلك حروف التفخيم كالصاد والطاء والظاء والقاف.

٢ ــ **التشابه في الألفاظ**؛ فهناك نسبة كبيرة جداً من الكلمات توجد بنفس نطقها ومعناها، أو مع تغيير طفيف في هذه اللغات، فألفاظ مثل «يد»، «رجل» و «عين» و «أذن» و «بطن» و «رأس» و «زرع» و «حقل» والأفعال «ولد» و «أكل» و «مات» و «كتب» و «قرأ» مشتركة في أكثر اللغات السامية التي منها العربية والعبرية والسريانية... إلخ.

٣ ــ **التشابه في الصرف**؛ فالفعل يأتي المجرد منه على ثلاثة أحرف، وكثير من الصيغ المزيدة يشيع وجوده في هذه اللغات بنفس الصورة، أو باختلاف قليل، وكذلك طريقة التأنيث والتذكير وأسماء المكان والزمان والآلة... إلخ.

٤ ــ **التشابه في تركيب الجملة**؛ فهي تكون اسمية من مبتدأ وخبر أو فعلية؛ وكذلك تبدو وجوه شبه قوية جداً في الضمائر وأسماء الإشارة والحروف التي تستعمل في العطف والجر ونحوهما.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، ومما لوحظ من نشوء هذه اللغات وتطورها في منطقة واحدة، تعقب الباحثون المحدثون نفس الظاهرة فاكتشفوا تشابهاً مقارباً لذلك في مجموعة اللغات المنحدرة من أصل لاتيني أو سلافي أو جرماني، وبدأ علم اللغة التاريخي والمقارن يخطو خطواته الأولى.

والآن لا بد من السؤال عن الأساس الذي قسم به العلماء المحدثون

اللغـات إلى عائـلات: أهو تقسيم «عنصـري»، بمعنى أن مجموعـة الشعوب التي تنتمي إلى أصل واحد تكلمت بهذه اللغات؟ أم أنه تقسيم فني تكنولوجي يراعي ظاهرة اللغـة في المجتمع دون أن يتقيـد بنسب أو عنصر بين المتكلمـين باللغـات المتشابهة؛ مكتفياً بالتشابه القائم بين اللغات نفسها فقط؟ الواقع هو أن الطريقتين قـد استعملتا لـدى الباحثـين، وربما كـانت الطريقـة الإثنولـوجية العنصـرية التي تراعي صلة النسب بين الشعوب أقدم ظهوراً لدى الباحثين، الأوروبيين. فمثلاً تذكر الأستـاذةُ همبـورجر في كتـابها «الكـلام واللغات»[1] أن هـذه الطريقـة هي المتبعة لدى اللغوي فـريدريك مولر. كذلك حاول الأستـاذان الفرنسيـان أنطوان مييه ومارسيل كوهين في كتابهما المشهور «لغـات العالم» ربط العـائلات اللغـوية، وترتيب اللغات في داخل كل عائلة باعتبـارات عنصريـة، وإن لم يظهـر بوضـوح الأساس العلمي لهذا التصنيف العنصـري، ولا حرص المؤلفـين على جعله شيئـاً نهائيـاً. وتقـول الأستـاذة همبـورجـر: إنـه لا يمكن الاطمئنـان إلى أي تقسيم من التقسيمـات القائمـة حاليـاً، إلاّ في مجاميـع راسخـة مستقرة تـاريخياً وحضـارياً، كـالمجمـوعـة الهنـديـة الأوروبيـة والمجمـوعـة السـاميـة مثـلاً. أمـا الـرابـطة بـين المجمـوعـة السـامية والمجمـوعـة الحـاميـة الإفـريقيـة فـما تـزال مـوضـع جـدل بـين مؤيـدي هــذه الـوحـدة ومعــارضيهـا من العلماء. وتضــرب هـذه الأسـتـاذة ــ وهي متخصصـة في اللغـات الإفـريقيـة ــ مثـلاً من كتـاب «لغـات العالم» الـذي يضـع لغـة «الزنـج»، «والبـوشيمـان»، «والهـوتنتـوت» في مجمـوعة واحـدة أو مجموعتـين على الأكـثر، مع أن نفس هـذا التردُّد يـوحي بأن أساس التقسيم غير متين. وتذكر أيضاً أنّ اللغوي الفرنسي سوفاجو (Sauvageot) كتب فصلاً في كتاب «لغات العالم» المشار إليه عن لغة الباسـك، وهم عنصر مميز من الفرنسيين يسكنون جنوب غربـي البلاد في الأقاليم المتاخمـة لجبال البـرانس، ويمتـد مجتمعهم إلى شمـال إسبـانيـا، يقـول فيـه إن لغتهم تنتمي إلى المجمـوعـة الفنلنـدية المجـرية التي تضم إلى جـانب لغة الشعبـين الفنلنـدي والمجـري لغـة

(١) Homburger: le langage et les langues, Payot — Paris 1951, p. 23 ss.

إسكيمو شمال أوروبا وبعض لهجات منتشرة في شمال شرق أوروبا، من المجر وفنلندا إلى روسيا، منها لهجات عشائر «الساموئد» وهم من بدو المناطق الباردة، يعيشون متنقلين من جبال الأورال إلى المحيط المتجمد الشمالي. أما اللغوي جورج لاكومب (Georges Lacombe) فيرجح أن تكون لغة الباسك هي بقية من بقايا اللغة القديمة في إيبيريا وإسبانيا والبرتغال قبل الغزو الروماني. وهناك من يدعي أن الباسك هم البقية الباقية من الشوميريين، الذين سكنوا العراق القديم قبل نزوح الساميين إليه.

ونحن كلما نظرنا إلى هذه الخلافات تأكد لنا أن الحضارة الإنسانية ما تزال فيها ميادين شاسعة جداً تعوزنا عنها المعرفة التاريخية والاجتماعية واللغوية الكافية. ولا يستطيع مصنف اللغات في عائلات، وهو يرسم الأطلس اللغوي للعالم، إلاَّ أن يتحفظ كما تتحفظ الأطالس الجغرافية في مناطق من أرجاء العالم ما تزال غير مدروسة.

ونعود إلى نفس المؤلفة السابقة فنجدها تلاحظ ملاحظةً قيمة عندما تقول: إن اللغويين ظلوا ردحاً من الزمن يتكلمون عن مجموعة اللغات الطورانية التي كانوا يسمونها أحياناً الأورالو ـ ألطائية، ويضعون تحتها الفنلندية ـ المجرية، كما يضعون لغات الترك والمغول والتنجوز. ومع ذلك فإن أحد العلماء المتخصصين في هذه اللغات وهو الفرنسي ج. دني (J. Deny) يعالج كل لغة من الثلاث الأخيرة مستقلة عن الأخرى في الفصل الذي كتبه في «لغات العالم»، ولا يعترف بصلة انتمائية بينها، ولا بما يسمى بالمجموعة الأورالو ـ ألطائية.

ثم إنها تشير إلى رأي اللغوي الروسي سيرج أليسييف (Serge Elisséev) الذي ورد في فصل في كتاب «لغات العالم» أيضاً، وخلاصته أنه في الشرق الأقصى حيث تزدهر اللغات اليابانية والكورية ولغات الآينو (حول جزيرة سخالين وجزيرة ييسو) ولغة أقصى شمال شرق آسيا القطبية، ما تزال هذه اللغات مجهولة التطور والتاريخ إلى حد كبير بحيث لا نستطيع أن نؤكد اتحادها في مجموعة واحدة، والبحوث التي نشرت في هذا لا تعدو أن تكون افتراضات.

أمّا لماذا كانت نظرية تقسيم اللغات إلى عائلات مرتبطة لأول وهلة بالتقسيم الأنثربولوجي للأجناس البشرية، فمن المرجح أنَّ مرد ذلك عند العلماء الأوروبيين إلى تأثرهم بنصوص في الكتاب المقدَّس نفسه أشهرها ما جاء في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، من تقسيمٍ لتفرعات البشر بعد الطوفان، ومن ارتباط ذلك بالتوزيع الجغرافي من ناحية، والقبلي من ناحية أخرى. ثم ربط ذلك كله في بداية الإصحاح التالي بفكرة تشعب اللغات. يقول هذا الإصحاح العاشر: «وهؤلاء مواليد بني نوح: سام وحام ويافث، ومن ولد لهم من البنين بعد الطوفان.

بنو يافث: جومر ومأجوج ومادای وياوان وتوبل وماشك وتيراس. وبنو جومر: أشكناز وريفات وتوجرمه. وبنو ياوان: أليشة وترشيش وكتيم ودودانيم. من هؤلاء تفرق أهل جزائر الأمم في بلدانهم كل بحسب لغته وعشائره بأممهم.

وبنو حام: كوش ومصرائيم وفوط وكنعان. وبنو كوش: سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا، وبنو رعمة: شبا وددان. وكوش ولد نمرود، وهو أول جبار في الأرض. وكان جبار صيد أمام الرب. وكان أول مملكته بابل وأرك وأكاد وكلنة، في أرض شنعار. ومن تلك الأرض خرج أشور فبنى نينوى، وساحات المدينة، وكالح وراسن، بين نينوى وكالح، وهي المدينة العظيمة. ومصرائيم ولد لوديم وعناميم والهابيم ونفتوحيم، وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم الفلسطينيون وكفتوريم. وكنعان ولد صيدون، بكره، وحِيث، واليبوسيين والأموريين والجرجاشيين. والحريين والعَرْقِيِّين والسينيين والأرواديين والسماريين والحمويين، وبعد ذلك تفرقت عشائر الكنعانيين. وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وأنت آتٍ نحو جِرَار إلى غزة وأنت آتٍ نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم إلى لاشع. هؤلاء بنو حام بعشائرهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم.

وولد لسام أيضاً بنون، وهو أبو جميع بني عابر، أخو يافث الأكبر.

بنو سام: عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام. وبنـو آرام: عوص وحـول وجاثـر وماش. وأرفكشاد ولد شالح. وشالح ولد عابر. وولد لعابر ابنان: اسم أحدهما فـالج لأنـه في أيامـه انقسمت الأرض، واسم أخيه يقـطان ويقطان ولـد المـوداد وشالف وحضرموت ويـارح وهـدورام وأوزال ودفلـة وعوبال وأبـي مائيـل وشبا وأوفير وحويلة ويـوباب، كـل هؤلاء بنو يقـطان. وكان مسكنهم من ميشا وأنت آتٍ نحو سفار جبل المشرق، هؤلاء بنو سام بعشائرهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم.

هؤلاء عشائر بني نـوح بمواليـدهم وأممهم، ومنهم تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان».

وممن أخذ بالتقسيم العنصري للعائـلات اللغويـة من علمائنـا المعاصـرين المـرحوم الأستـاذ الدكتـور عـلي العنـاني حيث يقـول في البـاب الأول من كتـاب «الأساس»:

«قَسَّم المستشـرقون اللغـات الإنسانيـة، لسهولـة البحث فيهـا، إلى عـدة مجاميـع تشتمل كل واحدة منها على طائفة من اللغـات التي بين بعضهـا والبعض الآخر قرابة في الألفاظ والتـراكيب، والقواعـد والتفكير. والقـاعدة الأسـاسية في هذا التقسيم جَعْله تابعاً إلى تقسيم النوع الإنساني إلى أجناس بشرية.

«وبنـاءً على وضـع هذه القـاعـدة الأسـاسيـة اختلف البـاحثـون في عـدد المجاميـع اللغوية، وكيفية تقسيمها تبعاً لـلاختلاف في عـدد الأجناس البشـرية، والأسس التي استندت إليها طرق التقسيم.

«وأول تقسيم لـلأجناس البشـرية هـو تقسيم التـوراة التي أرجعت النـوع الإنساني، على تعدد قبائلة وشعوبه وأممه، إلى أبناء نوح الثلاثة: وهم سام وحـام ويافث، فجعلت الأجناس البشرية لذلك ثلاثة فقط، يرجع كـل واحد منهـا إلى جدّ أعلى من أبناء نوح الثلاثة.

«وهناك تقسيمات طبيعية أخرى ترجع في تكـوينها إلى طبيعـة الإنسان من حيث الألوان والمشخصات الفكرية، والأماكن والأوساط.

«وعلى أي تقسيم من هذه التقاسيم سواء أكان مبنياً على رواية الكتاب المقدس أم النظر الطبيعي، فإنه توجد جماعة متحدة النشأة والمكان واللون كَوَّنَتْ جنساً بشرياً عظيماً، قد اتصلت شعوبه اتصالاً وثيقاً، وارتبطت بكل الروابط الطبيعية التي تجعلها حقيقة جنساً بشرياً ممتازاً على مبدأ أي تقسيم.

«ويعرف هذا الجنس الممتاز في رواية التوراة بالجنس السامي، كما يعرف أيضاً بهذا الاسم وبوحدته الجنسية الطبيعية بين جميع الأجناس البشرية الأخرى التي حددها النظر الطبيعي، والعلم التجريبي الدقيق، ووضع أسماءها على ما هو معروف.

«وكذلك الجنس الحامي قد أخذ وضعاً مثل هذا الوضع المتقدم للجنس السامي، فإنه استمد اسمه ووحدته في التقسيمين الديني والطبيعي مثل الجنس السامي جنباً لجنب. ومعنى ذلك بالاختصار أن هذين الجنسين المتقدمين قد بقيت لهما التسمية والوحدة الجنسية في رأي أي تقسيم، حتى إنك لتجد في بعض المراجع عدّهما جنساً واحداً يعرف بالجنس السامي الحامي، لما وجد من الامتزاج بين أهم هذين الجنسين في اللغات وفي تطور الجماعات.

«أما الجنس اليافثي بتعبير التوراة فإنه ليس معروفاً بهذه التسمية وبوحدة شعوبه وأممه التي أحصاها هذا الكتاب المقدس إلاَّ في التقسيم الديني. أما النظر الطبيعي فإنه وضع له اسماً آخر وهو: الجنس الآري، أو الهندوجرماني. وعد له أمماً في آسيا وفي أوروبا لم يروها الكتاب المقدس، وأهمل من هذا الجنس أمماً ذكرها له هذا الكتاب[1].

«أضاف التقسيم الطبيعي إلى هذه الأجناس البشرية الثلاثة، وهي السامي والحامي واليافثي أو الآري، بعد التحوير الكبير في ثالثها الأخير،

---

(١) كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها، وقواعد اللغة العبرية وآدابها: تأليف الدكتور علي العناني ــ ليون محرز ــ محمد عطية الأبراشي. طبع المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٥٤هـ ــ ١٩٣٥م، ص ١٥ وما بعدها.

أجناساً كثيرة أخرى. كما أضاف إلى مجموعات لغات الأجناس الثلاثة مجموعات لغات تلك الأجناس بعد التعديل الكبير في مجموعة اللغات الآرية، بناءً على التعديل في أمم هذا الجنس»[1].

والواقع أن المؤلف مشكور بمحاولته نقل صورة، حتى بهذا الإيجاز المخل والاضطراب الشديد، لما كان يجري في أوروبا في بداية القرن العشرين من كلام في علم اللغة، وبخاصة في تقسيم المجموعات اللغوية. وما دمنا منذ الجملة الأولى قد لاحظنا عليه هاتين الملاحظتين اللاذعتين، فإنه يجب علينا احتراماً لذكرى الرجل أن نسوق ما يبررهما. وبداية ذلك هو الإشارة إلى أن جميع التقسيمات الخاصة بالأجناس البشرية قد أثير من حولها الشك على ضوء علم السلالات ومقارنة الحضارات.

فالعالم السويسري «يوجين بيتار» يؤلف كتابه «الأجناس البشرية والتاريخ» ليثبت أولاً وقبل كل شيء فساد فكرة وجود الجنس النقي إلاّ في مجتمعات نادرة الوجود منعزلة عن التيارات الحضارية المختلفة. وفي الباب الأول ــ الفصل الثالث، من هذا الكتاب، الذي خصصه لدراسة العلاقة بين «الأجناس البشرية واللغات» يقول: سبق أن بينا أنه وقع خلط بين الأجناس البشرية واللغات. وما يزال بكل أسف الحديث عن «الأجناس اللاتينية»، «الأجناس الجرمانية»، «الأجناس السلافية»، . . . إلخ مستمراً إلى يومنا هذا في الحديث العادي، وبعض الكتب المدرسية، وكتابات الصحفيين. وأكاد أعتقد رغم ذلك أن من يستعملون هذه المصطلحات يعلمون تمام العلم أن تلك الأجناس لا وجود لها، ولكنهم يقولون إن هذا منهج يقصد به تيسير الدراسة على التلاميذ عند توزيع شعوب معينة تتكلم لغات ترجع إلى أصل واحد. وأنا لا أعارض في ذلك، ولكن، ألَا يتضمن هذا المنهج عيباً آخر خطيراً، وهو إدخال فكرة خاطئة في عقول كثير من الناس؟ أليس من الأفضل والحالة هذه

---

(١) نفس الموضع.

تركه والتخلي عنه؟ أما نرى كل يوم كتاباً سياسيين، ومحررين في الصحف، يتحدثون بثقة ساذجة، ولكنها خطيرة، عن تلك الأجناس المزعومة، كما لو كان من المسموح به أن نسم كل المتحدثين بلغة من اللغات بالانتماء إلى سلالة بشرية واحدة محددة القسمات؟ وحتى المؤرخون أنفسهم انزلقوا أحياناً في استعمالات مشابهة دون تمحيص، وهم بذلك أكبر ذنباً(١).

وأكثر أرباب علم اللغة المحدثين يتفقون مع علماء السلالات البشرية في استنكار مثل هذه الغلطات، ولكنها غلطات طويلة الروح، ويلزمها كل القوى المتضافرة حتى تمحوها من الاستعمال.

والدراسة المنهجية للسلالات، وهي دراسة أصبحت الآن متقدمة جداً، تمكننا من أن نكوّن فكرة عامة ــ وفكرة عامة فقط ــ عن الأجناس الرئيسية للبشر على هذه الأرض. فلو أننا أعطينا لأحد علماء الشعوب البشرية خريطة التوزيع اللغوي للعالم، وسألناه إذا كان ممكناً أن تنطبق تمام الانطباق على خريطة توزيع الأجناس، لكانت النتيجة سلبية.

فعلى سطح الكرة الأرضية أجناس مختلفة ــ ومختلفة جداً ــ تتكلم لغة واحدة. وهناك أناس ينتمون إلى نفس الجنس ويتكلمون لغات مختلفةً. ولست أريد أن أُعطي أسهل الأمثلة وأقربها وهو مثل الزنوج الذين عاشوا أو يعيشون تحت الاستعمار الفرنسي أو الإنجليزي، ويتحدثون الفرنسية والإنجليزية. فلو أننا طبقنا عليهم قاعدة ارتباط اللغة بالجنس لكان معنى ذلك أن الزنوج المتكلمين بالفرنسية ينتمون إلى السلالة اللاتينية، وأن المتكلمين منهم بالإنجليزية ينتمون إلى أرومة جرمانية، وهو استنتاج غليظ. لكن لنأخذ كثيراً من الشعوب من بين السكان الأصليين لأميركا الجنوبية: لقد نسوا شيئاً فشيئاً لغتهم الأم، وعبروا بالإسبانية بدلاً منها. وفي الشمال الشرقي لروسيا نجد «الفونياك» و «البرمياك» وهما من سلالة مجريّة قد أصبحوا لغوياً من صميم الروس.

---

(١) Eugène Pittard: les Races et l'histoire, p. 55 ss.

وفي إيران وشمال آسيا الوسطى تعيش مجموعات بشرية من جنس واحد من حيث السلالة والأرومة، وهم مع ذلك يتكلمون لغات مختلفة، ونفس هذه الظاهرة تتكرر في البلقان وفي كثير غيرها من أصقاع الأرض.

ولو أننا توغلنا قليلاً في الماضي لانفتحت عيوننا على كثير من الحقائق، ولو أننا فتحنا الأطلس، وفكّرنا قليلاً في التاريخ للاحظنا مثلاً: أن النورمانديين في فرنسا عندما وطئت أقدامهم لأول مرة هذه البلاد، وكانت تحت حكم الفرنجة، كان النورمانديون يتكلمون بدون شك لغة إقليمهم الأصلي وهو البلاد الشمالية «الإسكندينافية». أما الفرنجة أنفسهم فكانوا يتكلمون بلهجة ألمانية.

وعندنا في التاريخ الحديث مثل صارخ في وضوحه هو الولايات المتحدة، التي يعيش في ربوعها مهاجرون منهم من ينتمي إلى أصول شمالية: إسكندينافية، جرمانية، بريطانية... إلخ. ومنهم اللاتين: فرنسيون، إسبان، إيطاليون،... إلخ ومنهم البلقانيون والصقالبة واليهود والزنوج والعرب والهنود والهنود الحمر والصينيون والماليزيون... إلخ. وكل هؤلاء غلبت عليهم لغة واحدة هي الإنجليزية المتأمركة. إننا نجد أنفسنا أمام خليط لا يكاد يكون له حصر من حيث السلالات البشرية والأجناس، ومع ذلك فاللغة واحدة.

وأفكار مثل الوحدة الجرمانية أو الوحدة السلافية، أو الوحدة الطورانية، إنما هي صيغ ولدت في عقول بعض المثقفين، أو رجال السياسة، ولكنها ليست على الإطلاق حقائق واقعة ولدت تلقائياً في ضمير مجموعة بشرية معينة. وكم من مرة اختلفت خريطة أوروبا بل خريطة العالم لكثرة ما طرأ عليها من توحيد، أو إعادة تجميع، أو تفريق، أو اختلاف عناصر وأجناس حسب هوى الضرورات أو الفرص السياسية.

والتاريخ على الخصوص يتأثر بهذه الاعتبارات. فكم من مرةٍ اختلق عداء عنصري وزرع في النفوس على أنه حقيقة عرقية جنسية، عداء أعدت عدته وأشعل لهيبه على يد مثقفين يعرف كثير منهم أن أساس النظرية كلها

هراء. ومع ذلك فقد اندلعت بسبب هذا الهراء، وعلى مدى قرون من الزمن حروب كثيرة. وكم من مرة ظهرت دراسات تحت هذا العنوان المخيف «صراع الأجناس البشرية».

ويختم العالم السويسري جولته عن عدم ارتباط اللغات بالأجناس، بمقولة ينقلها عن اللغوى الفرنسي فاندريس حيث يقول: «مهما كان الدور الذي لعبه التغيير الطارىء على الأجناس في تغير اللغات فإننا لا نستطيع أن نقول بارتباط ضروري بين الأمرين. بل يجب ألا نخلط بين المميزات السلالية التي لا يمكن توفرها إلا عن طريق الدم، والظواهر الوضعية كاللغة والدين والثقافة التي يمكن نقلها من أناس إلى آخرين وتبادلها بين البشر».

ونعود إلى ما بدأنا به من الإشارة إلى أن التوزيع اللغوي الذي رُبط بالسلالات إنما كان في معظمه خرافة يهودية بنيت على تأويل متعسف للإصحاح العاشر من سفر التكوين الذي سردنا ترجمته آنفاً. والواقع أن التوزيع في هذا الإصحاح إنما كان يخضع لموقف وجداني، تظاهره عقلية بدائية قَسَّمت شعوب العالم إلى ثلاث فئات: إحداها خيرة، والأخرى شريرة، والثالثة بعيدة وغير معروفة، ثم نسب اليهود أنفسهم إلى الفئة الخيرة طبعاً. وأما الفئة الشريرة فجعلوها من أبناء سام بن نوح الذي لعنه أبوه ولعن سلالته من بعده. جاء في الإصحاح التاسع من هذا السفر: وابتدأ نوح يحرث الأرض، وغرس كرماً، وشرب من الخمر، فسكر وتكشف وهو في خبائه. فرأى حام أبو كنعان سوأة أبيه، فأخبر أخويه اللذين كانا في الخارج. فأخذ سام ويافث رداء وجعلاه على منكبيهما، ومشيا مستدبرين، فغطيا سوأة أبيهما وأوجههما إلى الوراء فلم يريا سوأة أبيهما. فلما أفاق نوح من خمره علم ما صنع به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان، عبداً يكون لعبيد أخوته وقال، تبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً له. ليفسح الله ليافث فيسكن في أخبية سام، ويكون كنعان عبداً له.

وظن آباء الدين اليهودي الأولون أن اللعنة تظهر مادياً في سواد البشرة، فجعلوا كل الزنج والعبيد من نسل حام، ولم يتنبأوا لهم بخلاص إلى

الأبد، وقد لعن أبوهم منذ الأيام الأولى بعد الطوفان. وانطلاقاً من هـذه الفكرة العنصرية البدائية ألحق اليهود كل من لا يحبون من الناس بهذه السلالة الملعونة: ألحقوا بها المصريـين، وهم ليسوا بالسلالـة النقية، بـل كانـوا منذ القـدم مزيـج سلالات، وألحقوا بها الكنعانيـين مـع أن لغتهم أقرب اللغـات إلى العبريـة وهم أصحاب فلسطين الأصليون، وأقرب من اليهود إلى السلالة الساميـة الخالصـة، ولكنهم كانوا أعداءهم سياسياً، فوصموهم بالنسب اللعين، كما فعلوا بالمصريين لثأر كان لهم عند فرعون، وكما فعلوا بنمرود الذي جعلوه رأساً لفرع من السلالة الحامية، هو الفرع الأكـادي في بابـل وآشور، وبـالطبـع كـان هذا ايضـاً بسبب العنت والعداء والتخريـب الذي جَرَّه عليهم أباطرة بابل وآشور، مع العلم بـأن الأكاديـين ساميون نازحـون من جزيـرة العرب منـذ الألف الرابـع قبـل الميلاد، ولغتهم لغـة سـاميـة أقـرب إلى الأصـالـة، وأشـد شبهـاً بـاللغـة العـربيـة من لغة التوراة.

وإذن فـالدكتـور علي العنـاني أوجز بـإخلال كـما قلنا، وانسـاق وراء هـذا الفولكلور اليهودي، تبعاً لمستشرقي وقتـه؛ ومع ذلـك فإنـه قد عـاد وبدون بنـاء منهجي واضح فنقل تقسيماً أقرب إلى النزاهة العلمية، أو على الأصـح أقرب إلى الاحتيـاط لمستقبل المعـرفـة في هـذه الـدراسـات، إذ تـرك الـرابط بـين اللغـات والسلالات البشرية، واقتصر على الكلام عن المجاميـع اللغوية نفسها حيث يقول: «ولم يقف علم اللغات عند هذا العدد المتقـدم للمجاميـع اللغـوية، بـل أوصلها إلى عشر مجـاميـع وهي: السـاميـة، الحـاميــة، الآريـة، الهـنـديـة الصينيــة، الملايوبولونيزية، الادرويدية، الأورالطائية، الاستورالية، الأمريكية، البانتووية.

«ويلتحق بهذه المجموعـات العشر قسم من اللغات يعـرف باسم اللغـات المنعزلة»[1]. أما الأستاذة همبورجر فلها تقسيم يختلف في بعض التفاصيـل، فهي تبقي على مجموعة اللغات السـامية، واللغـات الأدرويديـة، واللغات المنعـزلة،

---

(١) الأساس ص ١٦ ــ ١٧.

ولكنها تفصل عن المجموعة الحامية ما تسميه اللغات الزنجية الإفريقية. وتتكلم عن مجموعة تسميها باللغات الآسيانية، وكذلك تبدأ ترتيبها بلغات جنوب شرق آسيا وأستراليا وأمريكا، دون أن يبدو أنها توافق على تقسيمها أو إلحاقها بمجاميع أو عائلات لها حدود واضحة. وعلى كل حال فإنّ تقسيمها. إن لم يكن قاطعاً مثل تقسيم قدامى المستشرقين، المتمثل فيما أخذ به الدكتور علي العناني، فإنه يعبر بصورة واضحة عن النقص الكبير في معلومات الإنسان عن أصول عدد كبير من لغات العالم. وهي تبدأ أولاً بالحديث عن الخلاف حول لغة «الباسك»، هذا الخلاف الذي فرغنا من تلخيصه آنفاً. بعد ذلك يبدأ حديثها عن المجاميع على النحو التالي:

١ ــ **مجموع اللغات الأورالو ــ ألتائية أو الطورانية**، وترجح أن تنتمي إليها اللغات الفنلندية المجرية، وكذلك اللغات التركية والمنغولية التنجوزية.

٢ ــ **مجموعة اللغات اليابانية والكورية والأينو ولغات جزائر شمال شرق آسيا**، وهي ايضاً تثير الشك حول إنتماء هذه المجموعة إلى أصل واحد، ولاسيما لغة الأينو في جزيرة سخالين، التي تصفها بأنها منحدرة من لغة مندثرة لا علاقة بينها وبين اليابانية مثلاً.

٣ ــ **مجموعة اللغات الصينية ولغات ألتاي ولغات التبت ولغات برمانيا**، وتذكر أن الباحث اللغوي برزيلوسكي (J. Przyluski) وصلها بأصل واحد، وسماها مجموعة اللغات الصينية التبتية، وإن كان يحتاط للأمر فيقول: إن اللغات تستهلك من كثرة الاستعمال كلما كان لأهلها دور فعال ومتشعب في الحضارة الإنسانية. ولذا فإن التشابه الحالي غير موجود بين اللغة الصينية الحديثة التي أصابها هذا اللون من الاستهلاك وبعض لغات الهملايا والتبت، التي بقي أهلها بمعزل عن عوامل الاستهلاك المذكورة. أما لغة ألتاي فتذكر المؤلفة أن من أجود أمثلتها اللغة السيامية.

٤ ــ **مجموعة اللغات الأسترالية الأسيوية**، وتقول إن هذه التسمية من اختراع اللغوي شميدت (P. Schmidt)، وهي تضم لغات ولهجات يستعملها

الناس ابتداء من إقليم «أنام» إلى هضبة «شوتا ناجبور» غرباً. وتعتقد هي أن هذه المجموعة فرع من عائلة كبيرة هي العائلة اللغوية الملايوبولينيزية، وإن كانت تنص على أن هذا الانتماء ما تزال تنقصه الدراسة الدقيقة، ولذلك فإن اللغوي برزيلوسكي (J. Przyluski) يفضل أن يسميها فروعاً من عائلة، ويذكر من هذه الفروع لغات «الموندا» أو «الكول» غرباً، و «الأنامية» شرقاً، ولغات «المونخمير» في الوسط.

ولغات الموندا مستعملة بين نحو ثلاثة ملايين من السكان على سفوح الهملايا، ثم عدد أكبر من البشر في هضبة شوتاناجبور جنوبي نهر الكنج؛ ولغات الموندا لا تكاد تكون معروفة الأصل إذ لا توجد منها نقوش قديمة. أما اللغة الأنامية فقد كتبت نصوص منها بكتابة مشتقة من الكتابة الصينية منذ القرن الرابع عشر الميلادي، ولكن شاعت كتابتها بالحروف اللاتينية منذ القرن السابع عشر بفضل المبشرين الأوروبيين. ويقترب من اللغة الأنامية كلام «الموونج» في أقليم تونكين. وقد تردد اللغويون في ربط الأنامية بالصينية من ناحية، وبلغات المونخمير من ناحية أخرى. وهذه الأخيرة تضم ثلاث لغات وحضارات هي: (أ) المون (ب) الخمير (ج) التشام. وأقدم نقوش هذه الطائفة من اللغات يرجع إلى القرن السابع الميلادي وهو بلغة الخمير. ومهد هذه اللغات هو أقليم كمبوديا الحالي ويضم لغة أخرى هي «الموي». وهناك فرع في شبه جزيرة مالكا هو «النيكوباري» ومن لغاته السيمانج والساكاي.

٥ ــ **مجموعة لغات الملايوبولونيزية**: وهذه المجموعة أوْثق ارتباطاً، ولغاتها أوضح قرابة من حيث الأصوات وتصريف الألفاظ والتركيب، وهي تمتد من جزيرة مدغشقر إلى أقصى الملايو وأندونيسيا وماليزيا وبولينيزيا، ويتضمن ذلك جزر الفلبين وسلبيس وبورنيو وجاوه وبالى وسومطره. ومعروف أنَّ لغات مدغشقر ولهجاتها، بالرغم من انتمائها إلى هذه المجموعة، قد تأثرت تأثراً عميقاً باللغة السنسكريتية منذ القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. وتشير الأستاذة همبورجر إلى أنه من العبث محاولة تعداد اللغات واللهجات التي تندرج تحت

هذه المجموعة، إذ إن دراستها وتصنيفها اللغوي وتحديد انتمائها لم تتم بـعد. كما تشير إلى أن اللغات واللهجات المستعملة في كاليدونيا الجديدة والتي تسمى لغـات «البـابو» وفي غينـيـا الجديـدة والجزر المحيـطة بهـا، مـا تزال مجهـولـة التصنيف. وكذلك الحال في:

٦ ـ **مجموعة اللغات الأسترالية الأصلية**: ونرتطم بنفس الصعوبة عنـدما نحاول دراسة مجموعة أخرى مماثلة هي:

٧ ـ **مجمـوعة اللغـات الأمريكـيـة الأصلية**: وأقـدم مـا بـين أيـدينـا من وصف لبعض أفـراد هذه المجمـوعة كتبـه أوروبـيون في القـرن السـادس عشر. وعلى أية حال فمن الملاحظ أن قبائل «الأزتـيك» أو «الناهوا» في أمريكا الوسطى قـد استعملوا كتابـة تصوريـة (هيرو غليفية) وصلنـا منهـا بعض رقـاع من الجلد مكتوبة بهذه الكتابـة، وعليها شـروح أو ترجمـات باللغـة الأسبانيـة. كما وصلتنـا نقوش مكتوبة بحروف لاتينـية ولكنها بلغة الأزتيك وبـدون ترجمـة. وواضح أن هيروغليفية الأزتيك تبدو مختلفة إذا قيست بالكتابة المصرية الفرعونية. وفي نفس المنطقة عـثر على نقـوش من لغة «المـايا» وهي تصويرية ايضـاً، ولكن لم ترد أيـة شروح أو تراجم مع نقوشها المذكـورة. وقد ذكـرت الأستاذة همبـورجر نقـلاً عن الدكتور بول ريفيه الذي حرر الفصـل الخاص بـاللغات الأمـريكية في مـوسوعـة أنـطوان ميـيه «لغـات العالم» أن القـارة الأمريكيـة كانت تحتـوي في القديم عـلى ١٢٣ لغة على الأقـل، لا يبدو بينهـا انتماء عـائلي أو وجـوه شبه يعتدبها، فيماعدا الألفاظ التي تـتبادلها القبائل بعضها مع بعض.

أما الأسكيمو في جرينلاند فربمـا كانت لغتهم تـرتبط بلغة جـزر «اليويت» وكذلك بلغة سكان ألاسكا. وقد ربطها بعضهم بمجموعة لغات الأورال.

وأما اللغات الأمريكية الأصلية فقد ذكر الباحثـون أن كثيراً منهـا قد انـدثر الآن. وفي أمريكا الجنوبـية ذكر الدكتور ريفيه أنه كانت توجد ٧٧ عائلة لغوية من أهمها مجموعة «التوبـيـجواراني» المنتشرة من غيانا شمالاً وسفوح الأنديز غرباً، إلى سهول جران شاكو في بوليفيا. وكذلك في بارجواي جنوباً وعلى ساحـل البرازيـل

جنوب الأمزون وحتى الشرق. كذلك من المجاميع اللغوية الغامضة مجموعة اللغات المستعملة في إقليم القوفاز والتي تسمى:

٨ ــ **مجموعة اللغات القوقازية**، وهي ليست هندية أوروبية ولا سامية ولا أورالية ولا ألطائية ولا تتصل بقرابة ما باللغة التركية. وتمتاز هذه المجموعة بالغنى في الحروف الساكنة. وأكثر المتكلمين بلغات هذه المجموعة ولهجاتها لاسيما في القوفاز الشمالي من المسلمين، وكانوا وما يزال الكثير منهم يكتبون لغاتهم بحروف عربية وإن كان انتماؤهم سياسياً للاتحاد السوفياتي قد أدخل الأبجدية الروسية في بعض الجهات. أما القوفاز الجنوبي فأكثر اللغات القوفازية شيوعاً هي لغة جورجيا. ومن اللهجات الجديرة بالذكر «المينجريلية» و«السفانية» و«اللازية». ولغة جورجيا هي اللغة الوحيدة التي لها كتابة منذ القرن العاشر الميلادي على الأقل، وحروفها متطورة عن اليونانية.

٩ ــ **مجموعة اللغات الآسيانية**، وتندرج في هذه المجموعة لغات ميتة كانوا يعدُّون منها قديماً اللغة الحيثية، ولكن أحدث الدراسات اللغوية المقارنة تجعل الحيثيةــ وهي اللغة القديمة لآسيا الصغرى ــ من صميم المجموعة الهندية الأوروبية.

أما اللغة الميتانية التي كانت مستعملة على الضفة الشرقية لنهر الفرات في أقصى الشمال فإنها ما تزال في حاجة إلى دراسة، وبعض الباحثين يردها إلى المجموعة القوقازية.

ولغة الليديين القدماء (من شعوب بحر إيجه) كانت تكتب بحروف متطورة عن الأبجدية اليونانية ولكنها، فيما عدا بعض الألفاظ المستعارة من الجيران الفريجيين ، لا ترتبط بالمجموعة الهندية الأوروبية.

وفي جنوب الغربي من هضبة آسيا الصغرى كان يسكن قديماً الليقيون، وقد كتبوا باليونانية ولكن لغتهم ليست شبيهة باليونانية أو غيرها من مجموعة اللغات الهندو أوروبية . وقد ذكر القدامى من مؤرخي اليونان أن سكان

«ليقيا» مهاجرون من جزيرة كريت. وهناك مجموعة بشرية قريبة من الليقيين هي التي تسمى الكاريين، وقد وردتنا منهم وثائق مكتوبة حملها جنود المصريين القدماء معهم إلى مصر، أو كتبها مرتزقة من الكاريين عملوا في الجيش المصري، وشاعت كتاباتهم حتى بلاد النوبة.

وحضارة جزيرة كريت القديمة تمثل، أثرياً ولغوياً، شعباً ليس سامياً ولا آرياً اصطلح على تسميته «الإيجي» أو على نسبته على وجه العموم إلى البحر الأبيض المتوسط.

وترجع أقدم الكتابات الكريتية إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ولكنها ما تزال طلاسم لم تحل رموزها بعد.

واللغة الشومیرية في العراق تعتبر بدورها مشكلة من ناحية ارتباطها بمجموعة ما. اعتبرها بعضهم من المجموعة القوقازية، وعَدَّها آخرون من المجموعة الصينية التبتيه، وواضح أن هذا الانتماء غير موثوق به، لأننا على الأقل ذكرنا هاتين المجموعتين بين المجاميع الغامضة الأصل التي لا نعرف عن تطورها معلومات كافية. أما الكتابة الشوميرية فقد تطورت من تصويرية (هيروغليفية) إلى مقطعية (مسمارية). وهذه الكتابة المسمارية نفسها انتشرت من شومر إلى حدود الهند شرقاً وإلى ساحل الشام غرباً، وإلى أفغانستان وإيران وجنوب روسيا وآسيا الصغرى شمالاً، وإلى صعيد مصر جنوباً، وكتبت بها لغات قديمة كثيرة غير الشوميرية. وتعتبر النقوش الشوميرية من أقدم الكتابات في العالم إذ ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل.

وواضح من هذا أن ما يسمى بالمجموعة الآسيانية عند اللغويين المعاصرين ليس إلا وعاء ضخماً توضع فيه كل اللغات القائمة في غرب آسيا حتى الأرخبيل اليوناني قبل ظهور العائلتين اللغويتين الواضحتين: السامية، والهندوأوروبية. لذلك ليس عجيباً إذا وضع في نفس الوعاء اللغة الإترورية أحياناً (ألحقها بها اللغوي الإيطالي ترومبيتي Trombetti).

واللغة الأيبيرية التي وجدت في آسيا قديماً ووصلتنا بعض نقوشها التي يرجع أقدمها إلى القرن الرابع قبل الميلاد بالأبجدية الفينيقية، قد ألحقها بعضهم بهذه المجموعة ايضاً، بينما ذهب آخرون إلى أنها من أصول إفريقية حامية، وربطها غيرهم بلغة الباسك التي قلنا إنها ليست واضحة الأصل.

وفي عداد اللغات المجهولة الأصل لغات أفريقية بين أقزام الغابة الإستوائية،كلغة البوشيمان وأقزام الكونغو، وليست لهم نقوش قديمة مكتوبة ولكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن التصاوير التي عثر عليها في جهات مختلفة من شمال إفريقيا وجنوبها تؤكد شبهاً حضارياً بهؤلاء الأقزام من سكان أفريقيا السوداء.

وهناك لهجات مستعملة إلى الآن تعتبر مشكلة من حيث ارتباطاتها التاريخية بمجاميع لغوية معروفة، وفي مقدمة ذلك النَوَر في بوهيميا، الذين يسمون «التزيجان»، وهم كما يظن بوب سربويانو (Popp Serboianu) ينحدرون من أصول هندية قديمة، وإن كان ذلك لم يتأكد علمياً. وشبيه بهؤلاء بعض طوائف النوَر في شمال أفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط.

وفي الصومال توجد عشائر من الرعاة تسمى الميدجان، وجماعات تحترف التسول تسمى اليبير وكلامهما مجهول الأصل كذلك.

وفي جنوب غرب أفريقيا سجلت لهجات الهوتنتوت وقد ألحقها العلماء الألمان باللغات الحامية. والظاهر أن الهوتنتوت كانوا يسكنون في الأصل عند منابع النيل، ولكن المد الزنجي دفع بهم ابتداء القرن الثاني عشر نحو الجنوب الغربي حتى وصلوا إلى جنوبي موزمبيق. ولغتهم ما تزال إلى الآن مجهولة الأصل أيضاً.

* * *

عائلة اللغات الحامية

وأصل هذه العائلة لغات قديمة ازدهرت في أواسط القارة الإفريقية، اندثر بعضهـا وظل البعض الآخـر ينتقل من مكـانٍ إلى مكان ويتفـاعل مـع غيـره من اللغات، لا سيما تلك التي تنتمي إلى العـائلة الساميـة والتي تعتبر اللغـة العربيـة أهم أمثلتها. ويرجع تفاعل اللغات السامية والحامية إلى اتصال آسيا بإفريقيا عن طـريق سيناء شمـالاً، ومضيق بـاب المنـدب الـذي يتصـل عنـد البحـر الأحمـر الجنـوبـي بالمحيط الهنـدي. أمـا تـاريـخ هذا التفـاعل فقـديم جداً لا يستـطيـع اللغويون تحديده. والراجح أن بداياته موغلة في مجاهل ما قبل التاريـخ، بل لقد ظن كثير من الباحثين أن اللغات السامية والحـامية كـانت في البدايـة ترجـح إلى أصل واحد، كما أن هناك نقـاشاً حـول اللغة المصـرية الفـرعونيـة، أهي ساميـة أم حامية؟ وقد خرج أشد الباحثين حذراً وحيطة من هذا المـأزق بافتـراض وجود مـا يسمونـه «اللغات السـامية ــ الحـامية»، دون أن يحـددوا أهي عـائلة واحـدة انشطرت شطرين أم عائلتان اختلطتا في مزيـج واحد.

وهذه العائلة الحـامية عليهـا خلافـات كثيرة تـرجع في معـظمها إلى نـدرة العلماء بلغـاتها ولهجـاتها لا سيـما الحية المستعملة الآن، نـظراً لأن هذه الشعـوب الإفريقية كـانت قد تخلفت عن ركب الحضـارة فلم يقم فيها تعليم، ولا سجلت لغاتها بالكتابة، فيما عدا القليل، ولا وصلتنا عن تاريخها وثائق متصلة دقيقة، فيما عدا مصر وحدها تقريباً.

وقد بلغ من صعوبة التصنيف في داخل تلك المجموعة أن العلماء يحـارون

كثيراً في تسمية بعض فروعها لغات أو لهجات، ويكثر فيهم من يتهرب من ذلك باستعمال ألفاظ أعم في دلالتها، مثل «الكلام» أو «التفاهم» أو «التعبير» . . . إلخ .

فمن ذلك اللهجات البربرية والقبائلية والطَوَارِقيَّة المستعملة في شمال إفريقيا. ونظراً لانتشار الإسلام في هذه الأصقاع، ولوجود مستعمرات فينيقية للتجارة والنقل البحري على هذه السواحل، تستعمل هي أيضاً لغة سامية قبل مجيء العرب بألفي سنة، فإن الامتزاج السامي الحامي من الناحية اللغوية يبدو واضحاً جداً، وهذا هو ما حدا باللغوي (ليو راينيش LéoReinisch)، إلى أن يقول في سنة ١٩٠٨م بعائلة واحدة سامية حامية، بل إلى أن يلحق بها مجموعة لغات إفريقية السوداء. وهذه اللهجات البربرية تبدأ من الصحراء الغربية المصرية، من واحة سيوة على وجه التحديد، حتى المحيط الأطلسي في أقصى الساحل المغربي، وتستمر جنوباً حتى الضفة الغربية من السنغال، والضفة الغربية للنيجر، وحوض بحيرة تشاد في جمهورية مالي. ويظن الباحثون أن (الجوانش Guanches)،وهم السكان القدماء لجزر كناري، كانوا يتكلمون أيضاً لهجةحامية شبيهة بلهجة البربر في الشمال الإفريقي. ولعل اتساع رقعة الأرض التي انتشرت فيها لهجات البربر، وكثرة الجبال والقفار التي تقطعها، قد انتهت بتفتت البربرية إلى لهجاتٍ واضح أنها ترجع لغوياً إلى أصل واحدٍ، ولكن أبناءها من مختلف الشُعَب والعشائر لا يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم لشدة ما حدث من تطورات صوتية وصرفية في طرائقهم في الكلام .

وأهم لهجات هذه المجموعة هي الزواوة في الجزائر، والشاويَة والشِلْحة في المغرب الأقصى، والزناقة في موريتانيا، والتاماشِك في قلب الصحراء الكبرى، هذا إلى جانب لهجة الأوْجِيلة،التي كانت أولى اللهجات البربرية دخولاً إلى ميدان البحث العلمي الأوروبي عندما نشر اللغوي (ميلر Miller) وصفاً شاملاً لها نشره في باريس بين عامي ١٨٢٧م و ١٨٢٩م . وهو بعمله هذا قد افتتح الدراسات الحامية الحديثة إذ جاء بعده (رينيه باسيه René Basset)، فاشتغل

بهذه الأبحاث منذ عام ١٩٢٤م. وقد اهتم الباحثون المعاصرون له بلغات إفريقية جميعاً، خصوصاً بتشجيع السياسة الاستعمارية الأوروبية في القارة المظلمة، فظهر البحث المقارن والاهتمام باللغة الحبشية ولهجات بلاد النوبة ومقارنة ذلك كله بعضه ببعض. وممن يجدر ذكره من هؤلاء الباحثين (ماينهوفC.Meinhof) الذي نشر عام ١٩١١م دراسة مقارنة للمجموعة الحامية، ولكنه أدرج فيها لغات إفريقية ما يزال الشك يحوم حول أصلها مثل الهاوسا والهوتنتوت التي سبقت الإشارة إليهما.

هناك أيضاً مجموعة من النقوش الليبية القديمة التي ما يزال حل طلاسمها يعتمد على الافتراض وتعوزه القواعد اليقينية، ومع ذلك فإن العلماء يذهبون مبدئياً إلى أن أصل الكتلة البربرية في شمال إفريقيا ربما يكون كامناً في تلك النقوش الليبية.

أمّا لغة المصريين القدماء فإنها معروفة لنا الآن، والأثر السامي القوي فيها لا يسمح بتصنيفها حامية بحتةً ويرجع أقدم ما عندنا من نقوشها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ومنذ ذلك الحين والتطور يطرأ عليها بحيث أصبحت تنقسم إلى:

(أ) لغة الدولة القديمة من الألف الرابع إلى حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد.

(ب) لغة الدولة الوسطى من ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلى ١٣٧٠ قبل الميلاد تقريباً، وهذه الفترة تعتبر العصر الذهبي للغة الفراعنة، والمقياس الكلاسيكي في الفصاحة.

(ج) لغة الدولة الحديثة التي تزدهر ابتداءً من سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد تقريباً.

أما من حيث الكتابة فإنها بدأت تصويرية هيروغليفية، ثم نشأت بجانبها الكتابة الهيراطيقية، وهي صورة مبسطة من الهيروغليفية، كان يستعملها الكهنة. وأما الكتابة الشعبية، الديموطيقية، فقد ظهرت في خلال الألف الأول

قبل الميلاد، منذ حوالي سنة ٦٦٠ قبل الميلاد. وقد قاومت الكتابة المصرية القديمة الغزو الفارسي ثم اليوناني والروماني، إلى أن دخلت مصر في العصر المسيحي، حيث غَيَّر المصريون كتابتهم القديمة واصطنعوا لهم أبجدية متطورة عن اليونانية كتبوا بها لغتهم. وهكذا يتميز العصر القبطي في مصر، وإن كانت الكتابة الديموطيقية القديمة قد ظلت تصارع الزمن إلى حوالي سنة ٤٧٠ بعد الميلاد. وظهرت في اللغة القبطية لهجاتٍ كرَّستها طقوس الكنيسة أهمها القبطي البحيري ثم القبطي الصعيدي ويسمى أيضاً الإخميمي، ثم القبطي الفيومي ويسمى أيضاً البشموري .وقد استمرت القبطية لغة المصريين إلى أن حَلَّتْ العربية محلها مع دخول الإسلام وانتشاره. ويذكر بعض الباحثين الأوروبيين أن القبطية ظلت مستعملة بين أقباط الصعيد حتى القرن السابع عشر، بل تقول الأستاذة همبورجر[1]: إن اللغة القبطية ربما ظلت منتشرة حتى القرن التاسع عشر في قوص ونقادة بالصعيد.

ويعتبر اللغويون الأوروبيون أن أهم كتلة لغوية حامية تأتي بعد الكتلة الإفريقية الشمالية هي اللغات الكوشية، نسبة إلى كوش بن حام بن نوح، المذكور في سفر التكوين من التوراة، والذي ورد ذكره أيضاً في النصوص المصرية القديمة أحياناً باسم كاش، ويعتقد أن موطن الكوشيين الأصلي هو الضفة الشرقية للنيل الجنوبي، ومن أهم اللهجات الكوشية:

١ ــ البِجَة التي تمتد من بلاد بني عامر في النوبة إلى الهَادَنْـدَوَة والبجاوية في إقليم إرتريا الشمالي. ويظن بعض الباحثين أن هؤلاء البجة هم أول من استوطن الدلتا المصرية في التاريخ.

٢ ــ البشارية وهي قريبة من البجة.

٣ ــ الأجاو في الحبشة.

٤ ــ الساهو ويلحق به الدنكلي أو الأفار في منطقة جيبوتي.

---

(١) Homburger: le langage et les lougues, p. 39.

٥ ــ الصومالي وهـو لهجة منتشـرة من خليـج عدن حتى جـوبة في أعـالي النيل.

٦ ــ الجَلا في جنوب غرب الصومال.

٧ ــ السيدامو والكفًا والـداورو والولامو في إفريقيا الاستوائية.

تلي هذه الكتلة فصيلة أخرى تسمى اللغات الزنجية ــ الإفريقية، أو لغات إفـريقيا السـوداء. وكانت الأستـاذة همبـورجـر[1] أول من صنف هـذه الفصيلة وكتب عنها، إذ ترجع أبحاثها فيها إلى سنة ١٩١٢م وأطلقت عليها اسم اللغات النجرو ــ أفريقية وفي ذاك الوقت أدخلت في هذه الفصيلة لغات السنغال والبانتو ولهجات السودان. وأقرها على هذا التصنيف اللغوي الفرنسي موريس ديلافوس (Maurice Delafosse) منـذ سنة ١٩١٦م، ثم أكـد تأييـده لتصنيفهـا في الفصـل الذي كتبه في موسوعة «لغات العالم» سنة ١٩٢٥م وتذكر هذه الباحثة أن الأستـاذ وسترمان (Westermann) قد اعترف في عام ١٩٢٧م بالقرابة اللغوية بـين البانتـو وما سماه باللغات السودانية في إفريقيا الغربية. ذلك أنه كان يفرق بين لغات في شـرق النيـل يسمِّيهـا اللغـات النيلية الحـامية، ولغـات أخرى يسميهـا اللغات النيلية السودانية في غرب النيل، ويكمن الفرق عنده في أن المجموعة الأولى تفرق بين المذكر والمؤنث والثانية لا تفرق بينهما في الكلام ولكنه عدل عن هـذا التقسيم فيما بعد، وعاد إلى تفريعاتٍ أخرى هي النيلية، والبانتو، والسودانية.

والمشكلة التي تعترض الباحث تـرجع إلى الـظروف المناخيـة والاجتماعيـة التي تجعل تسجيل معظم هذه اللغات واللهجات محفـوفاً بـالصعوبـات، كذلـك كثيراً ما تتعدد أسماء مختلفـة تدل عـلى لغة أو لهجـة واحدة، وقـد ذكرت الأستـاذة همبـورجـر أن مجمـوعـة اللغـات واللهجـات النجـرو ــ إفـريقيـة ذُكـرت تحت ١٧٠٠ اسم. ومهـما يكن من تعدد الأسمـاء للهجةٍ أو لغـةٍ واحدةٍ فـإنه يبقى بعـد

(١) المرجع السابق، ص ٦٧ ــ ٦٨.

وبدون أدنى شك أن عدد اللغات واللهجات نفسه كبيرٌ جداً، وذلك مما يزيد مهمة الباحث تعقيداً.

ولغة البانتو تشمل لهجاتٍ مستعملةٍ في الشواطىء الشرقية لإفريقيا الوسطى حتى رأس الرجاء الصالح جنوباً وجبل الكاميرون غرباً. أما من الشمال فحدود البانتو مائعة لا يمكن وضع خط نهائي لها، نظراً لتحركاتٍ سكانيةٍ مختلفةٍ وفي اتجاهات عدة في هذا الجزء من إفريقية الوسطى. وأشهر لهجات البانتو هي لهجة الزولو والتشوانا والتنجا، المنتشرة من الكونغو وجابون إلى جنوب إفريقية. وفي أوغندا نجد من لهجات البانتو: الجاندا، والنيورو، والزيبا. وفي حوض الزمبيزي الأعلى تنتشر لهجة اللوزي، وهي عامية من لغة اللوئي القديمة التي كانت مستعملة بين حكام هذا الإقليم حتى القرن التاسع عشر، حيث اكتسحه غزو من التشوانا الذين كانوا يتكلمون لهجةً أخرى هي الكولولو.

ومن اللهجات المعروفة اللهجة النوبية بفروعها التي أشهرها: لهجة دنقلة، لهجة الكنوز، لهجة الماهاس، لهجة الفديجة، لهجة الدلنج، لهجة كردفان ويلحق بها الكانوري والكايدي كانمبو وهما تمتدان حتى بحيرة تشاد.

ومن اللهجات الإفريقية التي انتشرت على ضفاف النيل الجنوبي الشلوك والنوير والانيواك والدينكا واللوو والماساي.

ومن اللهجات التي درست دراسة كافية في هذه الكتلة الدوالا، والموزوك، والنجومبا، والداهومي، والسنغاي، والداجومبا، هذا إلى ما ذكرناه سابقاً من لغة البوشيمان والماو ماو التي تقترب لغوياً من البوشيمان.

مما سبق يتبين لنا أن هذه المجموعات الإفريقية ما تزال أرضاً بكراً للباحثين، وليس من شك في أن جزءاً كبيراً من مسؤولية إحصاء هذه اللغات واللهجات، والتعرف على آدابها وتاريخها، يقع في مسؤولية البحث اللغوي في مصر، البلد الأعرق في الدراسات اللغوية، والأكثر تطلعاً إلى توثيق أواصر المعرفة الإنسانية والثقافية، والأحوج إلى ذلك كله، في كل القارة الإفريقية.

* * *

مجموعة اللغات الهندية الأوروبية

اللغة الهندية الأوروبية الأم: لغة مفقودة مندثرة حسب أحدث آراء اللغويين. ذلك أن الأرومة الأصلية لهذه الكتلة الكبيرة من الشعوب عاشت وماتت وتفرقت ذريتها في الأرض من قبل أن تعرف الكتابة، مثلها في ذلك مثل اللغة السامية الأم التي سيرد ذكرها فيما بعد. والموطن الأصلي لهذه الأرومة مجهول كذلك، وكل ما نعرفه هو فروع من هذه الأم كالحيثية أو الطخارية، والمجموعة الهندية الإيرانية، واللغات الأرمنية، البلطية، والصقلبية أو السلافية، والألبانية، والإغريقية أو اليونانية، والجرمانية، والإيطالية بفرعيها اللاتينية والإسكومبيرية، والكلتية.

أما **الحيثية**، فهي لغة إمبراطورية قامت في آسيا الصغرى بين سنة ١٩٠٠ و سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، وكانت عاصمتها في الموضع الذي يعرف الآن «ببوغاز كوي» في إقليم «كابادوسيا» في شرق الأناضول. والنصوص التي عثر عليها من هذه اللغة تثبت بوضوح أنها هندية أوروبية في كل بنائها النحوي، إلا أن فيها كلمات دخيلة من لغة أولغات لم تعرف بعد. وهذه النصوص مكتوبة بالخط التصويري (الهيروغليفي) ثم بالخط المسماري بعد ذلك.

أما**الطخارية**، فهي اللغة القديمة للتركستان الصيني في وسط آسيا، وأقدم ما وصلنا من نصوصها يرجع تاريخه إلى ما بعد ميلاد المسيح، وهي مكتوبة بأبجدية مقتبسة من الخط الهندي، وقد ميز العلماء لهجتين (أو لغتين) مختلفتين ومستعملتين كل منهما في أماكن نائية عن الأخرى.

وتعتبر كتلة اللغات الهندية الإيرانية من أهم فروع هذه العائلة، حتى إن كثيراً من الباحثين يظنون أنها العائلة كلها، والذي لا شك فيه هو أن مجموعة القبائل التي تستعمل الهندية الإيرانية الأم تشعبت فيما بين القرن الثامن عشر والقرن العاشر قبل الميلاد إلى شعبتين:

* الشعبة الغربية، وهي التي تفرعت منها اللغات الإيرانية ، وفي مقدمتها من حيث الأهمية والقدم لغة الأفستا أو الزند، ثم الفارسية القديمة التي ترجع نقوشها إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، ومنها ولد اللسان البهلوي ثم الفارسية الحديثة.

* الشعبة الشرقية، وقد عاش أهلها زمناً طويلاً في بلاد السند التي تسمى حالياً البنجاب، وفيها تطورت هذه اللغة التي كانت تسمى السنسكريتية والتي تربطها وشائج أخوة لغوية باليونانية واللاتينية والحيثية. وترجع أقدم نصوصها التي عندنا إلى فترة سابقة على الإغريق والرومان ولكنها متأخرة عن الحيثيين. ومن السنسكريتية ولدت الهندية القديمة ثم لغات الهند الحديثة ولهجاتها، وهي حوالى ٢٧ لغة ولهجة يستعملها أكثر من ٢٦٠ مليوناً من السكان، وترجع جميعها إلى أصول هندية أوروبية أو آريّة كما يسمونها. ومن أهم لغات هذه الشعبة «الهندي» وهو اللغة السائدة بين سكان حوض نهر الكنج، وتعتبر من أوسع اللغات انتشاراً من حيث عند المتكلمين بها في العالم كله، وهي تطمح الآن في أن تصير لغة الحضارة ولغة الوحدة الوطنية للهند، ولها لهجات متعددة وشديدة الشبه بعضها ببعض.

هناك لغات ولهجات أخرى جديرة بالذكر في هذا الفرع من اللغات الآرية في الهند، أهمها الأردو وهي لغة باكستان الرسمية، والجوجراتي، والبنجابي، والبهاري (وهي لهجات مستعملة في إقليم الهملايا من كشمير إلى نيبال)، والسندي في إقليم الهندوس الجنوبي، والمراتهي، والأوريا، والبنغالي وغيرها.

ومن لغات هذه المجموعة ايضاً **الباشتو** وهي لهجة إيرانية انتشرت في أفغانسان وأصبحت لغةً رسمية لهذه المملكة.

وإذا كانت **الإيرانية القديمة**، الزندية أو الآفستية، هي اللغة الدينية المقدسة في إيران القديمة، لغة العبادات على دين زرادشت (المجوسية)، فإن السنسكريتية هي اللغة المقدسة للهند القديمة. وأقدم صورها لغة كتاب الهند المقدس «الفيدا» وقد تطورت مع الزمن وتقلصت عنه ألسنة المتكلمين حتى أصبحت لغة تستعمل في الطقوس الكهنوتية وفي بعض فنون السحر، إذ ورد فيها كثير من الرقي والعزائم. وحلت محلها في حلقات العلم بمدارس البراهمة والسوترا لغة يسمونها السنسكريتية الكلاسيكية أو «البهاسا» وهي لغة الأئمة والعلماء والصفوة من مفكري الهند.

أما **الهندية المتوسطة**، فهي ايضاً من لغات الهند القديمة ومن أهم صورها: (البراكريت Prakrit)، الذي عثر على نصوص منه ترجع إلى القرن الثالث الميلادي، واللغة المسماة (البالي Pali)، وهي قريبة من البراكريت، وتمتاز بأنها كانت اللغة الفصحى لائمة الدعوة البوذية، وللقدامى من أدباء الهند وفلاسفتها.

اللغة الأرمنية: من فروع الهندية الأوروبية وكانت مستعملة منذ القرن السادس قبل الميلاد في إقليم الجبال الواقعة بين البحر الأسود والسهول الجنوبية للقوفاز وشمال العراق. وكان المتكلمون بها يسمون أنفسهم «هاي» وجمعه في لغتهم «هايج»، أما جيرانهم فكانوا يسمونهم«أرمينيا»، وقد عرفوا عالمياً بهذا الاسم الأخير. ويقولون إن أبجديتهم—وهي أبجدية عجيبة لا تشبه الأبجديات المجاورة — قد اخترعها في القرن الرابع الميلادي حكيم من أسلافهم اسمه (مسروب Mesrope)، ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي بدأت الأرمنية تتطور حتى انقسمت إلى أرمنية فصحى وأرمنية عامية. أما الأرمنية الحديثة ففيها لهجات غربية وشرقية. والأرمن يدينون بالمسيحية، وقد ترجم الكتاب المقدس

إلى لغتهم منذ القرن الخامس بعد الميلاد، كما ترجموا كتباً دينية أخرى عن السريانية واليونانية، بالإضافة إلى ما كتبه بالأرمنية آباء هذه الكنيسة وما خلفه أسلاف الأرمن من تراث في الأدب والفنون والصناعات والعلوم. وقد حاول بعض المؤلفين في علم اللغة الحديثة أن يلحقوا لغات قديمة ميتة في المنطقة ومجهولة الأصل بالأرمنية، ولكن الدليل على دعواهم ما يزال ضعيفاً، من ذلك الشومرية والتراقية والمقدونية والفريجية.

الكتلة اللغوية البلطية: وهي طائفة من اللغات نشأت حول بحر البلطيق، مات بعضها مثل (الكور Kour) و (البروسي القديم). وهذه اللغة الأخيرة انقرضت من الألسنة منذ القرن السابع عشر، ولدينا منها كتابات دينية مترجمة من عصر الزعيم البروتستانتي «مارتن لوثر»، نستطيع من خلالها معرفة هذه اللغة معرفة كافية في الحالة التي كانت عليها في القرن السادس عشر. أما لغة «الكور» فالمرجح أنها تقترب من لغة شبيهة باللتوانية هي لغة «اللت» وقد حلت محلها هذه الأخيرة منذ القرن الثامن عشر الميلادي.

الكتلة اللغوية السلافية أو الصقلبية: وأشهر لغاتها ولهجاتها في الوقت الحاضر هي اللغة البلغارية، واللهجات الصربية، والكرواتية، والبوسنية، ولهجة الجبل الأسود، واللهجة الدلماسية، وكل هذا مستعمل في يوغوسلافيا وبعض الأقاليم الملاصقة لها. وتستمر هذه الكتلة في لغات السلوفين والروسية والتشيكية والسلوفاكية ولغة السوراب (Sorabe) أو الوندية (Wende) واللغة البولندية ولغة الكاشوب (Kachoube) وكانت هناك حتى القرن الثامن عشر لغة سلافية يتكلم بها سكان الأقاليم المتاخمة لمصب نهر الألب وكانت تسمى لغة (البولاب Polabe). وقد حاول بعض الباحثين أن يجمعوا اللغات البلطية والسلافية في وحدة واحدة، ولكن ما يزال هذا الاعتقاد محتاجاً إلى براهين أوضح. والذي لا شك فيه هو أنه كانت هناك لغة سلافية قديمة تفرعت عنها الكتلة السلافية بعد ذلك في حوالى القرن السابع أو الثامن بعد الميلاد وهو العصر التاريخي للشعوب السلافية. وليس عندنا مثال واحد من هذه اللغة

السلافية القديمة، ولكن عندنا نصوص ترجع إلى العصور الوسطى مكتوبة بلغة يسمونها السلافية القديمة وهي نصوص دينية تنتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية، يصفها اللغوي الفرنسي أنطوان ميـيه بأنها متطورة، وليست هي السلافيةَ الأم. أما من حيث الكتابة فإن الصقالبة الذين اعتنقوا مذهب الكنيسة الشرقية، الأرثوذكسية، قد استعملوا أبجدية مشتقة من اليونانية هي التي يسمونها الأبجدية الجلاجوليتية (Glagolitique) أو الأبجدية السيريلية التي ينسب استخدامها إلى القديس سيريل (٨٢٧ ــ ٨٦٩) الذي أدخل المسيحية في روسيا. أما حيث اعتنق السلاف مذهب الكنيسة الغربية (الكاثوليكية) فإنهم كتبوا لغاتهم بالأبجدية اللاتينية.

اللغة البولونية: من أهم لغات الشعبة الغربية للكتلة السلافية. ومن أقدم صورها لهجة الكاشوب، التي ترجع إلى ما قبل العصور الوسطى. وكانت اللغة البولونية تتضمن لهجات كثيرة تختلف في النطق وفي الإملاء، ولكنها مالت إلى لغة عامة مع الوعي القومي والوحدة الوطنية.

اللغة التشيكية: كانت هذه اللغة كما سبق أن أشرنا لهجة عامية غير معترف بها في عهد إمبراطورية النمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا، ولكنها ازدهرت مع الاستقلال فأصبحت لغةَ علم وأدب منذ القرن التاسع عشر، وقام العلماء فيها بعملية تطهير، فأبعدوا الدخيل الألماني وأحلوا محله ألفاظاً سلافية، مع ذلك فما تزال لهجات عامية تحيا إلى جانب التشيكية الفصحى، أهمها لهجات بوهيميا ومورافيا وسيليزيا.

لغة السوراب: وهي لغة سكان أقليم (لوزاس Lusace) المتاخم للسوديت في النمسا، ويسمون أحياناً الوند (Wende)، وهي لغة سلافية أشبه بالبولونية منها بالتشيكية. وقد ظهرت فيهم نهضة أدبية خلال القرن التاسع عشر والعشرين بلغتهم الوطنية.

اللغة الروسية: وهي أهم لغات تلك المجموعة من حيث الثروة الثقافية،

واتساع الرقعة الجغرافية المستعملة لها، وعدد الناطقين بها. فهي منتشرة في كل روسيا الأوروبية تقريباً وفي معظم مدن روسيا الآسيوية مع اختلافات خفيفة في النطق بين الشمال والجنوب، فمثلاً، الفتحة الممدودة على لسان ساكن أركانجل في أقصى الشمال من سيبيريا تصبح ضمة ممالة عند ساكن أستراخان جنوباً. وقد كان لإصرار الكنيسة على استعمال السلافية القديمة أثره في الحيلولة دون ظهور الروسية كلغة أدبية للشعب حتى القرن الثامن عشر. ومعروف أن القيصر بطرس الأكبر قد بذل جهوداً كبيرة في تشجيع روسية حديثة أدبية متطورة.

اللغة الأوكرانية: وهي اللغة المنتشرة في أقليم أوكرانيا في أقصى الغرب من روسيا الأوروبية. وقد دخلتها المسيحية على يد أحد الآباء الكاثوليك في العصور الوسطى. ولهذا الاعتبار، ثم لمجاورتها لبولونيا ولتوانيا كان تطور اللغة الأوكرانية مختلفاً ومستقلاً عن تطور الروسية، إذ يبدو فيها أثر الغرب أشد وضوحاً، وفي المقاطعة المسماة روثين من أوكرانيا يظهر الأثر البولوني بقوة بالرغم من أن بولونيا كاثوليكية وهذه المقاطعة أرثوذكسية. وفي القرن السادس عشر قامت بين المثقفين الأوكرانيين حركة أدبية تهدف إلى الارتفاع بمستوى اللهجة الأوكرانية إلى اللغة الفصحى، ونجحت الحركة إلى حد كبير، حتى إن القيصر بطرس الأكبر توجس خيفة من تحول الحركة الأدبية في أوكرانيا، وتطور لغتها على نحو يزيد من بُعدها عن الروسية إلى أن تصبح حركة انفصالية سياسياً، فأمر سنة ١٧٢٠ بمحاربة الأوكرانية وبحظر طبع الكتب بهذه اللغة على الإطلاق، ولكن في نهاية هذا القرن الثامن عشر عادت المطابع في سان بطرسبرج إلى طباعة الكتب الأوكرانية وإن كان معظم ذلك باللغة العامية الدارجة.

اللغة الصربية الكرواتية: وهي منتشرة في يوغسلافيا والأقاليم المتاخمة لها، وهي مقاطعات الصرب والكروات ودالماسيا والبوسنه والهرسك والجبل الأسود وجزء من أستريا وهي شبه جزيرة في بحر الأرادياتيك متاخمة لإيطاليا وجزء من مقاطعة بانات الواقع بين رومانيا والمجر، كان يسمى قديماً تيميشوارا.

وعندما اعتنق أهل هذه البلاد الديانة المسيحية قامت بينهم ازدواجية لغوية فكانوا يتعبدون باللاتينية، ويكتبون في غير أمور الدين بلغتهم الوطنية وبحروف جلاجوليتية حتى سنة ١٠٥٩ ميلادية، ففي هذه السنة أصدر المجلس الملي الإقليمي أمراً بتحريم استعمال السلافية . ولكن ذلك قد عفا عليه الزمن مع ظهور البروتستنتية وإنتشار الكتاب المقدس مترجماً إلى اللهجة السلافية المستعملة ومطبوعاً بالحروف اللاتينية. ولعوامل سياسية أهمها انتصارات الروس على الدولة العثمانية الحاكمة إذ ذاك في تلك المناطق تحمَّس المثقفون الصرب للتأليف بالروسية ونشرها في بلادهم، ولكن عادت اللهجة الصربية فاعتمدت كلغة رسمية لهذه الأقاليم منذ عام ١٨١٤م .

اللغة السلوفينية: وهي منتشرة في أقليم الكارنيول في جنوب النمسا وفي أجزاء من مقاطعة أستريا وماجاورها. وأهمية هذه اللغة تكمن في احتفاظها دون سائر اللغات السلافية بخصائص كثيرة من السلافية القديمة. وقد وصلتنا منها نصوص دينية ترجع إلى القرن العاشر الميلادي. وما جاء القرن السادس الميلادي حتى استفادت هذه اللهجة من تسرب المبشرين بالبروتستنتية الذين كانوا يستعملونها طمعاً في كسب عطف هذا الشعب الصغير، حتى اضطر الإيطاليون الذين أرسلهم الفاتيكان من روما لمكافحة البرتستنتية إلى استعمال هذه اللغة ايضاً، فظهر فيها من بعد مؤلفون يتابعون الحركات الأدبية في أوروبا ويلاحقون ركب الفكر فيها.

اللغة البلغارية: كان البلغار قبائل متبربرة أخضعت السلافيين في شرق مقدونيا وتساليا وغيرهما في القرن التاسع الميلادي. ومع ذلك فإنهم لضعفهم حضارياً قد أخذوا لغة المغلوبين وديانتهم المسيحية، ولكن لأنهم انتصروا عسكرياً فقد أرادوا أن تكون لهم كنيسة وطنية خاصة بهم هي الكنيسة السلافية البلغارية. واليوم أصبحت اللغة البلغارية لغة رسمية لهذه الدولة الشيوعية كما كانت على أيام الملكية. ومن الناحية اللغوية لا تقف اللغة البلغارية عند حدود الجمهورية الحالية بل تتعداها شمالي الدانوب وكذلك تستعمل في بسارابيا وبانات وغيرهما.

ومن الجدير بالذكر أن التبعية السياسية الطويلة الأمد، الثقافية من جانب البلغار للفكر السلافي، والتبعية الدينية للكنيسة البيزنطية، والتبعية السياسية الطويلة الأمد للخلافة التركية العثمانية، قد ملأت اللغة البلغارية بكثير من الدخيل من هذه الجهات جميعاً. ويرجع اهتمام اللغويين المحدثين بالبلغارية الحديثة إلى عهد قريب هو عام ١٨٢٢م حيث قام اللغوي الصربي فوك بدراستها ودعا إلى الاهتمام بهذه الدراسة.

* **الكتلة الجرمانية**: وهذه الكتلة من اللغات الهندو أوروبية تقترب من السلافية والبلطية من وجهة نظر فقه اللغة أكثر من اقترابها من الفروع الجنوبية من إيطاليّة وكلتية. وتتفرع هذه الكتلة الجرمانية إلى:

(أ) الفرع القوطي.

(ب) الفرع الإسكندينافي.

(ج) الفرع الجرماني الغربي.

(أ) **الفرع القوطي**: وينسب إلى القوط، أو بمعنى أدق القوط الشرقيين «الفيزيجوت»، تمييزاً لهم عن شعبة من القوط غزت غرب أوروبا واستقر جزء كبير منها في أسبانيا وهم القوط الغربيون «الأوستروجوت». ونجد هؤلاء القوط الشرقيين منذ القرون الأولى للمسيحية وما وراءها، كما نجد القوط الغربيين في أسبانيا وشمال أفريقية، ومع ذلك فقد ضاعت لغتهم جميعاً، فيما عدا مجموعة صغيرة من البشر كانت في القرن السادس عشر الميلادي تسكن شبه جزيرة القرم في روسيا على البحر الأسود، وقال الرحالة والمؤرخون إن لغتهم كانت قوطية. وقد وصلتنا بعض كتابات من اللغة القوطية القديمة هي قطع من ترجمة الأسقف فولفيلاس للأناجيل الأربعة، واجزاء أخرى من الكتاب المقدس، العهد الجديد والعهد القديم، وكلها ترجع إلى القرن الرابع الميلادي.

(ب) **الفرع الإسكندينافي**: وهو الفرع الشمالي من هذه الكتلة ويشمل لغات الدانمارك والسويد والنرويج وأيسلاندوجزر الأرخبيل الفروي الواقعة في المحيط الأطلسي بين جزيرتي أيسلاند وشتلاند. وقد انتقلت لهجات من هذا الفرع في

غضون الألف الأول بعد الميلاد إلى جرينلاد والجزر البريطانية وإقليم النورماندي في شمال غرب فرنسا بل وصلت إلى جزيرة صقلية. ومن اللغات الجديرة بالذكر في هذا الفرع:

١ ــ النورماندية القديمة، ولا نعرفها إلا من بعض نقوش رونية (أي شمالية قديمة) يرجع أقدمها إلى القرن الثالث بعد الميلاد، كما وردت بعض مأثورات من هذه اللغة متفرقة في كتابات المؤرخ اليوناني «بوليب» ــ المولود حوالي سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ــ وكذلك في بعض كتابات الأمبراطور الروماني يوليوس قيصر ــ المولود سنة ١٠١ قبل الميلاد.

وهذه النورماندية القديمة تتشعب بدورها إلى ثلاث لهجات نعرفها معرفة جيدة منذ غزوات النورمانديين أو الفيكيج كما يسمونهم أحياناً ابتداء من القرن التاسع الميلادي. وهذه اللهجات هي النرويجية القديمة، السويدية القديمة، والدنماركية القديمة التي تصنف معها الأيسلاندية لتتكون منهما لهجة تسمى النوروائية، وقد قدر لها ابتداء من سنة ١١٥٠ ميلادية تقريباً أن تصبح لغة أدب لفترة ما. وقد أدى ذلك إلى ظهور عامية جديدة هي الأيسلندية المتوسطة بين ١٣٥٠ و ١٥٣٠ ميلادية ومنها تطورت الأيسلندية الحديثة. وأقدم المخطوطات الأيسلندية القديمة المكتوبة بحروف لاتينية يرجع إلى بداية القرن الثاني عشر. وهذه المخطوطات تحتوي على كتب دينية وتاريخية ومجاميع من القصص الخرافية والفولكلورية التي تسمى «ادا».

٢ ــ أما النرويجي القديم فقد اجتاحته موجة من التطور العنيف خلال القرن الرابع عشر عندما كونت النرويج وحدة سياسية مع السويد وتوسعت هذه الدولة نحو الغرب في كثير من جزر شمال الأطلنطي، مما أدى إلى تعدد اللغات المحلية في داخلها.

٣ ــ وأما السويدي القديم فقد كانت حدوده اللغوية أوسع من حدود مملكة السويد السياسية الحالية، إذ كان يمتد على سواحل البلطيق حتى السواحل

الشمالية لما نسميه حالياً روسيا. وقد وصلتنا نقوش رونية من تلك اللغة ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، بل إن بعضها أقدم من ذلك، فقد يصل إلى حوالي سنة ٩٠٠ ميلادية. وابتداء من القرن الثالث عشر تترك الكتابة الرونية مكانها للأبجدية اللاتينية، ومن خلال هذه النصوص نستطيع أن نقدر أن مستوى الحضارة في أيسلاند كان أعلى منه في السويد، وإن كانت السويد قد بدأت تطورها الحضاري قبل أيسلاند بقرنين من الزمان.

٤ ــ وقد تأخر الدانماركي القديم في تطوره فلم يصبح لغة أدبية إلا في القرن الثالث عشر، وأقدم مخطوطات هذه اللغة كان بالكتابة الرونية، وهناك مخطوط قديم بالحروف اللاتينية تاريخه سنة ١٣٠٠ ميلادية، ومن خلاله نعلم أنه في هذا الوقت كانت الدانماركية ثلاث لهجات؛ اشتهرت منها منذ ظهور البروتستنتية لهجة زيلاند.

وكل هذه اللغات الشمالية تعرضت لتأثير الفرع الجرماني منذ ظهور البروتستنتية وانتشارها في القرن السادس عشر، ثم اجتاحها أثر اللغة الفرنسية على طول القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويظن أن تيار التأثير اللغوي لشعوب غرب أوروبا على هذه المناطق ولغاتها دائم لا ينقطع، بسبب الاختلاط الإجباري بين صيادي السمك في سفنهم في كل شمال غرب الأطلنطي.

(جـ) **الفرع الجرماني الغربي**: وهو يشمل لغاتٍ ولهجاتٍ استعملها السكسون والفرنجة والتوارنجيون (في ألمانيا الوسطى) والألمان (العشائر الجرمانية القاطنة على ضفتي نهر الراين) والبافاريون وغيرهم من القبائل الجرمانية القديمة.

وقد عرفت هذه القبائل فترة تسمى في تاريخها بعصر الغزوات، من القرن الرابع إلى القرن الثامن، حَلَّتْ فيها اللهجة الجرمانية محل الكلتية في الجزيرة البريطانية وهولندا وبلجيكا وفي سويسرا الألمانية. ثم أخذ الجرمان يستولون من السلافيين والإسكندينافيين والمجريين على أراضٍ واسعةٍ في شرقي موطنهم الأصلي، وأولئك الغزاة من الجنس الجرماني كانوا إذا دخلوا أرضاً متحضرةً تخلوا

عن لغتهم الأصلية وأخذوا لغة البلاد المفتوحة، ومثال ذلك ما حدث عندما استقر الفرنجة في بلاد الغالة (فرنسا) واللومبارديون في حوض نهر البو بإيطاليا، والقوط الغربيون في إسبانيا وشمال إفريقية. فكل هذه العشائر الجرمانية تكلمت بلهجاتٍ لاتينيةٍ الأصل.

أما في الجزر البريطانية فإن قبائل الجوت والسكسون والأنجل قد طردوا قبائل الكلتيين الذين كانوا قد اصطبغوا بالحضارة الرومانية فألجأوهم إلى الجبال. وقد تعرضت قبائل الأنجل التي قطنت شمال الجزيرة البريطانية لغزوات الدنماركيين، بينما بقي السكسون في الجنوب الشرقي واعتنقوا المسيحية وتحضروا ودافعوا عن أنفسهم أمام الغزو الدنماركي، وأخذوا يتكلمون منذ القرن السابع بما يسميه علماء اللغات «الإنجليزية القديمة». وجاء الفتح النورماندي مع وليم الفاتح الذي هاجم الجزيرة البريطانية من فرنسا فانتشر الأثر الفرنسي بين السكان. وخلال قرن من الزمان (من سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١١٥٠ ميلادية) انتشرت الكتابة بالحروف اللاتينية، الأمر الذي نتج عنه ظهور ما يسمى بالإنجليزية الوسطى وهي لغة تحمل بقوة أثر التعابير الفرنسية، وألفاظاً كثيرة من اللغات اللاتينية الأصل، ومع ذلك فقد بقي بناء اللغة إنجليزياً جرماني الصبغة. ومنذ القرن الرابع عشر بدأت اللغة الإنجليزية الحديثة تشق طريقها وتتطور في إطار الشخصية المعروفة للشعب البريطاني وتاريخه.

هذا ما كان من أمر القبائل الجرمانية التي خرجت من موطنها الأصلي واستقرت بعيداً، أما الذين بقوا في الأراضي الجرمانية فقد وصلتنا منهم نصوص ترجع إلى القرنين الثامن والتاسع، ومنها يتضح أنه كانت هناك لهجتان، بل لغتان متميزتان هما الألمانية القديمة والسكسونية القديمة، أو كما يسمونهما الألماني العتيق الأعلى والألماني العتيق الأسفل. ومع القرن الثاني عشر يأخذ التطور في التقريب بين اللغتين ويظهر ما يسميه علماء اللغة بالألمانية المتوسطة، مع بقاء عدد كبير من اللغات واللهجات الفرعية المحلية التي تذكر بأيام الانقسام الأولى. وبظهور البروتستنتية ساعدت الترجمة الألمانية للكتاب المقدس التي كتبها

مارتن لوثر على تثبيت شكل فصيح وعام للغة الألمانية، بحيث تتمكن المجاميع المختلفة من الألمان من تعليم لغوي بقواعد موحدة وإن اختلفت طرقهم في النطق، وهكذا وجد ما يسمى بالألمانية الرفيعة ثم اللهجات التي اشتهرت منها خارج ألمانيا لهجة السويسريين الألمان.

من أهم لغات هذا الفرع **اللغة الهولندية**، واللغة الفلمنكية المستعملة في بلجيكا وبعض أجزاء من شمال فرنسا، وهي تكاد تكون لهجة من الهولندية لشدة قربها منها. ومن اللهجات الهولندية الجديرة بالذكر اللهجة الإفريقانية «الإفريكانز» التي يستعملها المستعمرون البيض في جنوب إفريقيا حول منطقة رأس الرجاء الصالح. وكان هؤلاء البيض المعروفون باسم «البوير» يتكلمون الهولندية ثم لجأت إليهم في هذه البلاد جماعات فرنسية اللغة، بروتستنتية المذهب هم الهوجنوت، فحرم عليهم البيض في جنوب إفريقية استعمال اللغة الفرنسية مما أدى إلى تأثر الهولندية المستعملة هناك بالفرنسية التي ذابت فيها، والوصول بالهولندية الإفريقية إلى أن تكون لهجة لها مميزاتها المحلية.

اللغة اليونانية: من أهم وأعرق لغات المجموعة الهندوأوروبية، ولسنا نعرف شيئاً عن الحالة اللغوية لشبه جزيرة اليونان قبل وصول هذه العناصر الهندية الأوروبية، الهيلينية، في غضون الألف الثاني قبل الميلاد، وإن كنا قد عثرنا على نقوش سابقة على اليونان في بعض الجزر اليونانية وبخاصة جزيرة كريت، قاعدة الحضارة الإيجية أو المينوئية، كما يسميها علماء الآثار.

أما اليونانية فقد بدأت في بداوة الشعب اليوناني على شكل مجموعة من اللهجات القبلية واللغات المحلية. ولكن حدث في القرن الرابع الميلادي أن حقق اليونان وحدة لغوية اختاروا لها أفصح اللهجات وهي لهجة أيونيا (الساحل الغربي لآسيا الصغرى) ولهجة أتيكا (أثينا وضواحيها).

إلى جانب اللغة الأيونية الأتيكية كانت في اللغة اليونانية لهجات كبرى أشهرها اللهجة الأركادية القبرصية واللهجة الأيولية ثم اللهجات الغربية. وقد

جاء في النصوص المصرية التي ترجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ذكر غزو قام به قوم يسمون في هذه النصوص «أكايروشي» ويظن كثير من الباحثين أنهم يونان ينتسبون إلى جزيرة «خيوس»، أو أنهم «آخيون» من المجموعة الأركادية القبرصية. ونشير هنا إلى أن يونان قبرص استعملوا أولاً في تسجيل لهجتهم كتابة مقطعية. ومن النصوص التي كتبت باللهجة الأيولية في القرن السابع قبل الميلاد كتابات «الكية» و «سافو». وأشهر النصوص اليونانيّة القديمة على الإطلاق الملحمتان الكبيرتان المنسوبتان إلى هوميروس: الإلياذة والأوديسة.

وقد انتشرت اللغة اليونانيّة مع فتوح الاسكندر في الشرق الأوسط فاستعملت في مصر والشام منذ أيّام البطالسة والسلوقيين، كما انتشرت غرباً في الامبراطوريّة الرومانية كلغة علم وحضارة، ثم قضت عليها النهضة اللاتينية غرباً كما قضى عليها الإسلام شرقاً بفتح الإسكندرية ثمّ بيزنطة، وأخذت اللغة اليونانيّة من بعد طابعاً دينياً ثم ظهرت اليونانيّة الحديثة ونهضت بعد استقلال اليونان من حكم الأتراك، وأصبح لها أدبٌ مرموق.

اللغة اللاتينية: وكان الأولى بنا لو أننا اتبعنا تصنيفاً صلباً لا يلين أمام أهمية أية لغة أن نبدأ هذه الفقرة بعنوان آخر هو: كتلة اللغات الإيطالية من العائلة الهندوأوروبية. إلاّ أن هذه الكتلة تفرعت في قديم الزمان إلى لهجتين صارتا لغتين مستقلتين، أولاهما اللغة الأسكوأمْبرية بلهجاتها، وقد اندثرت كلها ولم تصلنا منها إلاّ نقوشٍ نادرةٍ، وثانيتهما هي اللغة اللاتينية التي تنتسب إلى إقليم لاتيوم الإيطالي والذي كان سكانه يسمون اللاتين. وفي بداوة اللاتين تعددت اللهجات في لغتهم ثم تقدمتها من حيث الفصاحة والإنتاج الأدبي والعلمي المكتوب لهجة مدينة روما، بالرغم من أن سكان هذه المدينة القدماء لم يكونوا من اللاتين الخلص، وإنما كانوا خليطاً من اللاتين والسابين وهم عشائر قديمة من سكان إيطاليا في الأقاليم المحيطة بروما. ويرجح الباحثون أن السابين كانوا أقدم وجوداً في المنطقة من اللاتين. وأن اللاتين هم عشائر هندية أوروبية عبرت جبال الألب واندفعت جنوباً في أفواجٍ متعاقبةٍ.

ويقسِّم فقهاء اللغة اللاتينية مراحل تطور تلك اللغة إلى ثلاث: اللاتينية العتيقة واللاتينية الفصيحة (الكلاسيكية)، واللاتينية المتأخرة. ولكل مرحلة شواهد من الأدب وتراث من الفكر يميزها. فالمرحلة العتيقة تبدأ على الأرجح منذ إنشاء مدينة روما سنة ٧٥٣ قبل الميلاد، وقد وصلتنا من هذه المرحلة أجزاء من نقوش، منها مجموعة قوانين الملك نوما، ثاني ملوك روما القديمة بعد رومولوس، ثم الألواح الاثنا عشر التي ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، كما روى الرواة من هذه المرحلة صلوات وثنية ومجموعات من الغناء الشعبي الإباحي وقصائد من شعر الهجاء والتجريح في الساسة والعسكريين. أما المرحلة الكلاسيكية فتبدأ بتأثير الأدب اليوناني منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وتستمر إلى بداية التفكير المسيحي المستقر في القرن الرابع بعد الميلاد. ثم يدخل الأدب اللاتيني في دور التأخر كما تتخلى اللغة اللاتينية عن مكانتها شيئاً فشيئاً أمام اللهجات الرومانية الفتية التي أخذت في الظهور منذ العصور الوسطى. وما تكاد هذه اللهجات تأخذ مكانتها في عالم الفكر الأوروبي وتصبح لغات منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي حتى تنزوي اللاتينية في الكنائس الكاثوليكية لتصبح لغة عبادة فقط، وللكنيسة الكاثوليكية وحدها.

وفي عصر الإمبراطورية الرومانية في القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد عندما بلغت هذه الإمبراطورية قمة ازدهارها، كانت اللاتينية هي لغة العلم والإدارة والقضاء والدين والعسكرية في كل أنحاء هذه الإمبراطورية تقريباً، الأمر الذي يفسر لنا وجود دخيل من اللاتينية في كثير من اللغات الغريبة على العائلة الهندية الأوروبية، كالعربية والسريانية والآرامية والعبرية، من اللغات السامية، وكالقبطية ولغات البربر في الشمال الإفريقي من المجموعة الحامية الإفريقية.

ولعل الحياة الطويلة المجيدة التي عاشتها اللاتينية، وهي حياة تزيد على ألفي سنة كانت السبب في أنها أصبحت أماً لمجموعة من اللغات هي المجموعة الرومانية ومن أهم لغاتها: الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية

والبروفنسالية (لغة إقليم بروفانس في جنوب فرنسا)، والرومانية (لغة جمهورية رومانيا) يضاف إلى ذلك لهجات منها لهجة اللادينو في إسبانيا، وقد أصبحت خاصة بيهود هذه المنطقة، كما أن يهود الأقاليم الجرمانية نشأت لهم لهجة ألمانية في «الجيتو» تسمى «اليديش». كذلك نذكر من اللهجات اللاتينية الأصل اللهجة الرومانشية واللهجةالفريولية، الأولى في سويسرا والثانية في النمسا.

اللغة الإيطالية: كانت كما قلنا حتى القرن الثالث عشر عامية شعبية غير معترف بها، وكانت اللاتينية إذ ذاك هي اللغة الفصحى، ثم قُدِّر لها أن تحظى بثلة من العباقرة أمثال دانتي الليجيري وفرانشسكو بتراركا وجيوفاني بوكاشيو ثم نيكولو ماكيافيلي، كتبوا بها فتبوَّأت مكانها لغة قومية للشعب الإيطالي بدلاً من اللاتينية. وهناك ظاهرة طريفة في اللغة الإيطالية من وجهة نظر الدراسات اللغوية وهي أنها في أثناء تكونها تعددت لهجاتها بحسب العناصر اللغوية والبشرية التي مازجت اللاتينية في مختلف الأقاليم وأهم هذه العناصر الأربعة:

١ ـ **الإتروسك**: وظهر أثرهم اللغوي في توسكانا وجزيرة كورسيكا وأقاليم ميلانو وفيرونا وبولونيا. وقد ذكرنا أن لغة الإتروسك، اللغة الإترورية من اللغات التي ما يزال حول أصلها جدل كثير.

٢ ـ **الليجوريون**: وهم عشائر لا تنتمي إلى الجنس الآري، كانت تسكن شمال غرب إيطاليا وجزءاً من جنوب شرق فرنسا.

٣ ـ **الكلت**: وهم عناصر هندية أوروبية أقرب إلى الفرع الجرماني سكنوا في وسط إيطاليا.

٤ ـ **البنادقة أو الفينيت**: الذين تنسب إليهم مدينة البندقية (فينيسيا) ويظن أنهم من الإيليريين الذين يغلب عليهم الانتماء إلى الصقالبة مع مزيج من دماء أخرى.

هذه الخلفية اللغوية والأنثروبولوجية كانت سبباً في تمكن ثلاث لهجات

إيطالية نهائية: واحدة في الوسط والجنوب وواحدة في الشمال والثالثة في إقليم توسكانا، ومن هذه الأخيرة تطوَّرت الإيطالية الحديثة.

اللغة الفرنسية: ويرجع أقدم نصوصها إلى سنة ٨٤٢ ميلادية وهو ما يسمى «قَسَمَ ستراسبورج». وتنقسم فرنسا لغوياً إلى شطرين كبيرين أحدهما شمال نهر اللعوار والثاني جنوبيه، ويميز كل منهما عن الآخر باللفظة الفرنسية التي معناها «نعم» والتي تنطق شمالاً «وي» وجنوباً «أوك». ففي منطقة «لا نجدوي» يمكن تمييز ثلاث لهجات كبيرة هي لهجة بورجونيا واللهجة النورمادية واللهجة البيكاردية. أما في الجنوب إقليم «لا نجدوك» فتمييز لهجات الليموزين والسنطون أو السنطونجية والأوفرنياتية والبيريجوردينية ولهجة أقصى الجنوب عند مصب الرون.. وإلى جانب هذه اللهجات الفرنسية توجد أساليب أخرى للتفاهم منها الكلتية الممثلة في لهجة مقاطعة بربتاني في أقصى الغرب، والجرمانية الممثلة في لهجة اللورين والألزاس في أقصى الشرق. أما اللهجة الفرنسية التي قدر لها أن تصبح أساساً للفرنسية الفصحى فهي لهجة متوسطة يتكلم بها الفلاحون في إقليم التورين الواقع على نهر اللوار والذي اختاره ملوك فرنسا القدماء مقراً ريفياً لهم فكثرت فيه القصور والضياع والقلاع. وكما كانت الحال في اللغة الإيطالية وصلت الفرنسية إلى مستوى اللغة الفصحى على يد عباقرة من الأدباء والمفكرين أمثال رابليه ومونتيني ورونسار في غضون القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

اللغة الإسبانية: كان سكان هذه البلاد يتكلمون قديماً لغة مجهولة الانتماء هي الإيبيرية،ثم تعرضوا لغزو الرومان وحلول الحضارة اللاتينية في إسبانيا ثم اجتاحها القوط الغربيون والوندال والنورمانديون، وأخيراً افتتحها العرب على يد طارق بن زياد، وقامت فيها حضارة عربية إسلامية على مدى أكثر من خمسة قرون، دالت بعدها دولةالعرب وطردوا من إسبانيا وتقلص عنها ظل الإسلام.
كل ذلك أثر في اللغة الإسبانية فاحتوت على لهجات من أهمها: لهجة أراجون في الشمال الشرقي، ولهجة أستوريا، واللهجة الليونية في الشمال، واللهجة

الكستلانية (لهجة ما كان العرب يسمونه قشتالة) في الوسط؛ واللهجة الأندلسية في الجنوب، وقد وصلت اللغة الإسبانية إلى مرتبة اللغة القومية الفصحى عندما أتيح لها هي أيضاً أدباء كبار مثل سرفانتس في القرن السادس عشر، وكالديرون في القرن السابع عشر.

اللغة البرتغالية: كان سكان البرتغال الأقدمون «الجوانش» يتكلمون بإحدى لهجات البربر المعروفين في شمال أفريقيا. وبعد الاحتلال الروماني دخلتها اللاتينية من خلال مقاطعة غاليسيا الإسبانية المتاخمة للبرتغال وباستقرار اللهجة الغاليسية في هذه البلاد انقسمت بدورها إلى لهجتين، إحداهما إلى الشمال من لوزيتانيا وهو إقليم ظل بمعزل عن النفوذ العربي والإسلامي، والأخرى إلى الجنوب حيث عاصرت الحضارة العربية. ولكن ضيق هذه البلاد أدى إلى توحيد اللهجتين بعد استقلال البرتغال.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى استعمار إسبانيا والبرتغال لأميركا الوسطى والجنوبية وانتقال لغتيهما إلى هذه البلاد التي أصبحت تسمى أميركا اللاتينية، وكلها تستعمل الإسبانية ما عدا البرازيل التي تستعمل البرتغالية، كما نجد البرتغالية مستعملة في جزائر ماديرا وجزائر آسورا، بينما الإسبانية مستعملة في جزر الكناري، واللهجة التي أشرنا إلى وجودها في فرنسا وسميناها البروفنسالية هي أيضاً قريبة الشبه جداً بالإسبانية القطلانية.

لغة رومانيا: وهي شعبة متطرفة من لغات الكتلة اللاتينية في أقصى الشرق من أوروبا. ويقال إن الشعوب القديمة التي استوطنت البلقان على الضفاف الجنوبية لنهر الدانوب، وكانت تتكلم بلهجات لاتينية، قد أقرت ذلك في رومانيا، الأمر الذي يفسر لنا الاختلاف الشديد بين لهجات اللغة الرومانية، الذي يتلخص في أربع لهجات كبرى: الداكورومانية، والمقدونية، والأفلاقية (الفالاكية)، والأسترية. وكان الأميون من سكان رومانيا قديماً لا يكاد بعضهم يفهم بعضاً إذا لم يكونوا من أبناء لهجة واحدة، ولكن انتشار التعليم ثم قيام جمهورية ديمقراطية شعبية في هذه البلاد قد أدى إلى تقارب هذه اللهجات وسيادة

الرومانية الرسمية، وهي وإن كانت لاتينية الأصل إلى أن موقعها في قلب العالم السلافي، ومتاخمتها لليونان، ووقوعها تحت الحكم التركي مدة طويلة من الزمان، كل هذه الاعتبارات تركت آثارها فيها من الدخيل السلافي واليوناني والتركي، ثم من تأثرها نحوياً ببعض صور التعبير السلافي.

* **كتلة اللغات الدرافيدية (الأدرويدية)**: كلمة «درافيدا» اسم اصطلاحي أطلقه علماء النحو السنسكريتي على مجموعتين كبيرتين من سكان جنوبي الهند هما التامول والتيلوجو، ثم استعمل نفس الاصطلاح ليطلق على مجموعة من اللغات المستعملة في الهند والتي تنتمي إلى السنسكريتية ويدين كثير من المتكلمين بها بشريعة «براهما». أطلقت مثلاً على الجوجاراتي، والماراثي، والأوريسه، وما تزال في هذه الكتلة لغات لأقوام أميين لم يسجلها بالكتابة إلاَّ الباحثون الأوروبيون، وقد ذكر الباحث البريطاني كالدويل (Caldwell) من هذا النوع لغات التودا (Toudas) والكوتا (Kotas) والجُند (Gonds) والكو (Kous) والأراءون (Araons) والراج محل (Ragmahals). أما أهم اللغات المستعملة في الهند من تلك الكتلة فهي التامول، وتسمى الدامير، وهي لغة السهول ابتداءً من خليج البنغال، وتعتبر مدينة مدراس أهم مركز للناطقين بهذه اللغة. وهناك لغة المالايالام (Malayalam) وهم أهل جبل. أما التيلوجو، أو التينوجو، فهي لغة منتشرة على الساحل الشرقي. وسكان هضبة ميسور يتكلمون لهجة تسمى كانارا أو كانادا أو كرناتاكا، وكانت لهم مملكة قديماً، ولغتهم، التي أصبحت الآن عامية، أدب قديم كذلك. أما أقرب اللغات المنتمية إلى السنسكريتية في هذه الكتلة فهي لغة التُولو الذين يعيشون في ناحية من إقليم كنارا. وتنتشر غرباً لغة الكُورج، وهي غير معروفة من الباحثين اللغويين فيما عدا بعض تسجيلات للمبشرين الغربيين. وعلى سفوح جبال نيلغيري تستعمل لغة النودا أو التوداوار. والكوتا، وأكثرهم من الحرفيين، يستعملون لغةً لعلها صورةً قديمةً من الكانارا. «والكُو» لهم لغتهم كما قلنا وقد يسمون الخُنْد، وليس بعيداً أن تكون هناك صلة ما بين الخُنْد والجُنْد وأن تكون اللهجتان على ارتباط وثيق.

* * *

عائلة اللغات السامية

وهي الأرومة اللغوية التي تنتمي إليها لغتنا العربية. ولما كان البحث المقارن يعتمد على تلمس وجوه الشبه ووجوه الافتراق بين أفراد العائلة اللغوية الواحدة في سبيل تحقيق فهم أعمق وأفضل لكل لغة من اللغات على حدة ولغات المجموعة كلها، من حيث ارتباطها بعضها ببعض، ولما كان البحث اللغوي في اللغات السامية، كما هو في غيرها من اللغات، يتطور مع ازدياد الثروة من النصوص التي يكشف عنها، أو من النصوص التي كانت مستعصية ثم حل بعض العلماء رموزها، فإنه ينبغي أن تفرد للغات السامية، خدمة للغة العربية، دراسة خاصة بها، تكفل إعطاء وصف لغوي أكثر تفصيلاً لأفراد العائلة السامية، كما تكفل إعطاء فكرة تاريخية وجغرافية عن التوزيع والتصنيف اللغوي في داخل هذه العائلة، مع الإشارة إلى أهم الخطوات العلمية التي أفادت منها الدراسات السامية، ثم ما يمكن أن يعمل استمراراً في هذا الطريق من أجل الوصول إلى حلول أكثر واقعية فيما يتصل بمشاكل اللغة العربية الحالية والمستقبلية؛ ويكفي هنا أن نقول إكمالاً للإحصاء التقريبي الذي عرفنا فيه بأهم العائلات والمجاميع والكتل اللغوية في العالم، أن اللغة السامية الأم التي انحدرت منها لغات هذه العائلة، لغة مندثرة لا نملك منها نصوصاً مكتوبة ولا مروية في كتابات آخرين، ولكنها تشغل بفروعها المنطقة المحصورة بين هضبة إيران وجبال أرمينيا وهضبة الأناضول شرقاً وشمالاً، ثم البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس والبحر الأحمر والمحيط الهندي غرباً وجنوباً.

في داخل هذه الرقعة التي تشمل العراق والشام وشبه الجزيرة العربية، تحدّث الساميون بلغاتهم، فعرفنا منها في العراق الأكادية، وهي لغة قريبة الشبه بالعربية حتى من حيث الأعراب، ومنها ولدت البابلية الأشورية والكلدانية. أما إلى الغرب فإن الشام ينقسم إلى البادية والسهول الداخلية ثم السواحل الواقعة على البحر الأبيض، ففي المناطق الأولى سادت الآرامية التي ولدت منها السريانية والنبطية، وفي الثانية سادت الكنعانية التي ولدت منها الفينيقية والمؤابية والعبرية. أما في الجنوب في الجزيرة العربية، فقد سادت العربية الفصحى وعديد من لهجاتها القديمة، كما قامت في جنوب شبه الجزيرة الكتلة اليمنية بلغاتها الحميرية والسبئية والمعينية وما تفرع من اللهجات المنتمية لها، حتى إذا عبرنا مضيق باب المندب إلى القارة الإفريقية وجدنا اللغات الحبشية ترتبط ارتباطاً عضوياً بهذه العائلة السامية كما ترتبط بها لغة جزيرة سقطرى في المحيط الهندي.

□ □ □

الفهارس

(١) فهرس المصادر والمراجع .

(٢) فهرس الأعلام .

(٣) فهرس الطوائف والشعوب والقبائل .

(٤) فهرس اللغات واللهجات .

(٥) فهرس الألفاظ والعبارات .

(٦) فهرس الموضوعات .

(١)

فهرس المصادر والمراجع

(أ) المصادر والمراجع العربية :

١ ــ إبراهيم السامرائي (دكتور) : دراسات في اللغة . بغداد ، ١٩٦١م .

٢ ــ ابن جني ، أبو الفتح عثمان : الخصائص . تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٢٧١هـ ــ ١٩٥٢م ، الجزء الأول .

٣ ــ ابن سيده : المخصص . في ١٧ مجلداً ، طبع بولاق ، القاهرة ، سنة ١٣٢١هـ .

٤ ــ ابن العبري ، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي : تاريخ مختصر الدول . بتحقيق الأب اليسوعي أنطون صالحاني ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨م .

٥ ــ ابن فارس ، أبو الحسين أحمد : الصاحبي في فقه اللغة . حققه وقدم له الدكتور مصطفى الشويمي ، بيروت ، مؤسسة بدران ، ١٩٦٣م .

٦ ــ ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل : تفسير القرآن العظيم . القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، أربعة مجلدات .

٧ ــ ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب . بولاق ، المطبعة الكبرى الميرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٠٠هـ ، عشرون جزءاً .

٨ ـ أبو زيد القرشي ، محمد بن أبي الخطاب : جمهرة أشعار العرب . بولاق ، المطبعة الأميرية ، ١٣٠٨هـ .

٩ ـ أبو سليمان الفاسي ، داود بن إبراهيم : كتاب جامع الألفاظ . بتحقيق سالومون سكوس ، طبع فيلادلفيا ، الجزء الأول ، ١٩٢٦م ، الجزء الثاني ، ١٩٤٥م .

١٠ ـ إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا . بيروت ، ١٩٥٧م ، أربعة أجزاء .

١١ ـ الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك : يتيمة الدهر في شعراء العصر . القاهرة ، مطبعة الصاوي ، ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م ، أربعة أجزاء .

١٢ ـ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : كتاب الحيوان . سبعة أجزاء ، نشر فوزي عطوي ، بيروت ، ١٩٦٨م .

١٣ ـ الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر : الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ومعه كتاب الانتصاف ، للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير السكندري . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٣٥٤هـ .

١٤ ـ السيوطي ، جلال الدين : المزهر في علوم اللغة وأنواعها . القاهرة ، المكتبة الأزهرية : محمد سعيد الرافعي ، ١٣٢٥هـ .

١٥ ـ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ، المطبعة الحسينية ، ثلاثة عشر مجلداً ، ١٣٢٦هـ .

١٦ ـ طه عبد الحميد طه (دكتور) : فقه اللغة . القاهرة ، ١٩٦٨ / ١٩٦٩م .

١٧ ـ علي عبد الواحد وافي (دكتور) : علم اللغة . القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الرابعة ، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م .

١٨ ـ علي عبد الواحد وافي (دكتور) : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل . القاهرة ، مكتبة دار العروبة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م .

١٩ ـ علي العناني (دكتور) : كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها . بولاق ، المطبعة الأميرية ، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م .

٢٠ ـ القرآن الكريم .

٢١ ـ الكتاب المقدس .

٢٢ ـ كمال يوسف الحاج : في فلسفة اللغة . بيروت ، دار النهار ، ١٩٦٧م .

٢٣ ـ مروان بن جناح ، أبو الوليد : كتاب اللمع . حققه ونشره يوسف دورنبورغ ، باريس ، ١٨٩٦م .

٢٤ ـ المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . بإشراف يوسف أسعد داغر ، أربعة مجلدات ، بيروت ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م .

(ب) المصادر والمراجع الأجنبية :

1 — Bagrès et Goldberg : Epistola da Studii Targum utilitate et de linguae Chaldaicae Misnicae Talmudicae, 'Arabicae, vocabulorum item nonnullorum Rabbinicorum convenientia cum Hebraea, Paris, 1857.

2 — Bergman, Peter M. : The Concise Dictionary of 26 Languages, New York, 1968.

3 — Brockelmann, C. : Grundiss der vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin, 1908-1913, 2 vols.

4 — Brunot, Ferdinand : Histoire de la Langue Française, 5 vols.

5 — Bühler, K. : Sprachtheorie, Iéna, 1943.

6 — Darmesteter, Arsène : La vie de Mots, Paris, 1932.

7 — Frazer, Sir James George : Folk-Lore in the Old Testament, London, Macmillan and Co., 1919, 3 vols.

8 — Funke, O. : Studien zur Geschichte der Sprachphilosophie, 1927.

9 — Homburger, L. : Le Langage et les Langues, Paris, 1951.

10 — Littré, E. : Dictionnaire de la Langue Française, Paris, 1883.

11 — Lourié, Ossip : Le Langage et la Verbomaine, Paris, 1912 .

12 — Marouzeau, J. : La Linguistique, ou science du langage, Paris, 1921.

13 — Meillet, Antoine, et Mercel Cohen: Les Langues du Monde, Paris, 1925.

14 — Perrot, Jean: La Linguistique, Collection (que sais-je?), Paris, 1953.

15 — Potter, Siméon: Language in the Modern World, England, Pelican, 1964.

16 — Pittard, Eugène : Les Races et l'Histoire. coll. Evolution de l'Humanité, Paris, 1924.

17 — Renan, Ernest : Histoire Générale et Système Comparé des Langues Sémitiques, Paris, 1855.

18 — Révész, G. : Origine et Préhistoire du Langage, traduction de L. Homburger, Paris, 1950.

19 — Russell, Bertrand : An Inquiry into Meaning and Truth, England, Pelican, 1963.

20 — Sapir, Edward : Le Langage, traduction de Guillemin, Paris, 1953.

21 — Schmidt, R.R. J. :L,Aurore de L'Esprit Humain. Payot, Paris, 1936.

22 — Staline, Joseph : A propos dü Marxisme en Linguistique, Paris, 1951.

23 — Vendryés J. : Le Langage, Introduction Linguistique à l'Histoire, Paris, 1921.

24 — Vendryés, Lev Semenovitch : Thought and Language, translated by Eugenia Hanfmann and Gertrude Vakar, U. S. A. The M. I.T. Press, Massachussetts Institute of Technology, 1966.

25 — Wholf, Benjamin Lee : Language, Thought and Reality; Selected writings, edited and introduction by B. Carroll, U. S. A., M. I. T. Press, 1966.

26 — Wright, William : Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Amsterdam, 1966.

27 — Zaza, Hassan : Le Semrent chez les Anciens sémites, Paris, 1957.

(٢)

فهرس الأعلام

* * *

(٣)

فهرس الطوائف والشعوب والقبائل

* * *

(٤)

فهرس اللغات واللهجات

[ب]

[ل]

[م]

[ن]

* * *

(٥)

فهرس الألفاظ والعبارات

* * *

(٦)

فهـرس الموضوعـات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

تصنيف اللغات ١٣١ ــ ١٩٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *